

THE BOOK WAS DRENCHED

TIGHT BINDING BOOK

190325

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No.

ن - ٨٩٢٥٤٥ / ن

Accession No. ١٦٠٢٣٠

Author

المؤرخ المشايخ ابن القيم الجوزي

Title

نظام الادب في فنون الادب

This book should be returned on or before the date last marked below.

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

نهاية التلاذذ

في

فنونه الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النوري

الجزء الثالث عشر

المطبعة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٥ - ١٩٣٨

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

بيان

يوجد من نُسخ هذا الجزء بدار الكتب المصرية نسختان كاملتان مأخوذتان بالتصوير الشمسي؛ وقطعة غير كاملة من نسخة أخرى مأخوذة بالتصوير الشمسي أيضاً، وقد نبها على الموضوع الذي تنهى عنده هذه القطعة في إحدى الحواشي .

أما خطوط النسخ الثلاث : فأحداها مكتوبة بخط نور الدين العاملي في سنة ٩٦٦ هـ . وثانيها مكتوبة بخط الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الجبرتي الحنفي في سنة ٩٦٦ هـ أيضاً . والثالثة منسوب خطها إلى المؤلف كما نص على ذلك في بعض الأجزاء الأخرى منها .

أما التحرير والتصحيح في هذه الأصول فيكاد يكون متفقاً في جميعها؛ غير أننا وجدنا أن بعض هذه النسخ قد سقطت منها عبارات وجدناها مثبتة في النسخ الأخرى، فكلنا بعضها من بعض كي يكون الجزء نسخة كاملة من جميع هذه الأصول .

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا الموضوع أن المؤلف قد نقل موضوعات هذا الجزء عن كتابين : أحدهما "بواقيت البيان في قصص القرآن" لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي؛ والثاني "المبتدأ" لأبي الحسن محمد بن عبد الله المعروف بالكسائي؛ وقد بحثنا في محفوظات دار الكتب عن اسمي هذين الكتابين فلم نجدهما، غير أننا وجدناهما باسمين آخرين؛ فكتاب الثعلبي مكتوب عليه : "قصص الأنبياء المسمى بالعراس" . وكتاب الكسائي يسمى "بالعراس" أيضاً؛ ويسمى أيضاً "نقائس العرائس" كما هو مكتوب على بعض نسخه المخطوطة . وفي "كشف الظنون" أنه يسمى "خلق الدنيا وما فيها" . والأول مطبوع بالمطبعة البية بالقاهرة عام ١٣٠١ هـ . والثاني مخطوط سنة ٨٠٣ هـ .

ومما يرجح لدينا أن هذين الكتابين هما اللذان أشار إليهما المؤلف ونقل عنهما وإنما تغير اسماهما دون مسماهما، مراجعة ما فهمنا على ما نقله المؤلف في هذا الجزء عنهما ملخصاً، والاتفاق التام في العبارات بين المانقول والمقول عنه .

ويلاحظ أنه قد ورد في هذا الجزء قلا عن الكتّابين المذكورين كثير من الأسماء العبرانية التي تعود المؤرخون القدماء ذكرها في كتبهم في الكلام على بدأ الخليفة وقصص الأتياء ، وهذه الأسماء لم تقف على نصوص صريحة تدل على الصواب في ضبطها ، والصحة في تقييد حروفها .

وقد بحثنا فيما بين أيدينا من مصادر التاريخ الكثيرة عنها للوثوق من صحتها فوجدنا تلك المصادر مختلفة كل الاختلاف فيها ، حتى لا تجد كتابا متفقا مع غيره في كتابتها . لهذا رأينا أن نتي تلك الأسماء كما هي في الأصول ، إلا ما وجدناه مضبوطا بخط موثوق بكتابه .

وعسى أن نكون قد وفقنا في هذا الجزء ، إلى ما قصدنا إليه في الأجزاء السابقة من تصحيح التحريف ، وتكامل النقص ، وضبط الملتبس من الألفاظ ، وغير ذلك مما سردناه في الكلام على تصحيح الأجزاء السابقة . وقد تم طبعه في عهد من اعتر العلم بنصره ، وازدهت الآداب في عصره وقويت آمال لغة العرب فيه ، واختالت زهوا بأبائيه :

حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ”فاروق الأول“ حفظه الله

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر بالشكر والثناء تلك الجهود العظيمة التي بذلها ويذلها حضرة صاحب العزة العالم الكبير ”الدكتور منصور فهمي بك“ مدير عام دار الكتب المصرية ، واهتمامه الصادق بإخراج هذه الكتب في أقرب وقت ممكن على أحسن وجه وأكمل ، تحقيقا لما نتوق إليه الأمة العربية جمعاء من إحياء لغتها وآدابها بنشر الكتب الثمينة في الدين واللغة والأدب والتاريخ وغيرها من أنواع العلوم .

ونسأل الله سبحانه أن يجعل عملنا خالصا لوجهه ٥ مصححه
القاهرة في ٧ شوال سنة ١٣٥٧ هـ (٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٨ م) أحمد الزين

فهرس

الجزء الثالث عشر

من

كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى

صفحة

- ١ ... الفن الخامس فى التاريخ ويشتمل على خمسة أقسام ...
- القسم الأول من الفن الخامس فى مبدأ خلق آدم وحواء عليهما السلام ودخولهما الجنة ، وما كان بينهما وبين إبليس لعنه الله وهبوطهما إلى الأرض واجتماعهما بعد الفقرة ، وخبر حوته وزرعه ، وحمل حواء ووضعها ، وخبر أبى آدم هابيل وقايل ، ونسب آدم عليه السلام ووفاته ، وخبر شيث وأولاده ، وقصة إدريس ونوح وهود وصالح عليهم السلام ، وخبر أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد ، وخبر أصحاب الرس ، وفيه ثمانية أبواب ...
- ٣ ... الباب الأول من هذا القسم فى مبدأ خلق آدم وحواء عليهما السلام وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما — ذكر خلق آدم عليه السلام ١٠
- ١١ ... ذكر دخول الروح فيه ...
- ١٢ ... ذكر سجود الملائكة لآدم ...
- ١٣ ... ذكر خلق حواء عليها السلام ...
- ١٤ ... ذكر عرض الأمانة على آدم عليه السلام ...
- ١٥ ... ذكر خبر إبليس والطاوس والحية ...

صفحة

- ١٨ ذكر خروج آدم وحواء من الجنة
- ١٩ ذكر سؤال إبليس لعنه الله
- ٢٠ ذكر سؤال آدم عليه السلام
- ٢١ ذكر سؤال حواء عليها السلام
- ٢٣ ذكر توبة آدم عليه السلام
- ٢٥ ذكر اخذ الميثاق على ذرية آدم عليه السلام
- ٢٦ ذكر اجتماع آدم بحواء
- ٢٨ ذكر بناء آدم وزوجه وحرثه
- ٣٠ ذكر حمل حواء عليها السلام وولادتها
- ٣١ ذكر مبعث آدم عليه السلام إلى أولاده
- ٣٢ ذكر قتل قابيل هابيل
- ٣٤ ذكر وفاة آدم عليه السلام
- ٣٥ ذكر وفاة حواء

الباب الثاني من القسم الأول من الفن الخامس في خبر شيث بن آدم

- ٣٥ عليهما السلام وأولاده
- ٣٦ ذكر قتال شيث قابيل

الباب الثالث من القسم الأول من الفن الخامس في أخبار إدريس النبي

- ٣٨ عليه السلام

الباب الرابع من القسم الأول من الفن الخامس في قصة نوح عليه السلام

- ٤٢ وخبر الطوفان
- ٤٣ ذكر مبعث نوح عليه السلام

من نهاية الأرب

(ز)

صفحة

ذكر عمل السفينة ٤٦

ذكر خبر دعوة نوح على ابنه حام ودعوته لابنه سام ٤٩

ذكر وصية نوح ووفاته ٥٠

ذكر خبر أولاد نوح عليه السلام من بعده ٥٠

الباب الخامس من القسم الأول من الفن الخامس في قصة هود عليه

السلام مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم ٥١

ذكر مبعث هود عليه السلام ٥٢

ذكر خبر وفد عاد إلى الحرم يستسقون لهم ٥٦

ذكر إرسال العذاب على قوم هود ٥٨

ذكر خبر مرئذ ولهمان ٦٠

ذكر خبر إرم ذات العماد وقصة شديد وشذاد بنى عاد ٦١

الباب السادس من القسم الأول من الفن الخامس في قصة صالح عليه

السلام مع ثمود وعقرهم الناقة وهلاكهم ٧١

ذكر ميلاد صالح عليه السلام ٧٣

ذكر مبعثه عليه السلام ٧٥

ذكر خروج الناقة ٨٠

ذكر خبر عقر الناقة وهلاك ثمود ٨٢

الباب السابع من القسم الأول من الفن الخامس في أخبار أصحاب البئر

المعطلة والقصر المشيد وما كان من أمرهم وهلاكهم ٨٦

الباب الثامن من القسم الأول من الفن الخامس في خبر أصحاب الرس

وما كان من أمرهم ٨٨

صفحة

القسم الثاني من الفن الخامس في قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام	
وخبره مع عمروذ وقصة لوط وخبر إسحاق وميقوب وقصة يوسف	
وأيوب وذى الكفل وشعيب، وفيه سبعة أبواب — الباب الأول	
منه في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام وخبره مع عمروذ بن كنعان	
ذكر خبر عمروذ بن كنعان	٩٦
ذكر الآيات التي رآها عمروذ قبل مولد إبراهيم عليه السلام	٩٩
ذكر حمل أم إبراهيم عليه السلام وطلوع نجمه	١٠٠
ذكر ميلاد إبراهيم عليه السلام	١٠٢
ذكر خروج إبراهيم عليه السلام من الفار واستدلاله	١٠٢
ذكر معجزة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام	١٠٥
ذكر مبعث إبراهيم عليه السلام	١٠٧
ذكر سؤال إبراهيم عليه السلام في إحياء الموتى	١٠٨
ذكر آية لإبراهيم عليه السلام	١٠٨
ذكر خبر تكسير إبراهيم الأصنام وإلقائه في النار	١١١
ذكر خبر صعود عمروذ إلى السماء على زعمه	١١٣
ذكر خبر إرسال البعوض على عمروذ وقومه	١١٤
ذكر هجرة إبراهيم عليه السلام	١١٥
ذكر خبر ميلاد إسحاق عليه السلام ومقامه وأمه في البيت المحترم	١١٥
ذكر خبر بشارة إبراهيم بإسحاق عليهما السلام	١١٨
ذكر خبر التبييع وفدائه	١٢٠
ذكر وفاة إبراهيم عليه السلام	١٢٢

Abstract

الباب الثاني من القسم الثاني من الفن الخامس في قصة لوط عليه السلام

١٢٣ وقلب المدائن

ذكر خبر نزول العذاب على قوم لوط وقلب المدائن ١٢٥

الباب الثالث من القسم الثاني من الفن الخامس في خبر إسحاق ويعقوب

عليهما السلام ١٢٨

ذكر مبعث يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ١٢٩

الباب الرابع من القسم الثاني من الفن الخامس في قصة يوسف بن يعقوب

ابن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام - ذكر خبر ميلاد يوسف عليه

المسلم ١٣٠

ذکر رؤیا یوسف علیہ السلام وکید إخوته له ۱۳۱

ذكر رجوع اخوة يوسف إلى يعقوب - ذكر كلام الذئب بين يدي

مقبوب ۱۳۳

ذكر خبر خروج يوسف من الحب وبيعه من مالك بن دعر ... ١٣٤

ذكر خبر بيع يوسف من عزيز مصر ١٣٥

ذکر خبر یوسف وزایحہ ۱۳۹

ذكر خبر النسوة اللاتي قطعن أيديهن ١٣٨

ذكر الإمام يوسف عليه السلام التعبير ١٤٠

ذكر خير الحجاز والساقى ١٤٠

ذكر رؤيا الملك وتمييزها وما كان من أمر يوسف وولايته ١٤١

ذكر حاجة زليخا إلى الطعام وزواج يوسف بها ١٤٤

ذكر دخول إخوة يوسف عليه السلام في المرة الأولى ١٤٥

ذكر خبر دخولهم عليه في المرة الثانية ١٤٧

صفحة

ذكر خبر دخولهم عليه في الدفعة الثالثة ١٥٢

ذكر خبر حديث الصاع ١٥٢

ذكر دعوة يوسف عليه السلام وارتماله عن بلد الريان ١٥٥

ذكر خبر وفاة يوسف عليه السلام ١٥٦

الباب الخامس من القسم الثاني من الفن الخامس في قصة أيوب عليه السلام

وابتلائه وعافيته ١٥٧

ذكر كشف البلاء عن أيوب عليه السلام ١٦٣

الباب السادس من القسم الثاني من الفن الخامس في خبر ذى الكفل ... ١٦٤

الباب السابع من القسم الثاني من الفن الخامس في خبر شعيب النبي عليه السلام ١٦٧

ذكر مبعث شعيب عليه السلام ١٦٩

ذكر خبر الظلة ١٧٢

القسم الثالث من الفن الخامس يشمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام

وخبره مع فرعون وخبر يوشع بن نون وإلياس واليسع وغيلان واشمويل

وداود وطالوت وجالوت وسليمان بن داود ويونس بن متى وجرجيس

وبلقيا وزكريا وعمران ومريم وعيسى عليهم السلام وأخبار الحوارين

وفيه ستة أبواب — الباب الأول من القسم الثالث من الفن الخامس

في قصة موسى بن عمران وهارون عليهما السلام وخبر فرعون وابتداء أمره

وغرقه، وأخبار بني إسرائيل، وخبر قارون، وحروب موسى عليه السلام ١٧٣

خبر فرعون وابتداء أمره، وكيف توصل إلى الملك ١٧٣

ذكر خبر قتل الملك واستيلاء فرعون على ملكه وما كان من أمره ... ١٧٥

ذكر خبر آسية بنت مزاحم وزواج فرعون بها ١٧٧

ذكر شيء من الآيات التي رآها فرعون قبل مولد موسى عليه السلام ... ١٧٨

- مفحة
 ١٧٨ ... ذكر خبر قتل الأطفال
 ١٧٩ ... ذكر خبر ميلاد موسى وما كان من أمره وإلقائه في التابوت
 ١٨٠ ... ذكر دخول التابوت في دار فرعون ورجوع موسى إلى أمه
 ١٨٢ ... ذكر شيء من عجائب موسى عليه السلام وآياته
 ١٨٣ ... ذكر خبر القبطى ونحروج موسى من مصر
 ١٨٤ ... ذكر خبر ورود موسى مدين وما كان بينه وبين شعيب وزواجه ابنته
 ... ذكر خبر خروج موسى عليه السلام من أرض مدين ومناجاته ومبعثه
 ١٨٦ ... إلى فرعون
 ١٨٩ ... ذكر خبر سير موسى إلى مصر واجتماعه بأخيه هارون وأمه
 ١٩٠ ... ذكر خبر دخول موسى عليه السلام إلى فرعون وما كان من أمره معه
 ١٩١ ... ذكر خبر العصا حين صارت ثعبانا واليد البيضاء
 ١٩٢ ... ذكر خبر السحرة واجتماعهم وما كان من أمرهم وإيمانهم
 ١٩٤ ... ذكر خبر حرقيل مؤمن آل فرعون
 ١٩٦ ... ذكر خبر بناء الصرح وما قيل فيه
 ١٩٧ ... ذكر خبر الآيات التسع
 ١٩٨ ... ذكر خبر مسخ قوم فرعون
 ٢٠٦ ... ذكر خبر قتل المشاة
 ٢٠٦ ... ذكر خبر قتل آسية بنت مزاحم امرأة فرعون
 ٢٠٧ ... ذكر خبر انقطاع النيل وكيف أجراه الله عز وجل لفرعون
 ٢٠٧ ... ذكر خبر غرق فرعون وقومه
 ... ذكر خبر ذهاب موسى عليه السلام بإيقات ربه وطلبه الرؤية وخبر
 الصاعقة والإفاقة
 ٢١٠

مفحة	
ذكر خبر الألواح ونزول العشر كلمات	٢١٤
ذكر خبر السامري واتخاذ العجل واقتنا بنى إسرائيل به	٢٢٣
ذكر خبر رجوع موسى إلى قومه وما كان من أمرهم	٢٢٦
ذكر خبر امتناع بنى إسرائيل من قبول أحكام التوراة ورفع الجبل	
عليهم وإيمانهم	٢٢٩
ذكر خبر الحجر الذى وضع موسى عليه السلام ثيابه عليه	٢٣٠
ذكر خبر طلب بنى إسرائيل رؤية الله تعالى وهلاكهم بالصاعقة وكيف	
أحياهم الله عز وجل وبعثهم بعد موتهم	٢٣٠
ذكر خبر قارون	٢٣٢
ذكر خبر موسى والخضر عليهما السلام	٢٤٠
ذكر خبر البقرة وقتل عاميل	٢٤٤
ذكر بناء بيت المقدس وخبر القريان والتابوت والسكينة وصفة النار	٢٥٢
ذكر ما أنعم الله تعالى به على بنى إسرائيل بمد خروجهم من مصر	٢٥٥
ذكر خبر النقباء ومسيرهم إلى أريحا وقصة عوج بن عوق وخبر التيه	٢٦٠
ذكر مسير موسى — عليه السلام — وبنى إسرائيل للحرب الجبارين	
ودخولهم القرية	٢٦٥
ذكر خبر مدينة بلقاء وخبر بلعم بن باعورا وما يتصل بذلك	٢٦٧
ذكر خبر وفاة هارون عليه السلام	٢٧٤
ذكر خبر وفاة موسى بن عمران عليه السلام	٢٧٥

①

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه توفيقى

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

الفرس الخامس

فى التاريخ

ويشتمل على خمسة أقسام

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَدِّ لَهُمْ كَمَ أَهْلَكَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ؛ إلى غير ذلك من الآى .

والتاريخ مما يحتاج إليه الملك والوزير ، والقائد والأمير ، والكاتب والمُسَير والفتى والفقيه ، والبادى والحاضر ، والمقيم والمسافر .

فالملك يعتبر بما مضى من الدول ومن سلف من الأمم ، والوزير يقتدى بأفعال من تقدمه ممن حاز فضيلتى السيف والقلم ، وقائد الجيش يطلع منه على مكاييد الحرب ، ومواقف الطعن والضرب ، والمشير يتدبر الراى فلا يُصدّره إلا عن دوية ويتأمل الأمر فكأنه أعطى درجة المعية وحاز فضيلة الأُلعية ^(١) ، والكاتب يستشهد به فى رسائله وكتبه ، ويتوسّع به إذا ضاق عليه المجال فى سريره ، والفتى يحمّد الله تعالى ^(٢)

(١) الأُلعية : توتد الكاه . (٢) سريره ، أى طريقه فى الكتابة .

على ما أولاه من نعمه ورزقه من نواله ، و يَفِي بما آتاه الله إذا علم أنه لابد من زواله وانتقاله ؛ والفقيه يرغب في الزهد لعلّه أن الدنيا لا تدوم ، ولتقننه أن سمعتها بضيقها لا تقوم . ومن عدا هؤلاء يسمعه على سبيل الماسارة ، ووجه المحاضرة والمذاكرة ؛ والرغبة في الاطلاع على أخبار الأمم ، ومعرفة أيام العرب وحروب السجم .

- فقد تبين بهذه المقدمة تمويل الأمر عليه ، وميل المرء إليه .
- وسأورد إن شاء الله في هذا الفن مجلدا من توارخ الأمم السالفة والمصور الخاليه ، وأطرزه من القصص والسير بما تصبغ به صفحات الطروس حاليه .

- ولما رأيت غالب من أرنخ في الملة الإسلامية وضع التاريخ على حكم السنين ومساقها ، لا الدول وأساقها ؛ علمت أن ذلك ربما قطع على المطلع لذة واقعة استحلها ، وقضية استعجلاها ؛ فأقصت أخبار السنة ولا أستوعب تكملة فصولها
- ولا آتيت إلى جملتها وتفصيلها ؛ وأنقل المؤرخ بدخول السنة التي تليها من تلك الوقائع وأخبارها ، والممالك وآثارها ، والدولة وسيرها ، والحالة وخبرها ؛ فتنتقل من الشرق إلى الغرب ، وعدل عن السلم إلى الحرب ؛ وعطف من الجنوب إلى الشمال وتحول من البكر إلى الآصال ؛ وقد تحول به خيل الاستطراد فيبعد ، وتحول بينه وبين مقصده السنون فيغور نارة وتارة يمجّد ، فلا يرجع المطلع إلى ما كان قد أهمه
- إلا بعد مشقة ، وقد جدل عنه إذا طالت المسافة وبُدت عليه الشقة .

فأحترت أن أقيم التاريخ دولا ، ولا أبني عن دولة إذا شرعت فيها حولا ؛ حتى أسردها من أوائلها إلى أواخرها ، وأذكر مجلدا من وقائعها ومآثرها ؛ وسياقة أخبار ملوكها ، ونظم عقود سلوكها ؛ ومقر ممالكها ، وقشع ممالكها .

- (١) « ينور ويجد » ، أي ينفض ويرفع . والنور بفتح أوله : ما انخفض من الأرض .
- والنجد : ما ارتفع منها ؛ وهما في هذا الموضع على سبيل الاستعارة .

فلذا آتفت متنها، وأقرضت عتتها ؛ وانتقلت من العين إلى الأثر، ومن العيان إلى الخبر؛ رجعت إلى غيرها فقفوت أثرها، وشرحت خبرها، وبيت خبرها ؛ وذكرت أسبابها، وسردت أنسابها ؛ وبدأت بأصلها، وقفوت بأخبار من نفع من أهلها ؛ واستقصيتها دولة بعد دولة، وجالت في خيول المطالعة جولة ناهيك بها من جولة ؛ ورغبت مع ذلك في الاختصار دون الاقتصار، وأوردت ما يحتاج إلى إيراد من غير تكرار ولا إخلال .

٥

فإن عرضت واقعة كانت بين ملكين كان وقتها واحدا، وكان البحر لأحدهما على الآخر مساعدا؛ شرحتها بجلتها في أخبار الظاهر منهما؛ وأحلت في أخبار المغلوب عليها، وأكتفيت بإيرادها في أحد الموضعين ولم أعرج في الآخر إلا بالإشارة إليها .
وجريت في تقسيم هذا الفن على القاعدة التي تهتمت فيها قبله من القنون ليكون أبسط للنفس وأنشط لحواس وأقر للعين؛ وجعلته خمسة أقسام، ووضعت على أحسن أساق وأكل انتظام .

١٠

القسم الأول

في مبدأ خلق آدم - عليه السلام - وحواء وأخبارهما ومن كان بعد آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرس ، وفيه ثمانية أبواب :

١٥

الباب الأول - في مبدأ خلق آدم وحواء - عليهما السلام - وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما .

الباب الثاني - في خبر شيث بن آدم - عليهما السلام - وأولاده .

الباب الثالث - في أخبار إدريس النجي عليه السلام .

(١) يستفاد من سياق هذه العبارة أن الفرق بين الاختصار والاقتصار أن المراد بالأول : الإيجاز في شرح كل حادثة مع ذكر جميع الحوادث وعدم ترك واحدة منها . والثاني : الاكتفاء بذكر بعض الحوادث عن بعض .

٢٠

- الباب الرابع - في قصة نوح - عليه السلام - وخبر الطوفان .
 الباب الخامس - في قصة هود - عليه السلام - مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم .
 الباب السادس - في قصة صالح - عليه السلام - مع ثمود وعقرهم الناقة وهلاكهم .
 الباب السابع - في أخبار أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد وهلاكهم .
 الباب الثامن - في خبر أصحاب الرس ، وما كان من أمرهم .

القسم الثاني

- ١٠ في قصة إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - وخبره مع الفروذ [لعنه الله] وقصة لوط وخبر إسحاق ويعقوب ، وقصة يوسف وآيوب وذى الكفل وشعيب - عليهم السلام - وفيه سبعة أبواب :
 الباب الأول - في قصة إبراهيم الخليل - عليه السلام - وأخبار نمرود بن كتمان .
 ١٥ الباب الثاني - في خبر لوط مع قومه وقلب الملائن .
 الباب الثالث - في خبر إسحاق ويعقوب عليهما السلام .
 الباب الرابع - في قصة يوسف بن يعقوب عليهما السلام .
 الباب الخامس - في قصة أيوب - عليه السلام - وأبتلائه وعافيته .
 الباب السادس - في خبر ذى الكفل بن أيوب عليهما السلام .
 ٢٠ الباب السابع - في خبر شعيب - عليه السلام - وقصته مع مدين^(١) .
 (١) مع مدين ، أى مع أهل مدين .

القسم الثالث

يشتمل على قصّة موسى بن عمران — عليه السلام — وخبره مع فرعون
 وخبر يوشع ومن بعده وخبر جزيقل وإلياس واليسع وغيا وأشمويل وطالوت
 وجالوت وداود وسليمان وسعياً وإرميآء وخبر بختنصر ونحاش بيت المقدس وعمارته
 وما يتصل بذلك من خبر عزير وقصّة يونس بن متى وخبر بلوقيا وخبر زكريا ويحيى
 وعمران ومريم وعيسى — عليهم السلام — وخبر الحوارين وما كان من أمرهم
 وخبر حرجيس، وفيه ستة أبواب :

وذيلت على هذا القسم ذيلًا يشتمل على أبواب أربعة ، ذكرت فيها ما قبل
 في الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى — عليه السلام — إلى الأرض ، وأخبار
 المهديّ والدجال ، ونزول عيسى — عليه السلام — ومدة إقامته في الأرض ووفاته
 وما يكون بعده ، وشيئا من أخبار الحشر والمعاد .

وإنما ذكرت هذا الذيل في هذا الموضع — وإن كان غير داخل في فن
 التاريخ — لأن النفوس لما كانت مائلة إلى الاطلاع على أخبار ماضى من الزمان
 ومن سلف من الأمم ، فإلها إلى الاطلاع على ما يظهر في مستقبل الزمان أكثر
 وتشوقها إليه أوفر ، فأوردت ما أذكره لهذا السبب ، ولأنّ كتابنا هذا ليس مبناه
 على مجرد التاريخ بل هو كتاب أدب ، لا يخرج منه هذه الزيادة عن شرطه .



الباب الأول — في قصّة موسى بن عمران وهرون عليهما السلام
 وغرق فرعون ، وأخبار بني إسرائيل وخبر قارون وحروب موسى وخبر الجبارين
 ويّلم وغير ذلك .

الباب الثاني — فيما كان بعد موسى بن عمران — عليه السلام — وهو أخبار يوشع وخبر حزقيل وإلياس واليسع وغيلآ وأشمويل وطالوت وجالوت ودادود وسليمان — عليهم السلام — ومن بعدهم .

الباب الثالث — في أخبار سَمَاءَ وإِزْمِيَاءَ وخبر مُجْتَنَصِرَ خُرَابِ بَيْت المقدس وعمارته، وما يتصل بذلك من خبر عَزْرَر .

الباب الرابع — في قصة ذى النون يونس بن متى — عليه السلام — وخبر بلوقيا .

الباب الخامس — في خبر زكريا ويحيى وعمران ومريم أبنته وعيسى ابن مريم عليهم السلام .

١٠ الباب السادس — في أخبار الحوارتين الذين أرسلهم عيسى وما كان من أمرهم وخبر جريجيس .

التذييل على هذا القسم ، وفيه أربعة أبواب

الباب الأول — في ذكر الحوادث التي تظهر قبل نزول عيسى بن مريم عليه السلام .

١٠ الباب الثاني — في خبر نزول عيسى إلى الأرض وقتل الدجال وخروج يأجوج ومأجوج وإفسادهم وهلاكهم ، ووفاة عيسى عليه السلام .

الباب الثالث — في ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى بن مريم إلى النفخة الأولى .

الباب الرابع — في أخبار يوم القيامة والحشر والمعاد والنفخة الثانية في الصور .

القسم الرابع

في أخبار ملوك الأصقاع ، وملوك الأمم والطوائف ، وخبر سبل
العريم؛ ووقائع العرب في الجاهلية، وفيه خمسة أبواب

الباب الأول — في أخبار ذى القرنين المذكور في كتاب الله عز وجل.

الباب الثاني — في أخبار ملوك الأصقاع ، وهم ملوك مصر والهند
والصين وترك وجبل الفتح .

الباب الثالث — في أخبار ملوك الأمم من الأعاجم ، وهم ملوك القُرس
الأول ، وملوك الطوائف من القُرس ، والملوك الساسانية منهم ، وملوك اليونان
والسريان والكَلْدَانِيَّين والروم والصقالبة والتُّورِد^(١) والقرنجة والحلاقة وطوائف
السودان . ١٠

الباب الرابع — في أخبار ملوك العرب ، وما يتصل بها من خبر
سبل العريم .

الباب الخامس — في أيام العرب ووقائعها في الجاهلية .

القسم الخامس

في أخبار الملة الإسلامية وذكر شيء من سيرة نبيها محمد — صلى الله عليه وسلم —
وأيام الخلفاء من بعده — رضى الله عنهم — والدولة الأموية والعباسية والعلوية
ودول ملوك الإسلام وأخبارهم ، وما فتح الله عليهم ، وفيه اثنا عشر بابا

(١) التوريد، هم التوريد سكان لوميرديا، وهم الإقليم المعروف في شمال إيطاليا انظر (تقويم البلدان)

س. ٢٠٨ طبع أوروبا . وفي بعض النسخ : التوكيرد .

الباب الاول - في سيرة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .
 الباب الثاني - في أخبار الخلفاء من بعده : أبي بكر وعمر وعثمان
 وعليّ ، وأبنه الحسن - رضى الله عنهم - .

الباب الثالث - في أخبار الدولة الأموية بالشام وغيره .

الباب الرابع - في أخبار الدولة العباسية بالعراق ومصر .

الباب الخامس - في أخبار الدولة الأموية بالأندلس ، وأخبار
 الأندلس بعد انقراض دولتهم .

الباب السادس - في أخبار إفريقية وبلاد المغرب ومن وليها من
 العمال ، ومن استقل بالملك .

الباب السابع - في أخبار من نهض في طلب الخلافة من الطالبين ①
 في الدولتين : الأموية والعباسية فقتل دونها بعد مقتل الحسين بن عليّ - رضى الله
 عنهما - .

الباب الثامن - في أخبار صاحب الزنج والقرامطة والخوارج ببلاد
 الموصل .

الباب التاسع - في أخبار من استقل بالملك والممالك في البلاد الشرقية ١٥
 والشامية في خلال الدولة العباسية ، وهم ملوك خراسان وما وراء النهر والجبال
 وطبرستان وغزنة والغور وبلاد السند والهند ، كاللولة السامانية ، والدولة
 الصفارية ، والدولة القزوينية ، والدولة القورية ، والدولة الديلمية الختلية .

الباب العاشر - في أخبار ملوك العراق وما والاها ، وملوك الموصل

والديار الجزيرية والديار البكرية والبلاد الشامية والحلبية ، كاللولة الحمدانية ، والدولة
 الديلمية البونية ، والدولة السلجقية ، والدولة الأتابكية . ٢٠

الباب الحادى عشر — فى أخبار الدولة الخوارزمية والدولة الجنكرخانية
وهى دولة التار (جنكرخان وأولاده) وما تختص منها .

الباب الثانى عشر — فى أخبار ملوك الديار المصرية الذين ملكوا فى خلال
الدولة العباسية نيابة عن خلفائها، وهم الملوك الطولونية والملوك الإخشيدية، ومن
استقل بملكها وأقرعها وأخرجها من يد نواب خلفاء الدولة العباسية، وهم الملوك
العباسيون الذين انتسبوا إلى العلويين، وما كان من أمرهم من ابتدائه إلى آتائه
وما ملكوه من بلاد المغرب، وكيف استولوا على الديار المصرية والبلاد الشامية
والثغور الساحلية، وأقرعوا دولتهم، وقيام الدولة الأيوبية وأخبار ملوكها بمصر
والشام إلى حين أقرعها، وقيام دولة الترك ومن ملك منهم وما حازوه من الأقاليم
وما فتحوه من الممالك واستقذوه من أيدي الأفرنج والأرمن والتتار وغيرهم
وما استقر في ملك هذه الدولة من الممالك إلى حين وضعنا لهذا التأليف فى سنة ...
وسبعمائة فى أيام مولانا السلطان السيد الأجل المالك (الملك الناصر)، ناصر الدنيا
والدين، محمد ابن السلطان الشهيد المالك، الملك المنصور سيف الدنيا والدين
(قلاوون) الصالحى، خلقه الله تعالى ملكه على عجز الزمان، وسقى عهد والده صوب
الرحمة والرضوان .

هذا جملة ما أشتمل عليه هذا الفن من الأقسام والأبواب، والله تعالى المرشد
والهادى والموفق إلى الصواب، بتمه وكرمه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

(١) موضع هذه القطع الثلاث يابض بالأصول؛ والظاهر أن هذا البياض من المؤلف قس؛ ولعل
سبب ذلك أن كتبه هذا لم يوضع فى سنة معينة فيسدها، بل وضع فى ستين . والمعروف أن المؤلف
توفى فى سنة اثنتين وثلثين وسبعمائة .

القسم الأول من الفن الخامس

- في مبدأ خلق آدم وحواء — عليهما السلام — ودخولهما الجنة، وما كان بينهما وبين إبليس — لعنه الله — وهبوطهما إلى الأرض واجتماعهما بعد الفقرة، وخبر حرثه وزرع، وحمل حواء ووضعها، وخبر ابن آدم هابيل وقايل، ونبوة آدم — عليه السلام — ووفاته، وخبر شيث وأولاده، وقصة إدريس ونوح وهود وصالح — عليهم السلام — وخبر أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد، وخبر أصحاب الرض
- وفيه ثمانية أبواب

الباب الأول — من هذا القسم في مبدأ خلق آدم وحواء — عليهما السلام — وما كان من أخبارهما إلى حين وفاتهما .

١٠ ذكر خلق آدم عليه السلام

- خلق الله تبارك وتعالى آدم — عليه السلام — من تراب، بدليل قوله عز وجل : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِإٍ مَسْنُونٍ) وقوله تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) وقوله تعالى إخباراً عن إبليس : (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) وهذا أمر بين واضح لا خلاف فيه، ولا يحتاج إلى زيادة في إقامة دليل وإيضاح .

- وقيل : إنما سمي آدم لأن الله تعالى خلقه من آدم الأرض .
- وعن وهب بن منبه أن راسه من الأرض الأولى، وعقده من الثانية، وصدرة من الثالثة، ويديه من الرابعة، وبطنه وظهره من الخامسة، وتغذه ومذاكيره وبجيزه من السادسة، وساقيه وقدميه من السابعة .

وعن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - أن الله تعالى خلقه من الأقاليم السبعة .

وقيل : إن عزرائيل أخذ من تراب الأرض كلها أبيضها وأحمرها وأسودها وعذنها ومالحتها ، فهو مخلوق من ذلك التراب .

• قال : ولما خلقه الله - عز وجل - وصوره على هذه الصورة الآدمية ، أمر الملائكة أن يحملوه ويضعوه على باب الجنة عند عزم الملائكة ، وكان جسدا لا روح فيه ، فكانت الملائكة يسجدون من خلقته وصورته ، لأنهم لم يكونوا رأوا مثله قط وكان إبليس يطيل النظر إليه ويقول : ما خلق الله تعالى هذا إلا لأمر . وربما دخل فيه ، فإذا خرج قال : إنه خلق ضعيف ، خلق من طين أجوف ، والأجوف لا بد له من قطع ومشرب .

ويقال : إنه قال للملائكة : ما تعملون إذا فُضِّل هذا المخلوق عليكم ؟ فقالوا : نطيع أمر ربنا ولا نصعبه . فقال إبليس : إن فضله على لأعصيته ، وإن فضلى عليه لأهلكته .

ذكر دخول الروح فيه

• قال : ولما أراد الله تعالى نفخ الروح فيه أمر بروحه ففُصِّت في جميع الأنوار وليست كأرواح الملائكة ولا غيرها من المخلوقات .

قال الله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ الآية .

قال : فأمرها الله تعالى أن تدخل في جسد آدم بالتأني دون الاستعجال فرأت مدخلا ضيقا حرجا ، قالت : يارب ، كيف أدخل ؟ فتوديت « ادخلي كُرْها وأخرجي كُرْها » . فدخلت من يافوخه إلى عينيه ، فتفتحها آدم ونظر إلى

نفسه طينا، ثم صارت إلى أذنيه، فسمع تسبيح الملائكة، وجعلت الروح تمر في رأسه والملائكة ينظرون إليه، ثم صارت إلى الخياشيم، فقطعت، فأثقلت المجارى المسدودة؛ وصارت إلى اللسان؛ فقال آدم: « الحمد لله الذى لم يزل ولا يزول » وهى أول كلمة قالها. فناداه الرب: « يرحمك ربك يا آدم، لهذا خلقتك، وهذا لك ولقريتك ». وصارت الروح في جسده حتى بلغت الساقين، فصار آدم لحما ودما وعظما وعروقا، غير أن رجله من طين؛ فذهب ليقوم فلم يقدر وهو قوله تعالى: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ نَجْوًا) .

فلما صارت إلى الساقين والقدمين استوى قائما على قدميه يوم الجمعة .

فقيل: إن الروح استوت في جسده في خممئة عام عند زول الشمس .

١٠ ذكر سجود الملائكة لآدم

قال: فلما استوى قائما أمر الله الملائكة بالسجود له؛ فسجدوا كلهم إلا إبليس، كما أخبر الله تعالى عنه؛ قال الله تعالى: (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا ابْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) الآيات .

١٥

قال: وكان السجود لآدم يوم الجمعة عند الزوال، فبقيت الملائكة في سجودها

إلى العصر .

قال وعلم الله تعالى آدم الأسماء كلها واللغات بأجمعها .

قال ابن عيَّاس — رضى الله عنهما — : صلته حتى لفسة الحيتان والضفادع

وجميع ما في البر والبحر، ثم أمر الملائكة أن يحملوه على أكتافهم، ويطوفون به في طرائق السموات؛ ففعلوا ذلك .

٢٠

ثم أمر جبريل أن ينادى في صفوف الملائكة أن يجمعوا، فاجتمعوا وأصطفوا
عشرين ألف صف، ووضع لآدم منبر الكرامة، وعليه ثياب السندس الأخضر
وله ضفيرتان محشوتان بالمسك والعنبر يطوله، وعلى رأسه تاج من ذهب مرصع
بالنذر والجوهر، فانتصب على المنبر، وسلم على الملائكة، فأجابته بردة السلام
وخطب فحمد الله، ثم ذكر علم السموات والأرضين وما فيهما، وذلك قوله
تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ
قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝

ونزل آدم عن منبره، بغى، وقطف من عنب أبيض فأكله، وهو أول شيء
أكله من طعام الجنة، ثم أخذته سِنَّةٌ فقام .

ذكر خلق حواء عليها السلام

قال : ولما نام آدم خلق الله تعالى حواء من جنبه الأيسر، من ضلعه مما يلي
الشرسوف، وهو ضلع أعوج، قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فكانت على طول آدم وحسنه
وجماله، إلا أنها أرق جليدا منه، وأحسن صوتا، ولها ضفائر مرصعة محشوة بالمسك
تُسمع لنوائها خشخشة، بجلست عند رأسه، فأنبهه فراحا، فتمكّن حبّا من قلبه؛
فقال : يارب، من هذه ؟ قال : أمّتي حواء . فقال : يارب لمن خلقتها ؟ قال :
لمن أخذها بالأمانة، وأصدقها الشكر . قال : يارب، أنا أقبلها على هذا فزوجنيها .
فزوجها إياه قبل دخول الجنة على الطاعة والتقوى والعمل الصالح، وثمرت عليهما

- الملائكة من تبار الجنة، وأوحى الله إلى آدم، أن أذكر صمتي عليك، فأتى خلقك ببدع فطرتي، وسؤيتك بشرا على مشيقتي، ونفخت فيك من رُوحى، وأبجدت لك ملائكتي، وحثتُك على أكافهم، وجعلتُك خطيئهم، وأطلقتُك على لسانك جميع اللغات، وجعلت ذلك كله نفرا وشرفا لك، وهذا إبليس قد أبلسه ^(١) ولستهُ حين أبى أن يسجد لك، وقد ختمتُ كرامتي لك بأمتي حواء، وقد بنيتُ لكما دار الحيوان ^(٢) من قبل أن أخلقكما بالني عام، على أن تدخلهما بهدى وأمانتي .

ذكر عرض الأمانة على آدم عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

- قال : وهى أن يكافأوا على الإحسان، ويسدّوا على الإساءة، فأبوا؛ فرضتُ على آدم، فقيل له : إن أطعتَ كافأْتُك بالإحسان، وخلدتُك فى الجنان؛ وإن تركتَ عهدي أنرجتُك من دارى، وعذبْتُك بنارى . فقبل آدم الأمانة، فجب الملائكة من ذلك؛ ثم مُثل له وحواء إبليس، وقيل له : ﴿ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ .

- ثم ناداهما الرب : إن من عهدي إليكما وأمانتي أن تدخلَا الجنة ﴿ فكلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ . فقبلا هذه المهود كلها . ثم أمر الله تعالى بإدخالهما الجنة، فجعل آدم على الفرس الميمون، وحواء وراءه على الناقة، والملائكة عن اليمين والشمال وأمامهما وخلفهما حتى بلغوا باب الجنة ودخلا واستقرا بجنة عدن فى وسط الجنة بسد أن طافا بالجنان، فقدم إليهما من

٢٠ (١) إبليس الله : أياسه من رحمة؛ يشمل متعديا كماها ولازما .

(٢) دار الحيوان، أى دار الحياة الهامة .

فواكه الجنة فاكلا ، فكانا في الجنة نحمّاة عام من أعوام الدنيا في أتم السرور وأنعم الأحوال .

ذكر خبر إبليس والطاوس والحية

قال : ولما سمع إبليس أن الله تعالى أباح لأدم أن يأكل من ثمار الجنة إلا شجرة واحدة ، فرح بذلك ، وقال : لأخرجتهما من الجنة . ثم مرة مستخفيا في طرقات السموات حتى وقف على باب الجنة ، فلذا الطاوس قد خرج من الجنة وله جناحان إذا نشرهما غطى بهما سدرة المنتهى ، وله ذنب من الزمرد الأخضر على كل ريشة منه جوهرة بيضاء ، وعينه من الياقوت الأحمر ، وهو أطيب طيور الجنة صوتا وقنريدا ، وكان يخرج ويمر في السموات يحيط في مشيته ويرجع إلى الجنة .

فلما رآه إبليس كلمه بكلام لين ، وقال : أيها الطائر العجيب الخلق الطيب الصوت ، من تكون من طيور الجنة ؟ فقال : أنا الطاوس ، فمالك أيها الشخص كأنك مرعوب تخاف من طالب يطلبك ؟ قال إبليس : أنا من ملائكة الصفيح الأعلى من زمرة الكروبين ، وقد أحببت أن أنظر إلى الجنة وإلى ما أعد الله فيها لأهلها فهل لك أن تدخل الجنة وأنا أعلمك ثلاث كلمات من قالها لا يهرم ولا يسقم ولا يموت ؟ فقال له : وأهل الجنة يموتون ؟ قال : نعم ويسقمون ويهرمون إلا من كانت عنده هذه الكلمات ، وحلف له على ذلك ، فوثق به الطاوس ولم يظن أحدا يحلف بالله كاذبا ، فقال : ما أحوجنى إلى هذه الكلمات ، غير أنني أخاف أن يستخبرني (رضوان) عنك ، ولكنني أبعث إليك الحية فإنها سيده دواب الجنة .

(١) الصفيح : من أسماء السباع .

(٢) الملائكة الكرويون فتح الكاف ، هم مادة الملائكة ، وهم المقربون . قيل : إنهم سموا الكروبين لأنهم هم المتصدون للعداء بضع الكرب عن الناس .

قال: وجاء الطائوس إلى الحية وهي يومئذ على صورة الجمل، ولها زغب كالبعرة^(١) ما بين أبيض وأحمر وأسود وأخضر، ولها عُرف من اللؤلؤ، وذوئب من الياقوت ورائحة كرائحة المسك والمبر، وكان مسكنها في جنة الماوى، وكانت تسير آدم وحواء في الجنة، وتخبهما بالأشجار.

- فلما أخبرها الطائوس بالخبر أسرع الحية نحو باب الجنة، فتقدم إبليس إليها وقال لها كقوله للطائوس، وحلف لها، فقالت: حسبك، ولكن كيف أدخلك؟ فقال: إني أرى ما بين نايبك قُرْبَة، وهي تسنى. ففتحت الحية فاهًا، فوثب وقعد بين نايها، فصار نايها إلى آخر الدهر سماء، وضمت الحية شفتيها، ودخلت الجنة ولم يكلمها رضوان للقضاء السابق؛ فلما توسّطت الجنة قالت: أخرج وعجل. قال: إن حاجتي من الجنة آدم وحواء، فاني أريد أن أكلهما من فيك، فإن لم تفعل ذلك فما أعلمك الكلمات، فجاءت إلى حواء فقال إبليس من فيها: يا حواء، ألسن تعلمين أتى معك في الجنة، وأحدثك بكل ما فيها، وأنا صادقة في كل ما حدثتك به؟ قالت حواء: نعم؛ قال إبليس: يا حواء، أخبريني ما الذي أحل لكم ربكما من هذه الجنة وحرّم عليكما؟ فأخبرته بما نهاهما عنه؛ فقال إبليس: لماذا نهاكما عن شجرة الخلد؟ فقالت حواء: لا أعلم بذلك؛ قال: أنا أعلم، إنما نهاكما لأنه أراد ألا يفعل بكما ما فعل بالعبد الذي ماواه تحت شجرة الخلد.

هذا وحواء تظن أن الخطاب لها من الحية؛ فوثبت حواء عن سريرها لتنظر إلى العبد، فخرج إبليس من فيها كالبرق، فقعده تحت الشجرة، فأقبلت

(١) البعرة: الطائوس الثنان، الواحدة بعيرة.

حواء فوقفت بالبعد منه ونادته : مَنْ أَنْتِ أَيُّهَا الشَّخْصُ ؟ قَالَ : خَلَقْتُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، خَلَقَنِي مِنْ نَارِ كَمَا تَرِي قِي ، وَأَنَا فِي هَذِهِ الْجَنَّةِ مِنْذُ أَلْقَى عَامٌ ، خَلَقَنِي كَمَا خَلَقَكَ بِيَدِهِ ، وَتَهَضَّعْتُ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَعْبَدْتُ لِي مَلَائِكَتَهُ ، وَأَسْكَنْتُ فِي جَنَّتِهِ ، وَنَهَانِي عَنْ أَكْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، فَكُنْتُ لَا أَكُلُ مِنْهَا ، حَتَّى نَصَحَنِي بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ وَقَالَ لِي : كُلْ مِنْهَا ، فَإِنَّ مِنْ أَكْلِ مِنْهَا كَانَ مَخْلُودًا فِي الْجَنَّةِ أَبَدًا . فَكَلْتُ مِنْهَا ، فَأَنَا فِي الْجَنَّةِ إِلَى وَقْتِي هَذَا ، قَدْ أَمْنْتُ الْحَرَمَ وَالسَّقَمَ وَالْمَوْتَ وَالْخُرُوجَ مِنَ الْجَنَّةِ .

ثم قال : وَاللَّهِ (مَا نَهَاكَ رَبُّكَ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنْ آلِ الْخَالِدِينَ) ثم نادى : يَا حَوَاءُ اسْبِقِي وَكُلِي قَبْلَ زَوْجِكَ ، فَمِنْ سَبَقِي كَانَ لَهُ الْفَضْلُ عَلَى صَاحِبِهِ . فَأَقْبَلَتْ حَوَاءُ إِلَى آدَمَ وَهِيَ مُسْتَبْشِرَةٌ فَرَحًا ، فَأَخْبَرَتْهُ بِخَبَرِ الْحَيَاةِ وَالشَّخْصِ ، وَأَنَّهُ قَدْ حَلَفَ لَهَا بِأَنَّهُ لَهَا مِنَ النَّاصِحِينَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَايَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ ؛ وَتَقَدَّمَتْ حَوَاءُ إِلَى الشَّجَرَةِ وَلَهَا أَغْصَانٌ لَا تَحْصَى ، وَعَلَى الْأَغْصَانِ سَنَابِلٌ ، كُلُّ حَبَّةٍ مِنْهَا مِثْلُ قِلَافِ هَجْرٍ ^(١) ، وَلَهَا رَائِحَةٌ كَالْمِسْكِ ، أَيْبَضُ مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، فَأَخَذَتْ مِنْهَا سَبْعَ سَنَابِلَ مِنْ سَبْعَةِ أَغْصَانٍ ، فَكَلَتْ وَاحِدَةً وَأَذْخَرَتْ وَاحِدَةً ، وَجَاءَتْ بِخَمْسٍ إِلَى آدَمَ .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : لَمْ يَكُنْ لآدَمَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ وَلَا إِرَادَةٌ بَلْ كَانَتْ فِي سَابِقِ الْعِلْمِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . فَتَنَاوَلَ آدَمُ السَّنَابِلَ مِنْ يَدِهَا ، وَقَدْ نَسِيَ الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِهَا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَتْلِهِ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ فَذَاقَ مِنَ الشَّجَرَةِ كَمَا ذَاقَتْ حَوَاءُ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾ .

(١) هجر : ناحية البحرين كلها ؛ وهى مروة بالقليل التى كانت تجلب منها إلى المدينة .

- قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : والذي نفى بيده ماساغ آدم من تلك السنابل سفيلة واحدة حتى طار الناج عن رأسه، وعرى من لباسه، وانقرعت عنه خواتمه ، وسقط كل ما كان على حواء من لباسها وحليها وزينتها، وناداهما كل ما طار عنهما : « يا آدم طال حركك ، وعظمت رزيتك ، وعليك السلام إلى يوم اللقاء » . ولم يبق عليهما من لباسهما شيء ، ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ؛ ونظر كل منهما إلى سوءة صاحبه ؛ وهرب إبليس فصار مستخفيا في طرائق السموات ، وصاح آدم صيحة عظيمة ، ولم يبق في الجنة شيء إلا لاهمه ، وأتعبضت عنه الأشجار ؛ فلما كثرت عليه اللامات مر هاربا على وجهه ، فالتفت عليه شجرة الطلح وأسكته ونادته : إلى أين تهرب يا عاصي ؛ وأضطربت الملائكة لذلك ؛ والله الموفق للصواب .

ذكر خروج آدم وحواء من الجنة



- قال : وأمر الله جبريل بقاء إلى آدم وقبض على ناصيته، وخلصه من الشجرة؛ فلما صار به إلى باب الجنة وأخرج رجله اليمنى وبيت اليسرى ، نودى : يا جبريل قف به على باب الجنة حتى يخرج معه أعداؤه الذين حملوه على أكل الشجرة لكي يراهم ويرى ما يفعل بهم . فوقفه هناك ، فناداه الرب : يا آدم إني خلقتك لتكون عبدا شكورا ، لا لتكون عبدا كفورا . قال : يا رب أسألك أن تبيدني إلى تربتي التي خلقتني منها لا أكون ترابا كما كنتُ أول مرة . قال : يا آدم ، كيف أعيدك إلى تربتك وقد سبق علمي أن أملا من ظهورك الجنة والنار .
- وأخرج آدم حواء وقد استقرت بورقة من ورق الجنة بإذن الله؛ فلما رأت آدم صاحت وقالت : يا لها من حسرة؟ فوقفت خارج الجنة، ثم أتى بالطاوس وقد

طعته الملائكة حتى قطع ريشه، وجبريل يحزه ويقول: اخرج من الجنة خروجه الأبد، فإنك شؤم أبدا ما بقيت؛ ثم أتى بالحية وقد جذبتها الملائكة جذبا شديدا، وهي ممسوخة "مبطوحة" على بطنها لا قوائم لها، وصارت ممدودة مشوّهة، ومنعت النطق فصارت خرساء، مشقوقه اللسان، فقالت لها الملائكة: لا رحمك الله ولا رحم من يرحمك.

ثم حُجِبَتْ حواء عن آدم من هناك؛ ومَرَّ به جبريل في طرائق السموات، ونظرت إليه الملائكة عمرانا ففرغت منه، وقالت: الهنا، هذا آدم بديع فطرته أقله عزته. وآدم قد ترك يده اليمنى على رأسه، واليسرى على سوائه، ودموعه تجري على خديه، وكلما مر على ملا من الملائكة يوتخونه على قض عهد ربه وميثاقه، وأكثروا عليه في الملامة والتوبيخ؛ فقال لهم: يا ملائكة ربي، ارحموني ولا توتخوني، فألذى جرى على بقضاء ربي، حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية.

ذكر سؤال إبليس — لعنه الله تعالى —

قال: وقال إبليس: يا رب أضللتني وأغويتني وأبستني، وكان ذلك في سابق عليك ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قَالَ فَأَنَّكَ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ وهي النسخة الأولى، ﴿قَالَ فَيَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَكَ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَا يَنْبَغُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. قال الله تعالى ﴿أَخْرِجْهَا مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَنْصَحْ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قال إبليس: أنتظرني أين يكون مسكني؟ قال: إذا هبطت إلى الأرض فسلكك المزابيل. قال: فما قراءتي؟ قال: الشعر والغناء. قال: فما مؤذني؟ قال: المزمار.

قال : فما طعامي ؟ قال : ما لم يذْكُرْ أسمى عليه . قال : فما شرابي ؟ قال : الخمر .
 قال : فما بقى ؟ قال : الحمامات ؛ قال : فما مجلسي ؟ قال : الأسواق . قال : فما
 شعاري ؟ قال : لعتي . قال : فما دثاري ؟ قال : سخطي . قال : فما مصايدى ؟
 قال : النساء . قال : فوعزتك لا أخرجتُ محبة النساء من قلوب بني آدم أبدا .
 قيل له : يا ملعون ، فإن ربك لا يترع التوبة من ولد آدم حتى يتفرغر بالموت ،
 ﴿ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فِرْعَانَ رَجِيمًا وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

ذكر سؤال آدم — عليه السلام —

قال : فبعد ذلك قال آدم : يارب هذا إبليس قد أعطيتَه النظرة ، وقد أقسم
 بعزتك أنه ينفو أولادى ، فماذا أحترز من مكايده ؟ فنودى ، يا آدم ، إني قد
 مننتُ عليك بثلاث خصال ، واحدة لى ، وهى أن تعبدنى لا تشرك بى شيئا ؛
 وواحدة لك ، وهى ما عملت من صغيرة أو كبيرة من الحسنات فلك بالحسنة عشر
 (٢٠) وإن عملت سيئة فواحدة بواحدة ، وإن استغفرتنى غفرتها لك وأنا النفور الرحيم ؛
 وواحدة بينى وبينك ، وهى أنك منك المسألة ومنى الإجابة ، فأبسط يدك وأدعنى
 فإنى قريب مجيب .

فصاح إبليس حسدا لآدم وقال : كيف أكيد ولد آدم الآن ؟ فنودى :
 يا ملعون (وَأَسْتَفِيزُ مَنْ أَسْطَغَتْ مِنْهُمْ بِصُوتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ
 وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِندَهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) . قال
 إبليس : زدنى يا رب ؛ قال لا يولد لآدم ولد إلا يولد لك سبعة : قال : رب
 زدنى ؛ قال : زدتك أن تجرى منهم مجرى الدم فى عروقهم ، وتسكن فى صدورهم .

فقال : يارب حسبي ؛ ثم قال طلام أهبط إلى الأرض ؟ قال : على الإياس من
 رحمتى .

قال : ثم نظر آدم إلى الحية وقال : رب هذه اللبنة هي التي أعانت عدوى علي ، فإنا أقوى عليها ؟ قيل له : قد جعلت مسكنها الطلمات ، وطامها التراب فإذا رأيته فاشدخ رأسها .

وقيل للطاوس : مسكنك أطراف الأنهار ، ورزقك مما تنبت الأرض من حبها ، وألقى عليك الحبة حتى لا تحتل .

ذكر سؤال حواء — عليها السلام —

قال : ثم قالت حواء : إلهي خلقتني من ضلع أعوج ، وجعلني ناقصة العقل والدين والشهادة والميراث ، وضربني بالنجاسة ، وحرمتني الجمعة والجماعات ؛ — وذكرت مشقة الحمل والولادة — فأسالك أن تعطيني مثل ما أعطيتهم .

قيل لها : قد وهبت لك الحياء والأنس والرحمة ، وكنيت لك من ثواب الحمل والولادة ما لو رأيته لفزت به عينك ، فأى امرأة ماتت في ولادتها حشرتها في زمرة الشهداء ، قالت : حسبي يارب .

قال : ثم أمر الله بعد ذلك أن يهبطوا إلى الأرض ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَلْوٌ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ . فهبط آدم من باب التوبة ، وحواء من باب الرحمة ، وإبليس من باب اللعنة ، والطاوس من باب الغضب ، والحية من باب السخط ، وكان ذلك وقت العصر .

قال السدي : فمن هذه الأبواب تنزل التوبة والرحمة واللعنة والغضب والسخط .

قال وهب : خلق الله آدم يوم الجمعة ، وفيه دخل الجنة وأقام فيها نصف يوم مقدار نحره اثنى عشر ساعة ، وأهبط بين الظهر والعصر من باب يقال له (المبرم) وهو حذاء البيت المعمور .

(١) كما ورد هذا القبط في الأصول الثلاثة وكتاب الكافي المنقول عنه هذا الكلام .

قال كعب : أهبط آدم إلى بلاد الهند على جبل من جبالها يقال له (بُود) وهو جبل يحيط بأرض الهند ؛ وأهبطت حواء بُحثة ، وإيليس يدُشْتِيَسَان^(١) ، والحية أصفهان ، والطاوس بالبحر ؛ ففرق الله بينهم فلم ير بعضهم بعضا حيناً ، ولم يكن على آدم يوم أُهبط إلا ورقة من أوراق الجنة ، فذرثها الرياح في بلاد الهند فصارت معدنًا للطَّيْب .

وأخذ آدم في البكاء مائة عام حتى نبت من دمعه العُود والزنجبيل والصندل والكانفور وأنواع الطَّيْب ، وأمتلأت الأودية بأطيب الأشجار ؛ وبكت حواء فنبت من دموعها التفرغل والأفاويه ؛ وكانت الريح تحمل كلامه إليها وكلامها إليه .

ثم أنبت الله - عز وجل - لآدم الشَّعر والحية ، وكان قبل ذلك أمرد وجسده كالفضَّة ، فألم لذلك ألماً شديداً .

قال وهب : أول من علم بهبوط آدم من حيوان الأرض النُّسر ، وكان قد أَلِف الحوت ، فجاء إليه وقال له : إني رأيت اليوم خلقاً عظيماً يتقبض وينسبط ، ويقوم ويقعد ، ويحيى ويميت . فقال الحوت : إن كان ما تقوله حقاً فقد حان ألا يكون لي معه مقر في البحر ولا لك في البر ، وهذا الوداع بيني وبينك . فجاء النُّسر إلى آدم وألَّفه ، وجاءه الوحش والطير والقُفُوف وبكوا لبيكاته دهرًا طويلاً ، فلما أُنْجِرهم ذلك نفروا عنه ولم يبق عنده إلا النُّسر وحده وهو لا يَفُتُّ عن البكاء .

قال وهب : بكى آدم حتى بككت الملائكة لبيكاته وقالوا : « إلهنا أقبله عثرته » .

قال : وبقى من دموعه في الأرض — بعد أن كَفَّ عن البكاء — ما شربه
الوحش والطير والموثمة مائة عام ؛ وكان لدموعه رائحة كالسك، ولذلك نثر الطيب
في الهند .

وقال كعب : بكى آدم ثلاثمائة عام لا يرفع رأسه إلى السماء وهو يقول : " إلهي
بأني وجه أنظر إلى السماء " . فآلم الله سائر الحيوانات أن تأتي لآدم وتزيره
في مصيبتة ، فعزاه جميعها ونهته عن البكاء ، وأمرته بالتسريح والتفديس .

ذكر توبة آدم عليه السلام

قال : فعند ذلك أمر الله تعالى جبريل أن يبط على آدم ، وقال له : « إن آدم
بدعٍ فطرقني قد أبكى أهل سمواتي وأرضي ، ولا يَدَّ كرفيري ، ولم يخف سواي ، وهو
أول من حمدني ، وأول من دناي بأسمائي الحسنى ، وأنا الرحمن الذي سبقت رحمتي
غضبي ، وهذه الكلمات قد خصصتُ بها آدم لتكون له توبة ، وتخرجه من الظلمات
إلى النور » . فهبط عليه جبريل بالكلمات ولها نور عظيم ، قال : « السلام عليك
يا طويل البكاء والحزن » ؛ فلم يسمعه آدم لغيان صدره ؛ فناداه بصوت رفيع :
السلام عليك يا آدم . وأمر جناحه على صدره ووجهه حتى هدأ من بكائه ، وسمع
الصوت فقال : أبتداء الشخط تنادى ، أم ابتداء الإحسان والنفرا ؟ قال : بل
ببتداء الرحمة والنفرا ، يا آدم : لقد أبكىت ملائكة السموات والأرض ، فدوتك
هذه الكلمات ، فإتيا كلمات الرحمة والتوبة .

قال كعب : كانت الكلمات ما قالها يونس في ظلمات ثلاث : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص — رضي الله عنهما — كانت : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا
أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — : كانت « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، علمتُ سوماً وظلمتُ نفسي قُبْ على يا خير التوايين » .

قال الله تعالى : (قُلْنَا آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ قَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ) .

قال : فلما قالها آدم أنتشر صوته في الافاق ، فقالت الأرض والشجر والجبال :

- « أقر الله عينك يا آدم ، وهلاك الله بتوبتك » . وأمره الله أن يبعث بالكلمات إلى حواء ؛ فحملتها الريح إليها ، فقالتها ، قتاب الله عليها .

قال : ولما فرغ آدم من الدعاء والسجود قال له جبريل : ارفع رأسك . فرفعه

وإذا قد رُفِعَ له حجاب النور ، وفتحت له السموات ، ونودى بالتوبة والرضوان

وقيل له : يا آدم ، إن الله قد قبل توبتك . فذهب ليقوم فلم يقدر لأنه كان

- ١٠ قد رَسَبَ في الأرض كعروق الشجر ، فاقتطعه جبريل ، فصاح صيحة شديدة للألم الذى أصابه ، وقال : « ماذا تفعل الخطيئة ؟ »

ثم ضرب جبريل بمنحاه الأرض فأفجرت عين ماء معين برائحة كالسك

فأغسل آدم منها ، ثم كساه الله حلتين من سندس الجنة ، وبعث الله تعالى ميكائيل

إلى حواء ، فبشرها بالتوبة ، وكساها كذلك ؛ وسأل آدم جبريل عنها ؛ فأخبره أن الله

- ١٥ قد قبل توبتها ، وأنه يجمع بينهما في أشرف الأعياد وأكرم البقاع .

قال : وأمر الله عز وجل الملائكة والحيوانات أن يقربوا من آدم ليهتئوه

فاتوه وهتأوه كما كانوا عزوه .

ثم أمر الله تعالى جبريل أن يضع يده على رأس آدم ليقصر من طوله ، وكان

إذا قام وصل رأسه إلى السماء ، فيسمع تسبيح الملائكة ، فلما قصر أعتم لفقد

- ٢٠ ذلك ، فقال له جبريل : لا يغمك ذلك فإن الله يفعل ما يريد .

وامره الله ببناء بيت يحاذي البيت المعمور ليطوف به هو وأولاده من بعده
كما رأى الملائكة تفعل حول البيت المعمور؛ فبناه .

وقد ذكرنا صفة بنيانه في الباب الثاني من القسم الخامس من الفن الأول من
هذا الكتاب في خصائص البلاد ، وهو في السفر الأول ، فلا حاجة إلى إعادته
هاهنا . فلنذكر غير ذلك .

قال : وسار آدم من موضعه إلى موضع البيت ؛ والله الهادي .

ذكر أخذ الميثاق على ذرية آدم — عليه السلام —

قال : وأوحى الله تعالى إلى آدم : أتى أريد أن آخذ على وديعتي التي في ظهرك
الميثاق ، فأحاطت الملائكة بآدم في أحسن صورهم ، فوقعت الرعدة على آدم
من الخوف ، فضمّه جبريل إلى صدره ، وأضطرب الوادي وأرتج ، فقال جبريل :

﴿ ١١ ﴾

اسكن فإنك أول شاهد على الميثاق الذي يأخذه الله على ذرية آدم . فسكن ، ومسح
الله تعالى على ظهر آدم كما شاء ، وقال : « انظر يا آدم إلى من يخرج من ظهرك »
فأول من بادر وكان أسرع خروجاً نبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — فأجلب باللبية
ونادى إلى ذات اليمين وهو يقول : أنا أول من يشهد لك بالتوحيد ، ويقرّ لك
بالعبودية ، وأشهد أتى عبدك ورسولك . فهو — صلى الله عليه وسلم — أول الأنبياء
في الخلق ، وآخرهم في البعث ، وفي ذلك من الحكمة الإلهية والقدرة الرأبئية ما لم
يخف على ذى لبّ وفهم ، وليس هذا موضع ذكر ذلك . ثم أجابت الطبقة الثانية
من النبيين والمرسلين نبياً بعد نبي في نورهم وبهائمهم ، ثم خرجت زمرة من المؤمنين
بيض الوجوه ، معلنين بالتوحيد ، فوقفوا دون النبيين .

١٠

١٥

ثم مسح الله مسحة أخرى فخرج (قابيل) بن آدم مبادراً وقد تبعه أهل الشمال
فوقفوا ذات الشمال كلهم سود الوجوه . ثم قيل لآدم : « انظر إلى ولدك هؤلاء

٢٠

لتعرفهم بأسمائهم وأزمانهم» فنظر إلى أهل اليمن فضحك منهم، وبارك عليهم؛ ونظر إلى أهل الشمال فلعنهم وصرف وجهه عنهم؛ ثم استنطقهم الله تعالى فقال : **(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا)** وأقررنا .

- قال ابن عباس -رضي الله عنهما- : أما أهل اليمن فأجابوا بالسرمة، وأما أهل الشمال فأجابوا بالتناقل . قال الله تعالى « يا ملائكتي أشهدوا على ذرية آدم بأنهم اتقوا أنى ربهم لا يحمدوننى شيئا، وأن آدم قد بارك على أهل يمينه، ولعن أهل شماله، فاهل اليمن في جنتي برحمتي، وأهل الشمال في النار بما يحدوا من حقى » .
- ثم ردهم الله إلى ظهره كما أخرجهم بقدرته .

- قال وهب : إذا كان يوم القيامة وحُشر الخلق لفصل القضاء قيل : يا آدم، « ابست بمت الجنة إلى الجنة، وبمت النار إليها » . فيعرفهم بصورهم وأسمائهم ؛ فيقول : « تم يارب » ؛ ويراهم كما رآهم في الذرية، ويُقيل عليهم بوجهه ويقول : أَسَيْتُمْ عهد ربكم وشهادتكم له بأنه الله الواحد الأحد؟ فيقولون ما أخبرنا الله تعالى به عنهم : **(إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ قَوْلُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ)** يستون قابيل بن آدم، لأنه أول من عصى ربه ؛ ثم يقولون : **(رَبَّنَا آَرَأْنَا لَلَّذِينَ أَعْزَلَنَا مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ يَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)** استون إبليس وقابيل؛ فيقبض آدم بيده من كل ألف تسعة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحدا يمينه إلى الجنة؛ ثم يقول : يارب هل وفيت ؟ فيقال له : نعم ادخل الجنة برحمتي .

ذكر اجتماع آدم بحواء

- قال : وأقبل ملك إلى حواء وهي جالسة بجنة على ساحل البحر، فقال لها : « خذى لباسك وأطلقى إلى الحرم » ؛ ثم روى لها قميص ونحو من الجنة، وتواري

عنها حتى ليست القميص وتحرّت بالبحار ، ومضت إلى مكة فدخلت الحرم من شرقيه يوم الجمعة من شهر المحرم ، فأمرها الملك أن تقعد على جبل المروة؛ وإنما سميت المروة لتعود المرأة عليها .

قال وهب : دخلت حواء الحرم قبل آدم بسبعة أيام ، ودخل آدم من غربي مكة وحواء من شرقيها ، فصار آدم إلى جبل الصفا ، فناده : «مرحبا بك يا صفي الله» ، فسعى الصفا لذلك ؛ وناداه الرب : يا آدم ، فقال : « ليك اللهم لييك لييك لا شريك لك لييك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » . فصار ذلك سنة في الحج والعمرة .

ثم أوحى الله إليه : « اليوم حرمت مكة وما حولها » . فهي حرام إلى يوم القيامة . فقال آدم : يارب ، إنك وعدتني أن تجمع بيني وبين حواء في هذا المقام . فنودى : إننا أمامك على المروة ، وأنت على الصفا ، فأنظر إليها ولا تمنها حتى تقضى المناسك . فهبط آدم إليها ، وألقيا ، وفرح كل منهما بصاحبه ، وسعى هو من الصفا ، وسعت هي من المروة ، فكانا يجتمعان بالنهار ، فإذا أسيا رجع إلى الصفا ، ورجعت إلى المروة ، فكانا كذلك حتى دخل ذو القعدة ، فأعاد آدم التلبية وعقد الإزار ، ولم يزل يلبي حتى دخل ذو الحجة ؛ فهبط جبريل وعلمه المناسك وكساه ثوبا أبيض لإحرامه ، وطاق به ، وعرفه المناسك ، وأمره أن يطوف بالبيت سبعاً ، فلما فعل ذلك قال له جبريل : « حَسْبُكَ يَا آدَمُ قَدْ أَحَلَّتْ » ؛ فأطلق آدم إلى حواء فاجتمع بها في ليلة الجمعة فحملت من ساعها .

١٧

قال كعب : ما حملت حواء حتى رأت الحيض فقزعت وأخبرت آدم بذلك فنعها من الصلاة أيام حيضها حتى يتقطع الدم ؛ ثم جاعها ملك فوقها على زمزم

٢٠

وقال لآدم : اركض برجليك في هذا الموضع . فركضها ، فاضجرت الأرض بإذن الله عين ماء معين ؛ فكبّر آدم وحواء ، وهمت أن تشرب فتمنها وقال : « حتى يأذن لي ربي » . فأغتسلت حواء ، وكان في ذوائبها بقية من مسك الجنة ، ففاحت الدنيا .

ذكر إنباء آدم وزرعه وحرته

قال : ثم أوحى الله تعالى إلى آدم : « أنك إن لم تعمّر هذه الدنيا لم يسمرها أحد من أولادك ، فأعمرها » . فبنى له مسكنا يأوى إليه هو وحواء ؛ ثم أخذ بعد ذلك في الحرث والزرع وحفر الآبار ؛ وجاءه جبريل بالحبة وهي على قدر بيض التعام ، بيضاء في لون الثلج وأحلى من العسل ؛ وجاءه بشورين من ثمران الفردوس وجاءه بالحديد ؛ فلما نظر آدم إلى الحبّ صاح صيحة عظيمة ، وقال : مالى ولهذا الحبّ الذى أخرجنى من الجنة .

قال : « هذا رزقك في الدنيا ، لأنك اخترت من الجنة ، فهو غذاء لك ولنزيتك » .

ثم قال له جبريل : يا آدم ، قم فكن حرثا زراعا ، وأتاه بالنار وقد غمسها في سبعين ماء حتى اعتدلت وكنت في الحديد والحجر ، وأمره أن يوقد النار ويؤين الحديد ، ويتخذ منه مطرقة وسندان ، فعمل ؛ ثم اتخذ مديّة يذبح بها ، وقاسا يحفر بها ويكسر ، وحرثا يحث به الأرض ، ونيرا ؛ كلّ ذلك وجبريل يعلمه .

قال وهب : أول ما اتخذ آدم من الحديد سندان ومطرقة وكلبتان ؛ ثم اتخذ بعد ذلك آلة التجارة ، وأتاه جبريل بكبش من الجنة ، ففتح له آدم ، وأكل هو وحواء من لحمه ، واتخذوا مقراضا فجرا به الصوف من الكبش ، وغزلوه ، واتخذوا منه

جَبْتَيْنِ بغير كَين، وكامين، فأكتسى كل واحد منهما جَبَةً وكساء، فلما مَسَّتْ جِلْدَهُمَا خَشُونَةُ الصَّوْفِ بَكا شَوْقاً إِلَى السَّنَدِسِ وَالْإِسْتَبَقِ؛ فَقِيلَ لَهَا: «هَذَا لِبَاسِ أَهْلِ الطَّاعَةِ فِي الدُّنْيَا». وَجِئَ بِالْأَشْجَارِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي الْفَنِّ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَهُوَ قَرْنُ النَّبَاتِ؛ وَقَدْ قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا فِيمَا سَلَفَ مِنْهُ.

• وعن كعب أن الذي جاء بِالْحَبِّ مِكَائِيلُ، لِأَنَّهُ الْمَوْكَلُ بِالْحَبِّ وَالْقَطَرِ وَالنَّبَاتِ.

قال: فقام آدم فَفَقَدَ النَّيِّرَ عَلَى عَنَقِ الثَّوْرَيْنِ؛ ثُمَّ حَرَثَ وَبَذَرَ، وَكَانَ يَقِفُ عَلَى الزَّرْعِ وَيَقُولُ: «مَتَى يُدْرِكُ؟». فَيَسْمَعُ هَاتِفًا يَقُولُ: (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ)؛ وَكَانَ الزَّرْعُ فِي طُولِ النَّخْلِ، وَالسَّنْبَلَةُ فِي طُولِ مِائَةِ ذِرَاعٍ، بِيضَاءُ كَالْفَضَّةِ.

قال كعب: فَلَمَّا اسْتَحَقَّ الزَّرْعُ كَانَ آدَمُ يَحْصُدُ، وَحَوَّاءُ تَجْمَعُ؛ ثُمَّ عَلَّمَ آدَمَ الدَّرَاسَةَ وَالتَّذْرِيعَ وَالطَّحْنَ وَالخَبْزَ؛ ثُمَّ أَكَلَا وَشَرَبَا فَصَابَتْهُمَا التَّفَضُّعُ وَالْفَرَقَةُ فِي بَطُونِهِمَا؛ فَتَجَسَّأَ آدَمُ جُشَاءً مُتَفَرِّجًا، وَتَغَيَّرَ عَلَيْهِ بَدَنُهُ وَثَقُلَ؛ فَلَمَّا ثَقُلَتْ عَلَيْهِمَا بَطُونُهُمَا أَمَرَهُمَا الْمَلَكُ أَنْ يَنْتَبِزَا إِلَى الصَّحْرَاءِ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ؛ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمَا بَكا بَكَاءً شَدِيدًا، وَقَالَا: «هَذَا الَّذِي أَوْثَقَنَا دُنْيَانَا».

ثم أَمَرَهُمَا الْمَلَكُ أَنْ يَسْحَا بِالْمَدَرِ، ثُمَّ يَغْتَسِلَا بِالمَاءِ؛ ثُمَّ عَلَّمَهُمَا الْوُضُوءَ فَوَضُوءًا وَضُوءَ الْإِسْلَامِ؛ ثُمَّ أَمَرَهُمَا بِالصَّلَاةِ، فَكَانَ أَوَّلُ صَلَاةٍ صَلَّاهَا آدَمُ الطُّهْرَ.

وَكَانَ آدَمُ رَبَّمَا اشْتَغَلَ عَنْ صَلَاتِهِ وَلَا يَسْرِفُ الْأَوْقَاتَ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ دِيكَاً وَدَجَاجَةً، فَكَانَ الدِّيكُ أَبْيَضَ أَفْرُقَ^(١) أَصْفَرِ الرَّجُلَيْنِ، كَالثَّوْرِ الْعَظِيمِ، وَكَانَ يَضْرِبُ بِمِخْطَمِهِ عِنْدَ أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ وَيَقُولُ: سُبْحَانَ مَنْ يَسْبِقُهُ كُلُّ شَيْءٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، يَا آدَمُ: الصَّلَاةُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ.

(١) الدِّيكُ الْأَفْرُقُ: ذُو الرَّفْعَيْنِ، أَيْ إِنْ عَرَفَهُ فَفَرَّقَ.

قال : وأخذ آدم في الغرس حتى غرس كل ما على وجه الأرض من أنواع النمار والأشجار، وأخذت الأرض زهرتها، وكان آدم يأكل من بقول الأرض ونباتها.
قال وهب : أول بقلة زرعها آدم الهندباء ، وأول ما زرع من الرياحين الحناء، ثم الآس .

• ذكر حمل حواء — عليها السلام — وولادتها •

قال : وواقع آدم حواء في ليلة الجمعة ، فحملت بذكر وأُنثى ، واسقطتهما في الشهر الثامن ، فكان أول سقط في الدنيا، ثم حملت ثانياً كذلك، فاصابهما مثل الأول، ثم حملت ثالثة . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَشَاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَرَزْتُ بِهِ فَلَمَّا أَتَتْهُ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لَبَنَ آتَيْنَا صَالِحاً لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

قال : فجاء إبليس إلى حواء وقال : أتخمين أن يمشي في بطنك ؟ قالت : نعم . قال : سميه (عبد الحارث) .

وقال ابن حبيب عن ابن عباس : أنها لما وضعته جاء إبليس وقال : ألا تسميانه بأسمى ؟ قالت له حواء : ما أسمك ؟ فذهب ولم يتم ، ثم عاد إليهما فقال : كيف تريدان أن تسمياه ؟ قالا : نسميه (عبدالله) . قال : أخطئان أن الله يترك عبده عندكما إن سمياه (عبدالله) ، لا والله لا يدعه عندكما حتى يقبضه، ولكن سمياه (عبد شمس) فإنه يبقى ما بقيت الشمس . فاطاعاه وسمياه (عبد شمس) ، فأت صغيراً . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَهُ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ .

قال وهب : أوحى الله إليهما « أنكما أطعنا إبليس في هذه التسمية ، فهلا سمياه عبدالله أو عبد الرحمن أو عبد الرحيم » فجزمنا لذلك جزماً شديداً ، وقالا : لا حاجة لنا في هذا المولود . فأماته الله .

ثم حلت بذكر وأثى، فلما وضعتما سمتهما (عبد الله) (وأمة الله)؛ ثم وضعت
بطنا آخر فسمتهما (عبد الرحيم) (وأمة الرحيم)؛ ولم تزل كذلك حتى وضعت مائة
بطن؛ ثم وضعت بعد ذلك هابيل وأخته في بطن، ثم قابيل وأخته في بطن، حتى
وضعت عشرين ومائة بطن ذكر وأثى، فتناسلوا وكثروا .

ذكر مبعث آدم — عليه السلام — إلى أولاده

قال : ثم بعث الله عز وجل آدم إلى ذريته رسولا ، وفلك في أول ليلة من
شهر رمضان، وخصه بالوحى، وأنزل عليه إحدى وعشرين صحيفة فيها سور مقطعة
الحروف ، لا يتصل حرف بحرف ، وهو أول كتاب أنزل ، وهو يالف لغة فيها
الفرائض والسنن والشرائع والوعد والوعيد وأخبار الدنيا ، وبين له فيها أهل كل
زمان وصورهم وسيرهم ، وما يحدث في الأرض حتى المسائل والمشرب . ١٠

ثم أمره الله تعالى أن يكتبها بالقلم ، فآخذ جلود الضأن فدبها حتى صارت
رقا ، وكتب فيها الحروف التسعة والعشرين ، وهى فى التوراة والإنجيل والزبور
والقرآن، أولها (ا) : منهاها ، أنا الله الواحد الأحد الذى لم يزل . (ب) : بدع
السموات والأرض . (ت) : توحد فى ملكه ، وتواضع كل شئ لعظمته . (ث) :
ثابت لم يزل ولا يزال . (ج) : جميل الفعل ، جواد ، جليل المال . (ح) : حليم على
من عصاه ، حميد عند من أنشاه . (خ) : خير يواطن الأشياء وظواهرها ، خالق كل
شئ . (د) : ديان يوم الدين ، دان من خلقه . (ذ) : ذو الفضل العظيم ، والعرش
المجيد ، ذو الطول القديم . (ر) : رب الخلائق رزاق رءوف رحمن رحيم . (ز) :
زواع زرع من غير بئر ، زائد لمن شكر ، زين كل شئ برحمته . (س) : سريع
الحساب ، سميع الدعاء ، سريع الإجابة . (ش) : شديد العقاب والبطش ، شاهد ٢٠

كَلَّ نَجْوَى . (ص) : حمد صادق الوعد . (ض) : ضياء السموات والأرض ، ضمن
 لأوليائه المغفرة . (ط) : طاب من أخلص له من المطيعين ، طوبى لمن أطاعه .
 (ظ) : ظهر أمره ، وظفر أهل محبته بالجنة . (ع) : علم عالم علام بالروبية .
 (غ) : غيات المستغيثين ، غنى لا يفقر . (ف) : (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) ، فرد ليس له
 شريك . (ق) : قيوم ، (قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) ، قدير قاهر . (ك) : كريم
 كان قبل كل شيء ، كائن بعد كل شيء ، كافى كل بلية . (ل) : (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ) ، وله الخلق والأمر . (م) : مالك يوم الدين ، متكبر محسن محمود
 متين معبود من قبل ومن بعد . (ن) : نور السموات والأرض ناره مُعَدَّة
 لأهل عذابه . (و) : ولي المؤمنين ، ويل لمن عصاه ، (وَيْلٌ لِلظَّالِمِينَ) . (هـ) :
 هادٍ هدى من الضلالة من قدر له ذلك برحمته ومشيقته ، (لا) : لا إله إلا الله
 الواحد القهار ، الذى لا إله إلا هو العزيز الحكيم . (ى) : يعلم ما فى السموات
 والأرض وما بينهما وما تحت الثرى وما تُخْفِي الصدور .

قال : فلما نزلت هذه الحروف علمها آدم لولده ، فتوارثها ولده ، إلى أن بعث
 الله تعالى إدريس ، وأنزل عليه خمسين صحيفة ، وأنزل عليه هذه الحروف .

ذكر قتل قابيل هابيل

قال : ودعا آدم أبنيه (هابيل) (وقايل) — وكان يحبهما من بين أولاده —
 فذكر لهما ما كان من أمره ودخوله الجنة ، وسبب خروجه ، وغير ذلك ، ثم أمرهما
 أن يقتريا قربانا ، وكان هابيل صاحب غنم ، وقايل صاحب زرع ، فأخذ هابيل
 من غنمه كبشا سمينا لم يكن فى غنمه خير منه ، فجعله قربانا ، وأخذ قاييل من زوجه
 أدناء فقتره ، فترلت من السماء نار بيضاء لا حر ولا دخان فيها ، فأحرق قُرْبَانَ

هايل ، ولم تحرق قربان قابيل ، فدخله الحسد من ذلك ، وقال : إن أولاد هذا
تفتخر على أولادى من بعدى ، فوالله لأقتله . قال الله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ
إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال : ثم رجعا من مئى — وهو موضع القربان — يريدان أباهما وهايل أمام
قابيل ، فعمد قابيل إلى حجر فضرب به رأس أخيه (هايل) فقتله ، ثم مر على
وجهه هاربا . قال الله تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴾ ؛ وإذا هو بزارين قد أقتلا ، فقتل أحدهما الآخر ، وجعل يبحث
في الأرض برجليه حتى حفر حفرة ودفن فيها المقتول ؛ قال قابيل في نفسه ما أخبر
الله تعالى به عنه : ﴿ يَا وَيْلَتَى أَنَّى أَكُونُ مِثْلَ هَذَا الْقَرَابِ فَأَوَارِي سَوَاءَ أَخِي
فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ .

فلما ابعثا على آدم خرج في طلبهما ، فاصاب هايل مقتولا ، فساء ذلك
وأغتم غما شديدا ، وكانت الأرض لما شربت دمه تغيرت الأشجار عن نظارتها ،
فيقال : إن آدم قال :

تغيرت البلاد ومن عليها * فوجه الأرض مغبرة قبيح
تغير كل ذى لون وطعم * وقل بشاشة الوجه المليح
قتل قابيل هايبلا أخاه * فوا أسقى على الوجه الصبيح^(١)

(١) تسكين اللام في قوله : « قتل » للضرورة ؛ وقد ورد هذا البيت في كثير من الكتب بروايات
أخرى وزادات على هذه الأيات .

- ثم حمل آدم هابيل على عاتقه وهو باك ، ثم دفنه ، وبكى عليه هو وحواء أربعين يوما ، فأوحى الله تعالى إليه أن كُفَّ عن بكائك ، فأتى سأهب لك غلاما زيكاً على صورة هابيل يكون أبا النبيين والمرسلين . فسرّى عنه ، وجامع حواء فحملت يشيث وأسمه (هبة الله) فلما وضعت كان على صفة هابيل وصورته ؛ فلما ترعرع وبلغ بعث الله تعالى له قضيا من سدرة المنتهى في صفاء الجوهر ، وورق الله شيئا الأولاد في حياة آدم ، والله أعلم .

ذكر وفاة آدم — عليه السلام —

- قال : وكان آدم لما أخرج الله تعالى الذرية من ظهره رأى داود — عليه السلام — وحسن صورته ، فقال عنه وعمّا رزقه الله تعالى من العمر ، فقيل له : إنه نبي الله داود ، وإك عمره الذي كتب الله له أربعون سنة . فقال : يارب زد في عمره . قال : ذلك الذي كتب له . فقال : يارب فأتى قد وهبته من عمري ستين سنة . فلما أتقضى من عمره تسعمائة سنة وأربعون سنة أتاه ملك الموت ، فقال له آدم : قد عجّلَ عليّ ، لأنّ ربّي كتب لي ألف سنة . قال : ألم تهّب منها لولدك داود ستين سنة ؟ قال : لا . قال : بخمد آدم وبجحد ذريته من بعده ، ونسى فنسيته .
- وقيل في عمر داود : ستون سنة ، وإن آدم وهبه أربعين سنة ، والله أعلم .

- فلما استكمل عدته أمر الله بقبض روحه ، فنهّد إلى ابنه شيث وأوصاه ، وسلم إليه التابوت ، وكان فيه تمّط من الجنة أبيض أهداه الله تعالى لآدم ، فيه صور الأنبياء والفراغة من ذريته ، فنشر آدم الخط وأراه لابنه شيث ، فنظر إليه ، ثم أمر بطيه ووضع في التابوت ، وعمد آدم إلى طاقات من شعر لحيته فوضعها في التابوت وقال له : يا بنيّ ، إنك لا تزال مقلّماً على أعدائك ما دامت هذه الشعرات سودا .

فاذا أبيضت فاعلم أنك ميت ، فأوص إلى خير أولادك . وأوصاه بقتال أخيه قاييل .

ثم قبض الله تعالى نبيه آدم في يوم الجمعة بعد أن استكمل ألف سنة ، وصلى عليه الملائكة صفوفاً ، وصلى عليه شيث ، ودُفن — عليه السلام — .
وقيل : كانت وفاته بالهند ، فلما كان زمن الطوفان حمل نوحٌ معه تابوت آدم في السفينة ، ثم دفنه بيت المقدس .

ذكر وفاة حواء

قال : ولما توفي آدم — عليه السلام — لم تعلم حواء بموته حتى سمعت بكاء الوحش والسباع والطير ، ورأت الشمس منكسفة ، فقامت من قبتها فرجة أن يكون حل بشيث ما حل بهاييل ، وصارت إلى قبة آدم فلم تره ، فصاحت صيحة عظيمة ، فأقبل إليها شيث وعزّاها وأمرها بالصبر ، فلم تصبر دون أن صرخت ولطمت وجهها ودقت صدرها ، فأورثت ذلك بنتها إلى يوم القيامة ؛ ثم لزم قبره أربعين يوماً لا تَلُمُ ، ثم مرضت مرضاً شديداً ودّام بها حتى بكت الملائكة رحمة لها ، ثم قُبِضَتْ — رحمة الله عليها — فسلها بناتها ، وكُفِّنَتْ من أكفان الجنة ودُفِنَتْ إلى جنب آدم — عليهما السلام — ورأسها إلى رأسه ، ورجلاها عند رجله .
وقيل : كانت وفاتها بعد مضي سنة من وفاة آدم .

الباب الثاني من القسم الأول من الفن الخامس

في خبر شيث ابن آدم — عليهما السلام — وأولاده

قال : ولما مات آدم — عليه السلام — أسند وصيته إلى ابنه شيث ، وكان عمّا أوصاه به اتّمسك بالعروة الوثقى ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، والإيمانُ بحمّد رسول الله ؛

- وقال له : يا بنى ، إني رأيت اسمه مكتوبا على مُرادق العرش وأبواب الجنان وأطباق السموات وأوراق شجرة طوبى ، فهذه وصيتى إليك . ثم تزع خاتمته من اصبعه ودفعه إليه ، وتسلم منه التابوت ، ثم قال له : إن الله سيعطيك ثوب المجاهدة ، فخارب أخاك قابيل ، فإن الله تعالى ينصرك عليه . وكان شيث حين الوصية إليه ابنَ أربعة عشر سنة ، فأطاعه أولاد أبيه ، وصار إليه الفرس الميمون ، وكان أغرَّ محبلاً .
- إذا صهل أجابته الدواب كلها بالتسبيح .

ذكر قتال شيث قابيل

- قال : ثم أمر الله تعالى شيث بن آدم بقتال قابيل ، وكان قابيل قد اعتزل في ناحية من الأرض ، فعمَّرها ، وخدع أختاه فأحبلها ، ورزق منها أولادا كثيرة
- فسار إليه شيث بجميع أولاده ، وتقلد سيف أبيه ، وكان بين يديه عمود من الياقوت
- يحمله الملائكة يضيء بالليل والنهار ، وصار وقد أحدقت به الملائكة ، فتوجه إليهم إلى قابيل وأعلمه خبر أخيه ، فتأهب للقاءه وقد داخله الفزع ، ثم جاء شيث فقابلته ، فأقتلا ، فأنكب قابيل على وجهه ، فأخذه شيث أسيرا ، وأسر جماعة من أولاده .
- ثم أقبلت الملائكة إلى قابيل فسلكوه في سلسلة من سلاسل جهنم ، وغلوا يده إلى عنقه ، وساقوه بين يدي شيث مُهاناً وهو يقول : يا شيث احفظ الرِّحم بنى وبينك . فقال : لا رِّحمَ بيننا بعد أن قُلتَ أخاك ظلماً .
- ثم أمر شيث الملائكة فساقوه مغلولاً إلى عين الشمس بالمغرب ، فلم يزل مواجهاً للشمس حتى مات كافراً ، وصارت ذريته عبيداً وإماءً لشيث وأولاده .
- ثم أخذ شيث بعد ذلك في عمارة المدن حتى بنى نيفا على ألف مدينة
- في كل مدينة منارة ينادى عليها : (لا إله إلا الله ، آدم صفوة الله ، محمد رسول الله) .

وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر هو وأولاده ، حتى عمرت الدنيا ؛ وأُتزل
الله تعالى على شيت نحسين صحيفة ، فكانوا يقرأونها ويعملون بما فيها من غير عداوة
ولا تباض ولا تحاسد ولا فسق بينهم ؛ وكان إبليس يحسد شيتا وأولاده ، فأقبل
إبليس إليه في صورة امرأة حسناء ، فقال لها : من أنت ؟ قالت : امرأة أرسلني
الله إليك لتزوجه ، ولستُ من بنات آدم . فقال : إن ربي لم يأمرني بذلك
ولا أخبرني عنك ، وما أظنك إلا إبليس . فضحك وقال : إنما أنا امرأة من نساء
الجنة ، ولا تص ربك وتزوج بي ؛ وجعل إبليس يترن له حتى كاد يقتله ؛ فنادته
الملائكة : يا بني الله ، إنه عدوك إبليس . فقبض شيت عليه وهم يقتله ؛ فقال :
خل عني فإني من المنتظرين ، ولكن أعطيك الميثاق أتى لا أمترض إليك بعدها .
فأطلقه ولم يعد إليه .



وولد لشيت (أنوش) على طوله وحسنه ؛ فجعله شيت مكانه والخليفة من
بعده ، وسلم إليه التابوت ، وأوصاه بقتال أولاد قابيل .
ومات شيت وله سبعمائة سنة وعشرون سنة .

وقيل : بل عاش بعد آدم مائتي سنة ، وعهد إلى ابنه (أنوش) فقام على
أولاده بالطاعة ثلاثمائة عام .

وعهد من بعده إلى ابنه (قيتان) ، فعمر بعد أبيه مائتين وخمسين سنة .

وعهد إلى ابنه (مهلائيل) ، وكثر في زمانه بنو آدم ، وكان مقرن الحرم
فضاق بهم ، فقسم الأرض بينهم خمسة أقسام ، وأرسل خمسة نفر من صلحاء
قومه يقيمون لهم شرائع آدم — عليه السلام — ويتولون الحكومة بينهم ، وهم
وَدُّ وسَوَاعٌ ويغوثٌ ويصوقٌ ونسْرٌ ، وهؤلاء الذين لما قُتلوا بلغ من وجَد قومهم

عليهم أن جعلوا لهم تماثيلَ يَسْلَوْنَ بها ، وترامى الأمرُ إلى أن عبدها القَرَن الذي تلاهم ، فكان ذلك هو السببُ لعبادة الأوثان .

ثم قام بالأمر بعد (مَهَلَايِل) أبْنُه (أَخْتُوخ) ، وهو إدريس .

الباب الثالث من القسم الأول من الفرق الخامس

• في أخبار إدريس النبي — عليه السلام —

وأسمه أخنوخ ، وإتَمَّ سُمِّي إدريس لكثرة دراسته الكتب ؛ وهو أول من بُعث من بني آدم ؛ وهو أول من خطَّ بالقلم بعد شيث ، وأول من كتب في الصحيفة ؛ وكان مشغلاً بالعبادة ومجالسة الصالحين حتى بلغ فأفرد للعبادة ، بحُله الله تعالى نبياً ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة ، ووزنه صحف شيث وتابوت آدم .

• وكان يعيش من كسب يده ؛ وكان خياطاً ، وهو أول من خاط الثياب ولبسها وكانوا قبل ذلك يلبسون الجلود ، حتى أتت عليه أربعون سنة ، فبعثه الله تعالى إلى أولاد قابيل ، وكانوا جابرة ، وقد آشتلوا باللهو والفناء والمزامير والطنابير وغير ذلك ، وعبدوا الأصنام ؛ وكان إدريس يدعوهم ثلاثة أيام ، ويمد الله أربعة .

وحكى عن وهب أنه أول من اتخذ السلاح ، وجاهد في سبيل الله ، ولبس

الثياب ، وأظهر الأوزان والأيكال ، وأثار علم النجوم .

• وكان إدريس شديد الحرص على دخول الجنة ، وكان قد رأى في الكتب أنه لا يدخلها أحد دون الموت ، فبينما هو يسبح في عبادته إذ عَرَّضَ له مَلَك الموت في صورة رجل في نهاية الجمال ؛ فقال له إدريس : من أنت ؟ قال : عبدٌ من عبيد الله أعبدته كعبادتكَ . وأصطحبها ، فكان إدريس يأكل من رزق الله ، وهو

لا يَظُم شيئاً ؛ فسأله عن ذلك ؛ فأخبره أنه مَلَك الموت ؛ فقال له : جئت لقبض

رُوحى؟ قال: لا، ولو أمرنى الله بذلك ما أمهلتك، ولكنه أمرنى أن أصطبك .
فسأله إدريس أن يقبض روحه ؛ فقال له : وما تريد بذلك ولتوت كربٌ عظيم ؟
قال : لعل الله تعالى يمحى فأكون أكثر فى عبادته ، فأمره الله يقبض روحه
قبضها ، وأحياء الله تعالى لوقته .

- ثم قال إدريس له بعد حين : هل تستطيع أن تقفنى على جهنم ؟ قال :
- ما حاجتك إلى ذلك ولما من الأحوال ما لا تطيق أن تنظر إليه ، وما لى سبيل إلى
ذلك ، ولكنى أقفك على طريق مالك خازنها ، والله أعلم بحاجتك . فاحمله
ووقفه على طريق مالك ، فلما رآه كثر فى وجهه ، فكادت رُوحه تخرج ، فأوحى الله
— عز وجل — إلى مالك : وعزنى وجلالى لا رأى عبدى إدريس بعد كشرتك
سوما ، إرجع إليه وقفه على شفير جهنم ليرى ما فيها . فوقفه مالك على شفيرها
ونظر إلى ما فيها من الأحوال ، فلو لا أن ثبته الله تعالى لصيق ؛ ثم أعاده إلى مكانه ،
فاحمله ملك الموت إلى الأرض ، فبعد الله عز وجل حيناً ؛ ثم قال لملك الموت :
هل لك أن تدخل الجنة لأرى ما أعد الله تعالى لأهل طاعته من النعيم ؟ فقال :
حاجتك إلى الله تعالى ، ولكنى أحملك وأقف على طريق رضوان خازن الجنان
فسله حاجتك . ففعل ذلك ؛ فلما رآه رضوان قال : من هذا ؟ قال : إدريس بنى
الله يريد أن ينظر إلى نعيم الجنان . قال : « ذلك إلى ربى » . فأوحى الله تعالى إلى
رضوان : أتى قد علمت ما يريد عبدى إدريس ، وقد أمرتُ غصنا من أغصان
شجرة طوبى أن يتدلى إليه فيلتف به ويدخله الجنة ، فإذا دخل فأقعده فى أعلى
موضع ؛ فلما دخلها إدريس ورأى ما فيها من النعيم قال له رضوان : أخرج الآن .
قال له إدريس : أيدخل الجنة من يخرج منها ؟ فخافه فى ذلك ، فأرسل الله تعالى
له ملك الموت ، فقال له إدريس : ما حاجتك ؟ إنك لن تسلط على قبض رُوحى

مرتين، فاذهب . فرجع ملك الموت إلى ربه عز وجل وقال : إلهي قد علمت ما قال إدريس . قال الله تعالى : إنه حاجتك بكلامي، فخره في جنتي . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

هذا ما أورده الكسائي - رحمه الله - في كتاب المبتدأ ^(١) .

- ونقل الشيخ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي - رحمه الله - في كتابه المترجم (بيواقيت البيان في قصص القرآن) وفي تفسيره أيضا في سبب رفع إدريس عليه السلام، قال : وكان سبب رفعه على ما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - وأكثر الناس : أنه سار ذات يوم فاصابه وقع الشمس، فقال : يارب إني مشيت يوما فتأذيت منها، فكيف من يحملها خمسمائة عام في يوم واحد؟! اللهم خفف عنه من تحملها، وأحمل عنه حرها . فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وخفة حرها ١٠ ما لا يعرف؛ فقال : يارب، خلقتني لحمل الشمس، فما الذي قضيت في؟ فقال : أما إن عبيد إدريس سألني أن أخفف عنك تحملها وحرها، فأجبته . قال : يارب أجمع بيني وبينه، وأجعل بيني وبينه خلة . فاذن الله تعالى له؛ فأتى إدريس حتى إن إدريس ليسأله، فكان مما سأله أن قال : أخبرت أنك أكرم الملائكة عند ملك الموت وأمكنهم عنده، فأشفع لي إليه أن يؤخر أجلي فأزاد شكا وعبادة . فقال ١٥ الملك : لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها . قال إدريس : قد علمت ذلك، ولكنه أطيّب لنفسى . قال : نعم أنا مكلمه لك، فما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بني آدم فهو فاعله لك . ثم حمّله ملك الشمس على جناحه ، فرفعه إلى السماء
- (١) كتاب الكسائي الموجود بدار الكتب المصرية غير مكتوب عليه هذا العنوان المذكور، بل كتب على إحدى نسخته (كتاب الراس قصص الأنبياء) وعلى نسخة أخرى (قصص الأنبياء) . وهو هذا الكتاب منه الذي ذكره المؤلف، وهذا الاختلاف في التسمية إنما وقع من النسخ .
- ٢٠

ووضعه عند مطلع الشمس؛ ثم أتى ملك الموت، فقال : لى إليك حاجة . قال :
أفضل كل شيء أمتطيه . فقال له : صديق لى من بنى آدم يتشقق بى إليك أن
تؤخر أجله . فقال : ليس ذلك لى ، ولكن إن أحببت أعلمه أجله مى يموت
فيتقدم فى نفسه . قال : نعم . فنظر فى ديوانه ، فأخبره بأسمه ، فقال : إنك كلبتى
فى إنسان ما أراه يموت أبدا . ثم قال : لى لأجده يموت عند مطلع الشمس .
قال : فأتى أنحك وتركته هناك . قال : فأطلقت فأنه قد مات ، فوالله ما بقى من
أجل إدريس شيء . فرجع الملك فوجده ميتا .

قال : وقال وهب : كان يضع له فى كل يوم من العبادة مثل ما يضع لأهل
الأرض فى زمانه . فحجبت منه الملائكة ، فأشفاق إليه ملك الموت ، فاستأذن الله
تعالى فى زيارته ، فأذن له ، فأناه فى صورة غلام ؛ وكان إدريس يصوم الدهر كله
فلما كان فى وقت إظلامه دعاه إلى الطعام ، فأبى أن يأكل معه ، وفعل ذلك ثلاث
ليال ، فقال له إدريس فى الليلة الثالثة : أتى أريد أن أعلم من أنت . قال :
أنا ملك الموت ، استأذنت ربى أن أزورك وإن أصحابك ، فأذن لى فى ذلك .
فقال له إدريس : فلى إليك حاجة . قال : وما هى ؟ قال : أقبض رُوحى ؛ فأوحى
الله تعالى إليه : « أقبض روحه » . ففعل ، ثم ردها الله تعالى إليه بعد ساعة ، فقال
له ملك الموت : فما الفائدة فى سؤالك قبض الروح ؟ قال : لأنوق كرب الموت
وعمه فأكون له أشد استعدادا .

ثم قال : لى إليك حاجة أخرى ، قال : وما هى ؟ قال : ترفنى إلى الدماء لأنظر
إليها وإلى الجنة والنار . فأذن الله تعالى له فى ذلك ، فلما قرب من النار قال :
لى إليك حاجة . قال له : وما تريد ؟ قال : تسأل مالكا حتى يفتح لى أبوابها
فأردها . ففعل ؛ ثم قال له إدريس : فكما أرى النار فأرى الجنة . فذهب إلى

الجنة فاستفتح، ففتحت له أبوابها، فأدخله الجنة؛ فقال له ملك الموت : اخرج منها لتعود إلى مقرِّك . فتعلَّقَ بِشَجَرَةٍ وَقَالَ : لَا أَخْرَجُ مِنْهَا . فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكًا حَكِيمًا بَيْنَهُمَا؛ فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ : مَا لَكَ لَا تَخْرُجُ ؟ قَالَ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِمَةٌ الْمَوْتِ ﴾ وَقَدْ ذُقْتُهُ . وَقَالَ : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ وَقَدْ وَرَدْتُهَا . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فَلَسْتُ أَخْرَجُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلِكِ الْمَوْتُ : دعه فإنه بإذني دخل الجنة، وبأمرى يخرج . فهو هناك ، فتارة يبعث الله في السماء الرابعة ، وتارة ينتقم في الجنة .

الباب الرابع من القسم الأول من القرن الخامس

في قصة نوح — عليه السلام — وخبر الطوفان

(١٨)

- ١٠ قال الكسائي — رحمه الله تعالى — قال وهب بن منبه : لما رفع الله تعالى إدريس — عليه السلام — ترك إدريس في الأرض ولده متوشلح، فتزوج بامرأة يقال لها : (ميشاخا) ؛ فولدت له ولدا سماه (ملك) ، وكان يرجع إلى قوة وبطش وكان يضرب بيده الشجرة العظيمة فيقتلعها من أصلها ، وكان على وجهه نور نيتنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فخرج في يوم إلى البرية فرأى امرأة في نهاية الجمال وبين يديها غم ترطاه ، فأعجبته ، فسالها عن نفسها ، فقالت : أنا قينوش بنت براكيل بن محويل من أولاد قاييل بن آدم . فقال : ألك زوج ؟ قالت : لا . قال : فما سنك ؟ قالت : مائة وثمانون . قال : لو كنت بالغة لترؤسك — وكان البلوغ يومئذ لاستيفاء مائتي سنة — فقالت : كان عندي أنك تريد أن تفضحني ، فأما إذا أردت الزواج فقد أتى عليّ مائتا سنة وعشر سنين . فغطبها من أبيها ، وأرغبه بالمال ؛ فزوجه بها فحملت منه بنوح — عليه السلام — فلما كان وقت الولادة ولدته في غار خوفا على
- ٢٠

تقسما وولدها من الملك لكونها تزوجت بمن ليس منهم ؛ فلما وضعت هناك وأرادت
الانصراف قالت : وأتوساه . وأنصرفت ، فبقى في القار أربعين يوما ؛ ثم توفي
أبوه لملك ؛ فأحتمله الملائكة ووضعت بين يدي أمه مزيّنا مكحولا ، ففرحت به
وربته حتى بلغ .

وكان ذا عقل وعلم ولسان وصوت حسن ، واسع الجبهة ، أسيل الخد ، وكان
يرعى النعم لقومه مئة ، وربما عالج التجارة ؛ ثم كره مجاورة قومه لبعادتهم الأصنام .

وكان لهم ملك يقال له درمشيل ؛ وكان جبّارا عاتيا قويا ، وهو أول من
شرب الخمر وأتخذ القهار وقعد على الأسرة وأتخذ الثياب المنسوجة بالذهب وأمر
بصنعة الحديد والتماس والرصاص ؛ وكان هو وقومه يعبدون الأصنام الخمسة :
ودا وسواها ويفوت ويحوق ونسرا ؛ ثم أخذ ألف صنم وسبعمائة صنم على صور
شقي ، وأخذ لها كراسي من الذهب والفضة ، وأقام لها الخدم يخدمونها ؛ فاعتزلهم
نوح إلى البراري ولم يخاطبهم حتى بعث الله تعالى نيا ؛ والله أعلم بالصواب .

ذكر مبعث نوح عليه السلام

قال : فامر الله تعالى جبريل — عليه السلام — أن يهبط إلى نوح ويشره بالنبوة
والرسالة ؛ فهبط جبريل عليه ، وجاءه بوحى الله أن يسير إلى درمشيل الملك وقومه
ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى ؛ فأقبل نوح إلى قومه من يومه — وكان يوم عيدهم
وقد نصبوا أصنامهم على أسرتها وكراسيها ، وهم يقربون القرابين لها ، وكانوا إذا
فعلوا ذلك يمزجون لها سحبا ويشربون الخمر ، ويضربون بالصنّج ، ويأتون النساء
كالبهائم من غير تستر — فقامهم وهم يزيدون على تسعين زمرة ، كل زمرة لا يمحصون
كثرة ، فأحترق الصفوف حتى صار في وسط القوم ، وسأل الله تعالى أن ينصره

- عليهم ؛ فلما أرادوا السجود للأصنام نادى : أيها القوم ، إلى قد جئتم بالنصيحة من عند ربكم أدعوكم إلى عبادته وطلاعته ، وأنها كم عن عبادة هذه الأصنام (وَقُتُّوا)
 الله (وَأَطِيعُون) . فخرقت دعوته الإسماع ، وهوت الأصنام عن كراميتها ، وسقط الملك عن سريره مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : يا أولاد قابيل ، ما هذا الصوت الذى لم أسمع مثله ؟ قالوا : أيها الملك ، هذا صوت رجل منا اسمه نوح بن لَمَك .
 كان يماننا قبل ذلك يحنونه ، والآن قد أشتد عليه فقال ما قال . فنضب الملك وأستدعاه ، فأتوه به بعد أن ضربوه الضرب الشديد ؛ فقال له : من أنت ، فقد ذكرت ألفتنا بسوء ؟ قال : أنا نوح بن لَمَك رسول رب العالمين ، جئكم بالنصيحة من عند ربكم لتؤمنوا به وبرسوله ، وتهجروا هذه الأصنام والقبائح . فقال درمشيل :
 إنك قد جئتنا بما لا نعرفه ، ولا نعتقد أنك عاقل ، فإن كان بك حجة فنداويك أو نفر فنواسيك . قال : يا قوم ، ما بى جنون ولا حاجة إلى ما فى أيديكم ، ولكنى أريد أن تقولوا : لا إله إلا الله وإنى نوح رسول الله . فنضب درمشيل وقال :
 لولا أنه يوم عيد لقتلناك .

- فأول من آمن به امرأة من قومه يقال لها : (عَمْرَة) فزوجها فأولدها
 (ساما) (وحاما) (ويافث) وثلاث بنات ؛ ثم آمنت به امرأة أخرى من قومه يقال لها : (والمة) فزوجها فأولدها كنعان ؛ ثم نافقت وعادت إلى دينها .
 وكان نوح يخرج فى كل يوم فى أنديته لقومه يدعومهم إلى عبادة الله تعالى فيضربونه حتى يشقى عليه ، ويمحزون برجله فيلقونه على المزابل ، فلذا أفاق عاد إليهم بمثل ذلك ، ويماملونه بمثله ؛ حتى أتى عليه ثلاثمائة سنة وهو على هذه الحال ؛ ثم مات ملكهم درمشيل ، وملك بعده أبنته بولين ، وكان أعنى وأطغى من أبيه —
 وكان نوح يدعومهم فى القرن الرابع على عاداته ، فيضربونه ويشتهونه ، وربما سقوا

عليه التراب ويقولون : إليك عنا يا ساحر يا كذاب . ويضعون أصابعهم في آذانهم ، فيصرف عنهم ويعود إليهم ، وإذا خلا بالرجل منهم دعاه ، وهم لا يزدادون إلا عتواً ومخذواً واستكباراً ، وذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ۚ ﴾ الآيات .

ثم دعاهم حتى استكمل ستة قرون؛ فلما دخل القرن السابع مات ملكهم (بولين) واستخلف عليهم ابنه (طفردوس) - وكان على عتو أبيه - وكان نوح ياتي أصنامهم بالليل وينادي بأعلى صوته: يا قوم، قولوا (لا إله إلا الله، وإني نوح رسول الله) . فتُنكس الأصنام؛ وكانوا يضربون نوحا ضربا شديدا، ويدوسون بطنه حتى يخرج الدم من أذنيه ؛

وكان الرجل منهم عند وفاته يوصي أولاده ويأخذ عليهم العهد ألا يؤمنوا به ،
ويأتي الرجل بأبنه إلى نوح ويقول : يا بني أنظر إلى هذا فإن أبي حلي
إليه وحذرنى منه ، فأخبره أن يزيك عما أنت عليه فإنه ساحر كذاب . وهو
بعد ذلك يدعوهم ، فضجّت الأرض إلى ربها وقالت : ما حملك على هؤلاء ؟
وضيح كل شيء إلى ربّه من عتوهم ، ونوح يدعوهم ويذكرهم بآيات الله ، فلما كان
في بعض الأيام إذا هو برجل من كبار قومه قد أقبل بولده يحذره منه ؛ فضرب الغلام
بيده إلى كفّ تراب وضرب به وجه نوح ، فعند ذلك قال نوح ربّ لا تدّر على
الأرض من الكافرين دياراً إنّك إنّ تدّرهم يضلّوا عبادك ولا يدّوا إلّا فاجرًا
كثّارًا . فامتت الملائكة على دعوته ، فنع الله عنهم القطر والنبات ؛ فلم نوح أنّ
الله مهلك قومه ؛ فأحبّ أن يؤمن بعضهم إن لم يؤمنوا كلّهم ؛ فأوحى الله تعالى

إليه : ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَحْطِيطِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرَقُونَ ﴾ .

ذكر عمل السفينة

قال : وأوحى الله تعالى إليه أن يتخذها في ديار قومه ، وأن يجعلها ألف ذراع

- طولاً وخمسمائة عرضاً وثلاثمائة ارتفاعاً ، فأعد آلات التجارة ، وشرع في عملها وأمانه وأولاده ومن آمن من قومه ، والناس يسخرون منه ويقولون : بعد النبوة صرت نجاراً ، ونحن نشكو القحط ، وأنت تبني للفرق . قال الله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ؛ وكانوا يأتون السفينة بالليل فيشعلون فيها النار ولا تحترق ، فيقولون : هذا من سحر نوح .

١٠

وجعل نوح رأس السفينة كراس الطائوس ، وعنفها كمنقئ الأسر ، وجوؤها بكجوؤ الحمامة ، وكوتلها كذئب الديك ، ومنقارها كمنقار البازي ، وأجنحتها كأجنحة العقاب ؛ ثم غشاها بالزفت ، وجعلها سبع طبقات لكل طبقة باب ؛ فلما فرغ من بنائها نطقت بإذن الله وقالت : لا إله إلا الله الأولين والآخرين ، أنا السفينة ، من ركني نجاء ، ومن تحلف عني غرق ، ولا يدخلني إلا أهل الإخلاص .

فقال نوح لقومه : أتؤمنون ؟ قالوا : هذا قليل من سحر . ثم استأذن ربه في الحج ، فأذن له ؛ فلما خرج هم القوم بإحراقها ، فأمر الله الملائكة فأحتملوا إلى الهواء ، فكانت معلقة حتى طاد من حجه . ولما قضى مناسكه رأى تابوت آدم عن يمين الكعبة ، فسأل ربه في ذلك التابوت فأمر الملائكة فحملوه إلى دار

١٥

٢٠

(١) كذا في كتاب الكافي المقول عنه هذا الكلام . والذي في الأصول : « تنورا من آدم » وهو تعريف ، إذ لا يقل أن يتخذ النور من الأدم وهو الجلد .

نوح - وكانت يومئذ في مسجد الكوفة - فلما رجع من حجه نزلت السفينة من الهواء، ثم أوحى الله إليه : أن قد دنا هلاك قومك ﴿ فَأَذًا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ . ثم أمره الله تعالى أن ينادى في الوحش والسياب والطير والحوام والأشياء ؛ فوقف على سطح منزله ، ونادى : ” هلموا إلى السفينة المنجية “ . فمرت دعوته إلى الشرق والغرب والبعد والقرب ، فأقبلت إليه أفواجا .

فقال : إنما أمرت أن أحمل من كل زوجين اثنين ؛ فأقرع بينهم ، فأصاب القرعة من أذن الله في حمله ، وكان معه من بنى آدم ثمانون إنسانا بين رجل وامرأة ؛ فلما كان في مستهل شهر رجب نودي من التنور وقت الظهر : قم يا نوح فأحمل في سفينتك من كل زوجين اثنين من الذكور زوجا ومن الإناث زوجا ، فحملهم . وكان معه جسد آدم وحواء ؛ وتباطأ عليهم الحمار في صعوده ، لأن إبليس تلقى بئسبه ؛ فقال نوح بالنبطية : على شيطان ، يعني أدخل يا شيطان ؛ فدخل ومعه إبليس فرآه نوح فقال : يا ملعون ، من أدخلك ؟ قال : أنت حيث قلت : على شيطان : فاهده ألا يفنى أهل السفينة ما داموا فيها ؛

ثم أوحى الله إلى جبريل أن يأمر نوحه الماء أن يرسلوه بغير كل ولا مقدار وأن تضرب المياه بجناح الغضب . ففعل ذلك ، ونبتت العيون ، وهطلت السماء (فَأَتَنَّى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِيرٍ) وكان ماء السماء أخضر ، وماء الأرض أصفر ؛ وأمر الله الملائكة أن يحملوا البيت إلى سماء الدنيا ؛ وكان الحجر يومئذ أشد بياضا من الثلج ؛ فيقال إنه أسود من خوف الطوفان ؛ وقال نوح عند ركوبه السفينة ما أخبرنا الله عنه في كتابه العزيز : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِأَمْرِ اللَّهِ تَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَيَمْحَى تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ

فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَرَأَيْتَ لَوْ كُنَّ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُتَشَرِّقِينَ ﴿١٠﴾

قال : كان أبنه هذا كتمان .

- قال : وكانوا لا يعرفون الليل من النهار إلا بنجزة كانت مرئية في صدر السفينة بيضاء ، فإذا قص ضوءها علموا أنه النهار ، وإذا زاد علموا أنه الليل ، وكان الديك يصبح عند أوقات الصلاة ، وعلا الماء على الجبال أربعين ذراعا ، وسارت السفينة حتى بلغت موضع الكعبة ، فطافت سبعا ، ونظفت بالثلية ، وكانت لا تقف في موقف إلا وتناديه : يا نوح هذه بقعة كذا ، وهذا جبل كذا ، حتى طافت به الشرق والغرب ورجعت الى ديار قومه ، فقالت : يا بني الله ، ألا تسمع صلصلة السلاسل في أعناق قومك ؟ قال الله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطَبَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا ﴾ ، ولم تزل السفينة كذلك ستة أشهر آخرها ذوا الحجة .

- وقيل : كان ركوب نوح ومن معه السفينة لئلا يخلطوا من شهر رجب وذلك لتتمه أثنى سنة ومائتي سنة وخمسين سنة من لدن أهبط الله تعالى آدم — عليه السلام — وخرجوا منها في العاشر من المحرم بعد مضي ستة أشهر ، ثم استقرت على جبل الجودي ، قال الله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ اطْبِقِي مَا عَلَيْكَ وَيَأَسْمَاءُ أَقْلِي وَيَغْضِ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ * وَتَادَى نُوحٌ ربه فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿١٠﴾

- قال : ثم فتح نوح باب السفينة ، فنظر الى الأرض بيضاء من عظام قومه ، وبعث الغراب لينظر ما بقى على وجه الأرض من الماء ، فأبطأ ، فبعث الحمامة

فَانْطَلَقَتْ شَرْقًا وَغَرْبًا وَعَادَتْ مُسْرِعَةً، فَقَالَتْ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هَلَكْتَ الْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَأَمَّا الْمَاءُ فَلَايَ لَا أَرَاهُ إِلَّا بِلَادَ الْهِنْدِ، وَلَمْ تَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ شَجَرَةٌ إِلَّا الزَّيْتُونُ، فَأَتَاهَا عَلَى حَامِلِهَا . فَأَوْحَى إِلَيْهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى نُوحٍ : ﴿ اهُيْطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ۖ نَخْرِجُكَ مِنَ السَّفِينَةِ وَنُخْرِجُكَ مِنْ فِيهَا، وَأَعَادَ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ وَالْأَشْجَارَ وَالنَّبَاتَ كَمَا كَانَتْ، وَتَفَرَّقَ الْوَحْشُ وَالسَّبَاعُ وَالطُّيُورُ وَغَيْرُهَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَأَمَرَ نُوحٌ فَبَنِيَتْ قَرْيَةً فِي أَسْفَلِ جَبَلِ الْجُودَى وَتَسَمِيَتْ (قَرْيَةُ ثَمَانِينَ) عَلَى عَدَدِهِمْ .

قِيلَ : هِيَ الْجَزِيرَةُ ؛ وَهِيَ أَوَّلُ قَرْيَةٍ بُنِيَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بَعْدَ الطُّوفَانِ ثُمَّ قَسَمَ نُوحٌ الْأَرْضَ بَيْنَ أَوْلَادِهِ الثَّلَاثَةِ : سَامَ وَحَامَ وَيَافَثَ، فَأَعْطَى سَامَ الْمَجَازَ وَالْيَمِينَ وَالشَّامَ، فَهُوَ أَبُو الْعَرَبِ ، وَأَعْطَى حَامَ بِلَادَ الْمَغْرِبِ فَهُوَ أَبُو السُّودَانِ وَأَعْطَى يَافَثَ بِلَادَ الْمَشْرِقِ، فَهُوَ أَبُو التُّرْكِ .

ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ — عَزَّ وَجَلَّ — إِلَى نُوحٍ أَنْ يَرِدْ التَّابُوتَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَخَذَ مِنْهُ، فَرَدَّهُ .

(٢١)

ذَكَرَ خَبَرَ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَى ابْنِهِ حَامَ وَدَعْوَتِهِ لِابْنِهِ سَامَ

قَالَ : وَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ قَالَ نُوحٌ لِبْنِهِ : إِنِّي أَحَبُّ أَنْ أُنَامَ، فَزِنْنِي لَمْ أَتَيْنَا بِالنُّوْمِ مِنْذُ رَكِبْتُ الْفُلَّكَ . فَوَضَعَ رَأْسَهُ فِي حِجْرِ ابْنِهِ حَامَ، فَهَبَّتِ الرِّيحُ فَكَشَفَتْ عَنْ سُوَّتِهِ، فَضَحِكَ حَامَ، وَغَطَّاهُ سَامَ؛ فَانْتَبَهَ فَقَالَ : مَا هَذَا الضَّحُكُ ؟ فَأَخْبَرَهُ سَامَ ، فَغَضِبَ وَقَالَ لِحَامَ : أَنْضَحُكَ مِنْ سُوءَةِ أَبِيكَ ؟ غَيْرَ اللَّهِ خَلَقْتَنِي ، وَسُودَ وَجْهِكَ . فَأَسْوَدَ وَجْهَهُ لَوْقَتِهِ . وَقَالَ لِسَامَ : سَتَرْتَ عَوْدَةَ أَبِيكَ ، سَتَرَاكَ عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَغَفَرَ لَكَ فِي الْآخِرَةِ . وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِكَ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَشْرَافَ، وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِ حَامَ الْإِمَاءَ وَالْعَبِيدَ، وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِ يَافَثَ الْجَبَابِرَةَ وَالْكَاسِرَةَ وَالْمُلُوكَ الْعَاتِيَةَ .

ذكر وصية نوح ووفاته

- قال كعب : بعث الله - عز وجل - نوحا إلى قومه وله مائتان ونمسون سنة ولبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وعاش بعد الطوفان مائتي سنة؛ فلما حضرته الوفاة دعا بآبئه سام وقال له : أوصيك يا بُنَيَّ بأثنين، وأنهاك عن اثنين : أوصيك « بشهادة أن لا إله إلا الله »، فإنها تحرق السموات السبع، لا يجحبها شيء، والثانية أن تُكثر من قولك : « سبحان الله وبحمده »، فإنها جامعة الثواب؛ وأنهاك عن الشرك بالله، والأتكال على غير الله . فلما فرغ من ذلك أتاه ملك الموت، فسلم عليه فقال : من أنت ؟ فقد ارتاع قلبي من سلامك . قال : أنا ملك الموت، جئتُ لقبض رُوحك . فتغير وجهه وجزع، فقال له : ما هذا الجزع، ألم تسبح من الدنيا في طول عمرك ؟ قال : ما شَبَّهْتُ ما مضى من عمري في الدنيا إلا بداريها بابان دخلتُ من أحدهما ونرجتُ من الآخر . فناوله ملك الموت كأسا فيها شراب وقال : اشرب هذا حتى يسكن روعك . فلما شربه نزع ميتا - عليه السلام - والله الموفق .

ذكر خبر أولاد نوح - عليه السلام - من بعده

- فأما حام فإنه واقع زوجته فولدت غلاما وجارية سودا، فأنكرهما حام؛ فقالت أمراؤه : « لحقتك دعوة أبيك » . فلم يقربها حينئذ؛ ثم واقعها فولدت مثلهما فتركها حام وهرب على وجهه؛ فلما كبر الولدان الأولان خرجا في طلب أبيهما حتى بلغا قرية على شاطئ البحر، فزلاها ، وواقع الغلام أخاه فحملت منه وولدت غلاما وجارية ؛ وأقاما في ذلك الموضع لا مأكل لهما إلا السمك ؛ فرجع

(١) أراد بالجمع هنا ما فوق الواحد فقال : « سودا » .

حَامٌ في طلب ولديه فلم يجدهما ، فَأَعْتَمَ لذلك ؛ ثم ماتت أمراؤه ، فخرج الولدان
الآنران في طلب أخويهما حتى صارا الى قرية أخرى على الساحل تحرية ؛ فقتلها
فسمع بهما الأخوان الآنران في البطن الأول ، فلحقا بهما ؛ ونزلوا هناك ، ووطئ كلُّ
منهما أخته ؛ فزوّجوا أولادها ، وكثر منهم النسل ، وأنتشروا في أعلى الأرض على
ساحل البحر ؛ فنتهم الثوبة والزنج والبربر والهند والسند وجميع طوائف السودان .

وأما يافث بن نوح ، فإنه صار إلى المشرق ، فوُلد له هناك خمسة أولاد : جومر
وتيرس وأشار وسفويل ومياشخ ؛ فمن جومر جميع الصقالبة والروم وأجناسهم ؛
ومن تيرس جميع الترك والخزر وأجناسهم ؛ ومن مياشخ جميع أصناف الصم ؛ ومن
أشار ياجوج وماجوج ؛ ومن سفويل جميع الأرمن :

وأما سام بن نوح فولد خمسة أولاد : ارغشذ ، وهو أب العرب ؛ ولأوذ
وهو أبو المالفية ؛ وأشور ، وهو أبو النساس ؛ وعيلم ، وهو أبو العادية [الأولى] ،
وإرم ، وهو أبو عاد وثمود ؛ ورزق غيرهم ممن لم يُعقَب .

الباب الخامس من القسم الأول من الفن الخامس

❦

في قصة هود — عليه السلام — مع عاد وهلاكهم بالريح العقيم
قال وهب : كان ملك عاد الأكبر اسمه الخَلْجَان بن عاد بن القوص بن إرم
ابن سام ؛ وكان قومه يَرجِسون إلى فصاحة وشعر ، وكان له ثلاثة أصنام : صَدَا
وهبا ، وصُور ؛ وكان ملكهم قد حلّى هذه الأصنام بأنواع الخلي ، وطيبها ، وجعل
لها عتقة من الخدم بعدد أيام السنة ؛ فتوا في المعاصي ، وأنهمكوا على عبادة

(١) يلاحظ أن كتب التاريخ مختلفة تمام الاختلاف في رواية كثير من هذه الأسماء العشرة أولاد
يافث وسام حتى إنه لامة بين رواية وأخرى . ومن المعتبر الوصول الى تحقيق كثير من هذه الأسماء .

- الأصنام، وكان فيهم رجل من أشرافهم اسمه الخلود بن معيد بن عاد، وكان له بسطة في الخلق وقوة في الجسم، مع الحسن والقصاحة؛ وكان إذا قيل له: لم لا تترجع وقد بلغت من أهلك؟ يقول: رأيت في المنام كأن سلسلة بيضاء قد خرجت من ظهري، ولها نور كالشمس، وقيل لي: إذا رأيت هذه السلسلة قد خرجت من ظهرك ثانية فترجع بالتي تؤمر بترجعها؛ ولم أرها بعد، وقد عزمتُ على الترجع.
- وقام لي عبر بيت الأصنام يدعو بالتوفيق في الترجع، فلما هم بالدخول لم يقدر، وسمع هائفاً يقول: يا خلود، ما لمن في ظهرك والأصنام؟ فلم يعد إليها. ثم رأى بعد ذلك في منامه السلسلة وقد خرجت من ظهره وفائلاً يقول: «قم يا خلود فترجع بأبنة عمك» فأنبته وخطبها وترجعها، وواقفها فحملت يهود؛ وأصبح القوم وهم يسمعون من جميع النواحي: هذا هود قد حلت به أمه، ويلكم، إن لم تطيعوه هلكتم.

- ووضعت أمه في ليلة الجمعة، فوقعت الرعدة على قبائل عاد، ولم يعلموا ما حالهم؛ فعلموا أنه قد ولد لخلود ولد، فقال بعضهم لبعض: ليكون لهذا الولد شأن فأحذروه. ففرج أحسن الناس وجهها، وأكملهم عقلاً، وسمته أمه عابر، فرأته أمه ذات يوم يصلي، فقالت: لمن هذه العبادة يا بني؟ قال: لله الذي خلقني وخلق الخلق. قالت: أليس هي لأصنامنا؟ قال: إن أصنامكم لا تضر ولا تنفع وإنما الشيطان قد زين لكم عبادتها. قالت: أعبد إلهك يا بني، فقد رأيت منك حين كنت حلاً وطفلاً عجائب كثيرة.

ذكر مبعث هود عليه السلام

- قال: ولم يزل هود في ديار قومه يحادلهم في أصنامهم، حتى أتت عليه أربعون سنة؛ فبعثه الله - عز وجل - إلى قومه رسولا، وأناه الوحي، فأطلق إليهم وهم

متفوقون في الأحقاف، وهي الرمال والتلال - وكانت مساكنهم ما بين عُمان إلى حضرموت إلى الأحقاف إلى عابجة - فأتاهم في يوم عيد لهم وقد اجتمع الملوك على الأمرة والكراي، ومليكمهم الخلقان على سرير من ذهب وهو متوج وقد أهدت به قبائل عاد، وهم في اللهو والطرب؛ فلم يشعروا إلا وهود (ع) قال يا قوم أعبدوا الله مالم يكن من إله غيره إن أنتم إلا مقفرون (١) وهذه الأصنام التي تعبدها هي التي أغرقت قوم نوح، ولستم أكرم على ربكم منهم؛ فاستغفروا ربكم من عبادة هذه الأصنام. والأصنام ترجى؛ فقال له ملكهم: ويحك يا هود، أقبل إلى - فتقدم إليه، فلما صار بين يدي الملك صاح صيحة أجابه الوحش والسباع: أبلغ ولا تخف. فأتت قلوب الناس خوفا، فقام إليه رجل منهم وقال: يا هود، صيف لنا إلهك. فوصف عظمة الله، وأنه (ع) ليس كشيء (٢) - وكان الذي سأله عمرو بن الحلي - فلما فرغ من كلامه قال له الملك: يا هود، أظن أن إلهك بقدر علينا وهذه كثرة جوعنا وشدة قوتنا؟ قال الله تعالى: (وَأولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) .

فأول من آمن بهود رجل من قومه يقال له جنادة بن الأصم وأربعون من بني عمه؛ ثم أنصرف إلى منزله .

فلما كان من الند أقبل جنادة وبنو عمه حتى وقفوا على جماعة من سادات قومه، فقال: يا قوم لا تمتنعكم مرارة الحق أن تقبلوه، ولا حلاوة الباطل أن تتركوه؛ وهذا ابن عمكم هود قد عرفتم صدقه، وقد أتاكم من عند الله رسولا وواعظا فاتقوا الله وأطيعوه . وحذروهم، فخصبوه وشموه، فرجع إلى هود .

(١) في (ج): « أقبل » .

فلما كان من الغد خرج هود فوقف عليهم وقال : يا قوم لا تبذلوا نعمة الله كفرا . وأخذ يعضهم ؛ فكذبوه وواجهوه بالقبائح ؛ فبقى على ذلك دهرًا طويلا يلاطفهم وهم على كفرهم وعتوهم ؛ فأعظم الله أرحام نساءهم ، فلم تحمل امرأة منهم ؛ فشكوا ذلك إلى الملك ، فأمرهم أن يخرجوا أصنامهم ويقربوا القرابين إليها ؛ ففعلوا ذلك ؛ فانهم هود وقال : يا قوم ألا تفزعون إلى الله الذي خلقكم وأعطاكم هذه النعمة والقوة ، فإنه يجيبكم إذا سألتموه ، ويزيدكم ملكا إلى ملككم وقوة إلى قوتكم وهو أن تقولوا معي : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإنى هود عبده ورسوله » وإن لم تفعلوا ذلك ضربكم الله بالنذل والنقمة ، وهبت عليكم الريح العقيم حتى تذرکم في دياركم هشيا . فلما سمعوا ذلك منه ضربوه حتى سال الدم على وجهه وهو يقول : « إلهي قد أبلنتُ وأندرتُ » .

وأقبل إلى هود بعد أنصرافه رجل من قومه يُعرف بمرند بن عاد ، وقال : يا هود ، إني قد جئتكَ في أمر ، فإن أخبرني به فانت رسول الله . قال له هود : يا مرند ، كنت البارحة تأتما مع زوجتك فواقعتها ، فقالت لك : أنظن أني قد حملت ؟ فقلت لها : إني صائر غدا إلى هود ، فإن أخبرني بهذا الكلام آمنتُ به . فقال مرند : أشهد أنك رسول الله حقا ؛ ولكن أخبرني هل حملت ؟ قال : نعم حملت بولدين ذكرين يكونان من أمتي ، سيخرجان من بطنها سليمين مؤمنين ؛ وستلد لك عشرة أبطن في كل بطن ذكران ، ويكونان من أمتي . فوثب مرند وقبل رأس هود وكان من خيار أصحابه ، وجعل مرند يقول :

من كان يصدق يوما في مقالته * فإن هودا رسول صادق القبل

نبي صدق أتى بالحق من حكم * وقد أتانا ببرهان وتزويل

فالحمد لله حمدا دائما أبدا * مضاعفا^(١) شكره في كل تفصيل

(١) مضاعفا بالصب : حال من الله .

ثم أنصرف مرثد إلى أسرته وأخبرها ، فأمنت ؛ وكان مرثد يكتم إيمانه ويخالس قومه ، فإذا سمعهم يذكرون هودا بسوء يقول : مهلا يا بني عم فإنه كاحدكم وابن عمكم .

قال : ثم اجتمعوا في مشقته لم يملكهم ونصبوا أصنامهم ؛ فأقبل هود عليهم وقال : يا قوم أعبدوا الله فإن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع . فقال الرؤساء من قومه : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَإِنَّا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنِ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذُنْكُمْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ ۝

فنادوه من كل ناحية : يا هود ﴿ أَجَعْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا مَا نَعْبُدُ ۚ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ ۝ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ ۝

وكان القوم يشتمونه ويضربونه ويدوسونه تحت أرجلهم حتى يظنوا أنه قد مات ، ثم يولون عنه ضاحكين ؛ فيقوم غير مكترث بفعلهم ؛ فلما أكثر عليهم ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ بِكَ بِمُؤْمِنِينَ ۚ ۝ إِن نَقُولُ إِلَّا اضْرَافُكُ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ ثُونِهِ فَيَكُونُوا جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ۚ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۚ ۝ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ۖ ۝ قَامَنَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ نُفِيلُ ۖ ۝

- قال : ولم يزل هود فيهم يحذرهم وينذرهم المذاب سبعين عاما ؛ فلما رأى أنهم لا يؤمنون دعا الله تعالى أن يطيحهم بالقحط ، فإن آمنوا وإلا يهلكهم بعذاب لم يهلك به أحدا قبلهم ولا بعدهم ؛ فاستجاب الله تعالى دعوته ، وأمره باعتزالهم بن معه من المؤمنين ، فأعترلهم فأمسك الله عنهم المطر ، وأجذبت الأرض ولم تثبت ومات عاقبة المواشي ؛ فصبروا على ذلك أربع سنين حتى يشأوا من أنفسهم ، وهموا أن يؤمنوا ؛ فنهاهم الملك عن ذلك وصبرهم ؛ فأجمعوا رأيهم أن يبعثوا رجلا منهم إلى الحرم يستسقون لهم ؛ والله الفعّال .

ذكر خبر وفد عاد إلى الحرم يستسقون لهم

- قال وهب : فجمعوا الهدايا ، وأختاروا سبعين رجلا من أشرفهم ، وجعلوا لكل عشرة منهم رئيسا ، من جملةهم مرثد المؤمن ؛ فسار وهو يدعو عليهم ؛ فلما أشرقوا على الحرم إذا بهاتف يقول :

قبح الله قوم عاد وذُلُّوا * إن عادا أشرف أهل الجحيم

سيروا الوفد كي يسقوا غانا * فسيسقون من شراب الحميم

- فدخلوا الحرم والملك يومئذ معاوية بن بكر ، وكانوا أخواله ، فسألهم عما جاء بهم فأخبروه بخبر هود وبما حل بهاد ، وأنهم قد لجأوا إلى الحرم للاستسقاء ؛ فأنزلهم معاوية في منزل الضيافة ، وأطعمهم وسقاهم شهرا ؛ فشغلهم اللهو عن الاستسقاء ؛ فبلغ الملك (الخلجان) ذلك ، فبعث إلى معاوية يسأله أن يأمرهم بالاستسقاء ، فكره مواجهتهم بذلك فيقولون : « قد تبرم بضيافتنا » فدعا بالجرادتين — وهما قيتان لمعاوية — فقال لهما : إذا شرب القوم ودب فيهم الشراب فنتيأهم بهذه الأبيات ، وهي :

- بابي من خلق أخلد * قى بنى سام وحام

سادة سادوا جميع ال * خلق في الخلق التمام

نَصَبَ الدهر عليهم * حَرَبَهُ دُونَ الأَنَامِ
فَسَقَى الله بَنِي عَا * دَ مِنَ الصَّوْبِ النَّعَامِ
فَأَجَابَهُمَا رَجُلٌ مِنَ الْوَفْدِ يَقَالُ لَهُ الْجَعْدُ بْنُ الْقَيْلِ :

عَلَيْنَا - زَاكَ الْآءُ * هُ - بِأَكْوَابِ الْمُدَامِ
وَبِمَاءٍ فَأَمْرُجِيهَا * تَسْتَرِيحِي مِنْ مَلَامِ

فلما لم يكثرثوا بالصوت الأول قالت :

أَلَا يَأْقِيلُ وَيَحْكُمُ قَمُ فُهَيْمٌ * لَمَلَّ اللهُ يَمْنَحُكُمْ عَمَامَا

عَمَامَا صَوْبِيهَا هَظْلٌ مَغِيثٌ * يُرَوِّى السَّهْلَ طُرَا وَالْإِكَامَا

مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ نَرْجُو * بِهَا الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا الْغَلَامَا

وَقَدْ كَانَتْ نَسَاؤُهُمْ بِخَيْرٍ * فَقَدْ أَمَسَتْ نَسَاؤُهُمْ عِيَامَا ^(١)

وَأَنَّ الْوَحْشَ تَأْتِيهِمْ جَهَارَا * وَلَا تَخْشَى لِعَادَى سَهَامَا

وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا أَشْتَهَيْتُمْ * نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ التَّمَامَا

فُجِّبْ وَفِدْكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ * وَلَا لَقَوْا الْحَيَّةَ وَالسَّلَامَا

أَفِيقُوا أَيُّهَا الْوَفْدُ السُّكَارَى * لِقَوْمِكُمْ فَقَدْ أَحْضَوْا هِيَامَا

فَقَدْ طَالَ الْمَقَامُ عَلَى سُرُورٍ * أَلَا يَأْقِيلُ وَيَكْ ذَرِ الْمُدَامَا

قال : فَأَتَيْتُهُ النَّاسُ وَقَامُوا فَأَغْتَسَلُوا وَلَبَسُوا ثِيَابًا جَدُّدًا ، وَكَبَّوْا الْبَيْتَ

بِالْكِسْوَةِ الَّتِي حَمَلُوهَا لَهُ ، فَعَمِلَ يَنْفِضُهَا ، فَقَالَ مَرْنَدُ : يَا قَوْمُ ، إِنَّ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ

لَا يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ إِلَّا مِنْ مُؤْمِنٍ ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا يَهُودَ ؟ فَقَالُوا : يَا مَرْنَدُ :

إِنَّ كَلَامَكَ يَدُلُّ عَلَى إِيمَانِكَ بِهِ ، وَنَحْنُ لَا تُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا .

فَانْشَأُ يَقُولُ :

(١) هَيْمٌ ، أَيْ أَدْعَى اللهُ . (٢) عِيَامَا ، أَيْ شِدِيدَاتُ انْتِهَاءٍ إِلَى الْبَيْتِ .

أَرَىٰ عَادًا تَمَادَىٰ فِي ضَلَالٍ * وَقَدْ عَدَلُوا عَنِ الْأَمْرِ الرَّشِيدِ
بِمَا كَفَرَتْ بِهِمْ جِهَارًا * وَحَادُوا رَغْبَةً عَنِ دِينِ هُودٍ
فَاجْتَمَعُوا بِسُتُقُون، فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ :

- يَا رَبِّ عَادٍ أَسْقَيْنَ عَادًا * إِنَّكَ حَقًّا تَرْحِمُ الْعِبَادَا
فَاسِقِ الْبَاسِتَيْنِ وَذِي الْبِلَادَا * أَجْوَادٌ غِيثٌ تَتَّبِعُ الْعِبَادَا^(١)
• وَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِمَا حَضَرَهُ مِنْ ذَلِكَ . ثُمَّ تَكَلَّمَ مُرْتَدُّ بْنُ سَعْدٍ —
وَهُوَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ — وَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّا لَمْ نَأْتِكَ إِلَى حَرَمِكَ إِلَّا لِأَرْضِ
تَسْقِيهَا ، أَوْ أَمَةٍ تَحْيِيهَا .

- فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَىٰ مَلِكِ السَّحَابِ أَنْ يَنْشُرْ لَهُمْ ثَلَاثَ غَمَامَاتٍ : بَيْضَاءَ وَحُمْرَاءَ
وَسُودَاءَ ، وَجَعَلَ السُّودَاءَ مَشُوبَةً بِغَضْبِهِ ، فَأَرْتَفَعَتِ الْبَيْضَاءُ ، وَتَبَعَتْهَا الْحُمْرَاءُ
خَلْفَهُمَا السُّودَاءُ ، فَأَرْتَفَعَتْ حَتَّى رَأَى الْوَفْدَ جَمِيعَ الْغَمَامَاتِ ؛ فَفَرَحُوا وَأَسْتَهْشَرُوا
ثُمَّ نُوْدُوا : يَا قَيْلُ ، اخْتَرْ لِقَوْمِكَ مِنْ هَذِهِ السَّحَابِ . فَنَظَرَ فَقَالَ : أَمَّا الْبَيْضَاءُ فَإِنَّهَا
جَهَامٌ لَا مَاءَ فِيهَا ؛ وَأَمَّا الْحُمْرَاءُ فَإِنَّهَا لِعَصْبَارٍ رِيحٌ . فَأَخْتَارَ السُّودَاءَ . فَنُوْدَى :
يَا قَيْلُ ، اخْتَرْتَ رَمَادًا أَرْمَدًا ، لَا يَبْقَى مِنْ قَوْمٍ عَادٍ أَحَدًا ، إِلَّا تَرَاهُمْ فِي الدِّيَارِ مُتَمَدِّدًا .

- ١٥ ذَكَرَ إِرْسَالُ الْعَذَابِ عَلَى قَوْمِ هُودٍ
قَالَ : وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى (مَلِكِ) خَازِنِ جَهَنَّمَ أَنْ يَقْبِضَ عَلَى سُلَاسِلِ السُّودَاءِ
وَلِيَكُنْ عَلَيْهَا أَلْفٌ مِنَ الزَّبَانِيَةِ .
قَالَ كَسْبٌ : إِنَّ هَذِهِ السُّلْسِلَةَ تُحْمَسَتْ فِي سَبْعِينَ وَاثِنًا مِنْ أَوْدِيَةِ الزَّمْهَرِيرِ
وَلَوْلَا ذَلِكَ لَذَابَتْ الْجِبَالُ مِنْ حَرِّهَا .

- ٢٠ (١) تَمَادَى - أَيْ تَمَادَى .
(٢) الْأَجْوَادُ : الْأَمْطَارُ الْغَزِيرَةُ ، الْوَاحِدُ جَوْدٌ يَنْجُو الْجِيم .

ففتت الزبانية السلاسل ، وجعلت السحابة ترمي بشر كالجبال ، وخرجت عليهم من واد يقال له : (وادي النيث) فنظروا إليها فقال بعضهم لبعض : (هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرًا) قال الله تعالى : (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا) .

• وأخرج القوم أصنامهم ونصبوها على أسرتها ، فأمر الله تعالى خازن الريح العقيم أن يفتح بعض أطباقها ، فأطلقت نائفة أجنتها بعدد قبائل عاد ؛ فلما عاينوا الملائكة يطوفون حول السحاب يتقنوا العذاب ، فادخلوا النساء والولدان في الحصون وخرجوا ونشروا أعلامهم وأوتروا قسيهم ، وأفرغوا السهام بين أيديهم ، والرياح ساكنة تنظر أمر ربها ، وهود قائم ينذرهم العذاب ، وهم يقولون : ستم ياهود من أشد منا قوة وبطشا . حتى إذا كانت صبيحة الأربعاء ، خرجت الريح عليهم ١٠ في يوم نحس مستمر ، فكانت في اليوم الأول شباء ، فلم تترك على وجه الأرض شيئا إلا نسفته نسفا ، وفي اليوم الثاني صفراء ، فأقلعت الأشجار ، وفي اليوم الثالث حمراء ، فدمرت كل شيء مّرت عليه ؛ فلم يزل يجري في كل يوم لون والنساء ينظرن إلى فعلها بقومهن ، فجعلن يقان شعرا :

١٥ ألا قد ذهب الدهر * ربعمرو ذى العليات
وبالحارث والقمعا * م طَلَّاعِ التَّيَّاتِ
ومن سَدَّ مَهَبَ الرِّيد * ح في وقت اللَّيَّاتِ

وأسقرت الريح (سبع لَيَالٍ وَتَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا) ، أى دائمة ؛ فلما كان في اليوم الثامن أصطلقت القوم صفوفا ، كل واحد إلى جنب أخيه ، وهم عشرة صفوف ؛ فجعل ملكهم الخليلان يشجعهم ويقول : ٢٠

ما يَأْتِي عَادَ الْيَوْمَ خَائِفِينَ ؟ = أَمِنْ مَهَبَ الرِّيحِ يَمِزَعُونَا ؟

لقد خشيت أن يكونوا دوناً * إن البنين تُعِيبُ البيننا

هذا والريح تمزقهم، فكانت تدخل في ثوب الرجل فتحمله في الهواء، ثم ترميه على رأسه ميتاً . قال الله تعالى : ﴿ كَانَتْهُمْ أَشْجَارُ تَحْمِلُ مُمْقِرًا ﴾ .

- فلم يبقَ منهم إلا الملك أخوه الله تعالى ليرى مصارعَ قومه ، وهو يردُّ الريح بصدوره ، بغضت الريح فدخلت من فيه ونجرت من دبره ، فأتت ، ثم صرَّت الريح نحو الوفد، فغلبتهم من الأرض إلى الهواء ، فألقتهم على وجوههم ، فأتوا عن آخرهم . قال : وهو دُ في حظيرة بمن معه من المؤمنين لا يصيبهم منها إلا ما تلين له الجلود . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

١٠

قال : وأرثمل هود ومن معه من أرض عاد إلى الشحر من بلاد اليمن ، فترلوا هناك حولين ، ثم مات .

ويقال : إنه دفن بأرض (حضرموت) ، والله أعلم .

ذكر خبر مرثد ولفهان

- ١٥ قال : ونرج من وفد عاد مرثد ، ولفهان بن عاد ، فدخلوا مكة مفتردين ، فدعوا الله تعالى لأتسهما ؛ فقبل لهما : قد أعطيتما منّا كما ، فأختارا لأنفسكما ، إلا أنه لاسيل إلى الخلود . فقال مرثد : اللهم أعطني براً وصدقا . فأعطى ذلك . وقال لِفْهَانُ : « يَا رَبِّ عُمْرَا » . فقبل له : أحقر لنفسك بقاء سبع بقرات صفر عُمْرُ

(١) كذا ورد هذا الشطر في إحدى نسخ (نصص الأنبياء الكسائي) المتول عنه هذا الكلام . والله

في الأصول : = يا آل عاد أيكم جنونا = وقوله : « أيكم جنونا » غير مستقيم الإعراب كما هو ظاهر .

٢٠

في جبل وعمر، لا يمتن دُعر، وإن شئت بقاء سبع نوايات من تمر، مستودعات في صخر، لا يمتن ندى ولا قطر؛ وإن شئت بقاء سبعة أنسر كلنا هلك نسر أعقب من بعده نسر. فأختار الأسر، فكان يأخذ الفرخ منها حين يخرج من بيضته، فإذا مات أخذ غيره، فكان كل نسر يعيش ثمانين سنة، حتى آتته إلى السابع، فكان آخرها ليد؛ فلما مات ليد مات معه لقان، وهو لقان النور.

ونصل هذا الباب بخبر (إرم ذات اليماء)، وقصة شديد وشداد.

ذكر خبر (إرم ذات اليماء) وقصة شديد وشداد بنى عاد

قد ذكرنا خبر (إرم ذات اليماء) فيما تقدم من كتابنا هذا على ميل الاختصار وذلك في (الباب الثالث من القسم الخامس من الفن الأول في المباني القديمة) وهو في السفر الأول من هذه النسخة؛ ورأينا إيرادَه في هذا الباب بما هو أبسط من ذلك لتعلقه به.

قال الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْيَمَاءِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ).

روى أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي في كتابه المترجم (ببواقيت اليان في قصص القرآن) عن منصور عن صفيان عن أبي وائل أن رجلا يقال له: (عبد الله بن قلابه) خرج في طلب إبل له قد شردت، فبينما هو في بعض صحارى عدن في تلك القلوات، إذ وقف على مدينة عليها حصن، حول ذلك الحصن قصور كثيرة وأعلام طوال؛ فلما دنا منها ظن أن فيها من يسأله عن إبله فلم يردا خلا فيها ولا خارجا منها، فترل عن ناقته وعقلها، وسل سيفه، ودخل من باب الحصن، فاذا هو بيايين عظيمين لم يرق في الدنيا أعظم منهما ولا أطيب راحة.

- وإذا خشبهما من أطيب عُود ، وعليهما نجوم من ياقوت أصفر وياقوت أحمر ضوئهما قد ملأ المكان ؛ فلما رأى ذلك عجب ، ففتح أحد البابين ، فإذا هو بمدينة لم ير الراعون مثلاً قط ، وإذا هو بقصور تتلاق ، تحتها أعمدة من زبرجد وياقوت وفوق كل قصر منها عُرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وعلى كل باب من أبواب تلك القصور مصراع كمصراع باب المدينة من عُود طيب ، قد نُصِّدَتْ عليه اليواقيت ؛ وقد قُرِشَتْ تلك القصور باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران ولم يَرِ هنالك أحداً ، فافزع ذلك ، ثم نظر إلى الأزقة فإذا في كل زقاق منها أشجار قد أثمرت ، تحتها أنهار تجري ؛ فقال : هذه الجنة التي وصفها الله تعالى لعباده في الدنيا الحمد لله الذي أدخلني الجنة . فحمل من لؤلؤها وبنادق المسك والزعفران
- ١٠ ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها ولا ياقوتها لأنها كانت مشبكة في أبوابها وجدرانها وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران متثورة بمنزلة الرمل في تلك القصور والغرف ؛ فأخذ منها ما أراد ، ونخرج ؛ ثم سار يقفو أثر ناقته حتى رجع إلى اليمن ، فأظهر ما كان معه ، وأعلم الناس بخبره ، وباع ذلك اللؤلؤ ، وكان قد أصغز وتغير من طول الزمان الذي مرَّ عليه ، ففشا خبره وبلغ معاوية ، فأرسل رسولا إلى صاحب
- ١٥ (صنعاء) ، وكتب بإشخاصه ، فسار حتى قدم على معاوية ، فخلا به وسأله عما عاين ؛ فقص عليه أمر المدينة وما رأى فيها ؛ فاستعظم ذلك ، وأنكر ما حدث به ، وقال : ما أظن ما يقول حقاً . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، معي من متاعها الذي هو مفروش في قصورها وغرفها وبيوتها . قال له : ما هو ؟ قال : اللؤلؤ والبنادق . فشم البنادق فلم يجد لها ريحا ؛ فأمر ببنفقة منها فدُقت ، فسطع ريحها مسكا وزعفرانا ؛ فصَدَّقَه عند ذلك ؛ ثم قال معاوية : كيف أصنع حتى أسمع باسم هذه
- ٢٠ المدينة ولن هي ومن بناها ؟ والله ما أعطى أحد مثلاً أعطى سليمان بن داود

وما أظن أنه كان له مثل هذه المدينة . فقال بعض جلسائه : ما تجد خبر هذه المدينة إلا عند (كعب الأحبار) فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إليه ويأمر بإشغافه وينيب عنه هذا الرجل في موضع ويسمع كلامه منه وحديثه ووصف المدينة حتى يتبين أمر هذه المدينة فعلى ، فإن كعبا سيخبر أمير المؤمنين بجهرا وأمر هذا الرجل إن كان دخلها ، لأن مثل هذه المدينة على هذه الصفة لا يستطيع هذا الرجل دخولها ، إلا أن يكون سبق في الكتاب دخوله إليها فيعرف ذلك .

فأرسل معاوية إلى (كعب الأحبار) وأحضره ثم قال له : يا أبا إسحاق أتى دعوتك لأمر رجوت أن يكون علمه عندك . فقال له : يا أمير المؤمنين "على الجبر سقطت" فسلني عما بدا لك . فقال له : أخبرني يا أبا إسحاق ، هل بلغك أن في الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة ، عملها زبرجد وياقوت ، وحصا قصورها وغرفها اللؤلؤ ، وأنهارها في الأزقة تحت الأشجار ؟ قال : والذي نفس كعب بيده لقد ظننت أن سائسداً^(١) يئني قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة وما فيها ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين ولن هي ، ومن بناها .

أما المدينة فهي حق على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وصفت له .

وأما صاحبها الذي بناها فشداد بن عاد .

وأما المدينة فهي إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد .

فقال له معاوية : يا أبا إسحاق ، حدثنا بحديثها — يرحمك الله — . فقال كعب :

نعم يا أمير المؤمنين ، إن عادا كان له آبنان يسمى أحدهما « شديدا » والآخر « شدادا » ، فهلك عاد ، فبقيا وملكا وتجزأ ، فقهرأ أهل البلاد ، وأخذها عتوة

(١) كنى بتوسد يجه عن دفعه بعد الموت . وفي الأصل : « شيئا توسد » .

- وقسرا ، حتى دان لهما جميع الناس ، فلم يبق أحد من الناس في زمانهما إلا دخل في طاعتها ، لا في شرق الأرض ولا في غربها ؛ وإنهما لما صفا لهما ذلك وقبرا قرارهما مات شديد بن عاد ، وبقى شَدَاد ، فلك وحده ، ولم يَنَازعه أحد ودانت له الدنيا كلها ؛ فكان مولعا بقراءة الكتب القديمة ، وكان كلما مر فيها بذكر الجنة دعت نفسه لتعجل تلك الصفة لنفسه الدنية عتوا على الله وكفرا ؛ فلما وقر ذلك في نفسه أمر بصنعة تلك المدينة التي هي إرم ذات العماد ، وأمر على صنعها مائة قهرمان ، مع كل واحد ألف من الأعوان . ثم قال : انطلقوا إلى أطيب فلاة من الأرض وأوسمها ، وأعملوا فيها مدينة من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ ، تحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد ، وعلى المدينة قصور ، من فوق القصور غرف ، ومن فوق الغرف غرف ، وأغرسوا تحت القصور غروسا فيها أصناف الثمار كلها ، وأجروا فيها الأنهار حتى تكون تحت تلك الأشجار جارية ، فأتى أسمع في الكتب صفة الجنة ، وإنى أحب أن أتخذ مثلها في الدنيا ، أتعجل سكاها . فقال له قهارته : كيف لنا بالقدرة على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة فبنى منها مدينة كما وصفت لنا ؟ فقال لهم شَدَاد : ألسن تعلمون أن ملك الدنيا كلها بيدي ؟ فقالوا : بلى . قال : انطلقوا إلى كل موضع فيه معدن من معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة ، وكلفوا من كل قوم رجلا يُخرج لكم ما في كل معدن من تلك الأرض ؛ ثم أنظروا إلى ما في أيدي الناس من ذلك نخدود ، سوى ما ياتيكم به أصحاب المعادن ، فإن معادن الدنيا فيها كثير من ذلك ، وما فيها مما لا تعلمون أكثر وأعظم مما كلفتم من صنعة هذه المدينة .
- قال : فخرجوا من عنده ، وكتب معهم إلى كل ملك من ملوك الدنيا يأمره أن يجمع لهم ما في بلده من الجواهر ، ويحفر معادنها ؛ فأنطلق القهارمة ، وبعث الكتب

إلى الملوك بأخذ كل ما يحدونه في أيدي الناس عشرين من الزبرجد والياقوت واللاؤلؤ والذهب والفضة، ويعثون بذلك إلى ضلة إرم ذات العباد. وخرج الفعلة يطلبون موضعاً كما وصفه لهم شداد.

فقال معاوية : يا أبا إسحاق ، كم كان عدد أولئك الملوك الذين كانوا تحت يد شداد؟ قال : كانوا مائتين وستين ملكاً .

قال : فخرج عند ذلك الفعلة والقهارمة ، فتفرقوا في الصحارى ليجدوا ما يوافق غرضه ، فوقعوا في صحراء عظيمة تقية من الجبال والتلال . وإذا هم بعيون مطردة فقالوا : هذه صفة الأرض التي أمرنا بها ، فأخذوا منها بقدر ما أمرهم به من العرض والطول ، ثم عمدوا إلى مواضع الأزقة فأجروا فيها قنوات الأنهار ، ثم وضعوا الأساس من صخور الجمرع اليماني ، وعجنوا طين ذلك الأساس من دهن البان والمحلب ، فلما فرغوا من وضع الأساس بُعث بالعمد والذهب والفضة من جهة الملوك ، فسلموها الوزراء والقهارمة ، وأقاموا حتى فرغوا من بنائها على ما أراد شداد .

فقال معاوية : يا أبا إسحاق ، إني لأحسبهم أقاموا في بنائها زمناً من الدهر . قال : نعم يا أمير المؤمنين . إني لأجد في التوراة مكتوباً أنهم أقاموا في بنائها ثلاثمائة سنة . فقال معاوية : كم كان عمر شداد ؟ فقال : سبعمائة سنة . فقال

معاوية : لقد أخبرتنا عجبا ، فحدثنا . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما سمعنا الله تعالى إرم ذات العباد التي لم يُخلق مثلها في البلاد ، للعمد التي تحتها من الزبرجد والياقوت وليس في الدنيا مدينة من الزبرجد والياقوت غيرها ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ لَمْ يَخْلَقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ .

وقال كعب : إنهم لما أتوه فأخبروه بفراغهم منها قال : انطلقوا وأجعلوا عليها حصناً ، وأجعلوا حول الحصن ألف قصر ، عند كل قصر ألف علم ، ويكون في كل

قصر وزير من وزرائي، ويكون كلِّ علمٍ عليه ناطور . فرجعوا فعملوا تلك القصور والأعلام والحصن ؛ ثم أتوه فاخبروه بالفراغ مما أمرهم به .

- قال : فأمر شتاد ألف وزير من خاصته أن يتيقوا أسبايهم ، ويعزلوا على النقلة إلى إرم ذات البهادر ، وأمر رجالا أن يسكنوا تلك الأعلام ويقيموا فيها ليلاهم ونهارهم ، وأمر لهم بالبطء والأرزاق ، وأمر من أراد من نسائه وخدمه بالجهاز إلى إرم ذات البهادر ؛ فاقاموا في جهازهم عشرين سنة ؛ ثم سار الملك شتاد بن عاد بمن أراد ، وتحلف من قومه في عددٍ من أمره بالمقام بها .

- قال : فلما استقلَّ وسار إليها ليسكن فيها ، وبلغ منها موضعا بقي بينه وبين دخوله إليها مسيرة يوم وليلة ، بعث الله تعالى عليه وعلى من كان معه صيحة من السماء ، فأهلكهم جميعا ، ولم يبق منهم أحد ، ولم يدخل شتاد ولا من كان معه إرم ذات البهادر ، ولم يقدر أحد منهم على الدخول فيها حتى الساعة .

- فهذه صفة إرم ذات البهادر ، وأنه سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك ويرى ما فيها ، فيحدث بما عاين ، ولا يُسمع منه ولا يصدق . فقال معاوية : يا أبا إسحاق ، فهل تصنع لنا ؟ قال : نعم ، هو رجل أحمر أشقر قصير ، على حاجبيه خال ، وعلى عقيقه خال ، يخرج في طلب إبل له نذت في تلك الصحارى فيقع على إرم ذات البهادر ، فيدخلها ويحمل مما فيها . والرجل جالس عند معاوية . فالتفت كعب فرأى الرجل ، فقال : هو هذا يا أمير المؤمنين قد دخلها ، فأسأله عما حدثتك به . فقال معاوية : يا أبا إسحاق ، إن هذا من خدعي ، ولم يفارقني . قال كعب : قد دخلها وإلا سوف يدخلها ، سيدخلها أهل هذا الدين في آخر الزمان . قال معاوية : يا أبا إسحاق ، لقد فضلك الله على غيرك من العلماء

ولقد أُعْطِيَ من علم الأولين والآخرين ما لم يُعطه أحد . فقال : وألذي نفس
كعب بيده ، ما خلق الله تعالى في الأرض شيئا إلّا وقد فسّره في التوراة لعبيده موسى
نفسيرا ، وإن هذا القرآن أشدّ وعيدا (وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا) والله الهادي للصواب .
قال أبو إسحاق التلميذ - رحمه الله تعالى - وقال الشعبي : أخبرنا دَغْفَلُ
الشيثاني عن رجل من أهل (حضرموت) يقال له : يَسْطام ، أنه وقع على حفرة
شقاد بن عاد في جبل من جبال حضرموت مطّل على البحر .

قال : وكنت أسمع من صباى إلى أن أكثمتُ بمغارة في جبل من جبالنا
بحضرموت وهيبة الناس لدخولها ، فلم أحتفل بما كنت أسمع من ذلك ؛ فبينما أنا
في نادى قومى إذ تناشدوا حديثَ تلك المغارة وأطنبوا في ذكرها ووصفوا موضعها ؛
فقلت لقومى : إني غير متته حتى أدخلها ، فهل فيكم من يساعدنى ؟ فقال قى
منهم حدث السن : أنا أصاحبك . فقلت : يا بن أُمى ، أو تجسر على ذلك ؟
قال : عندى ما عند أشدّ رجل من رباطة الجأش وشدة القلب . فهيا نأخذ
وحملنا معنا إداوة عظيمة مملوءة ماء وطعاما مقدار ما قدرنا على حمله ؛ ثم مضينا
نحو ذلك الجبل الذى فيه المغارة - وكان مشرفا على المكان الذى يركب أهل
حضرموت منه البحر - فلما أتينا إلى باب المغارة حزمنا علينا ثيابنا ؛ وأضطنا
الشمعة ؛ ثم ذكرنا الله تعالى ، ودخلنا ومعنا تلك الإداوة وذلك الطعام ، فإذا
بمغارة عظيمة عرضها عشرون ذراعا ، وطولها حلوا نحو خمسين ذراعا ؛ فشيننا
فيها هونا في طريق أملس مستو ، ثم أفضينا إلى درجات عالية عرض الدرجة
عشرون ذراعا في تَمَكّ عشر أذرع ، فحملنا أنفسنا على نزول تلك الدرجات
فقلت لصاحبي : هلم ، إلى يدك . فكنت أخذ بيده حتى يزل ، فإذا زل وقام
في الدرجة تَلَقَّطَ بطرف الدرجة وقبِضْتُ حتى تنال رجلاى منكبيه ؛ فلم زل

٥

١٠

١٥

٢٠

(٢٩)

- كذلك وذلك دأبنا عاقبة يومنا ، حتى نزلنا ذلك الدَّرَجَ وكانت مقدار مائة درجة ؛ فأفضيتا إلى أَزَجٍ عظيمٍ محفورٍ في الجبل ، في طول مائة ذراع ، في عرض أربعين ذراعا ، وستمكة في السماء نحو مائة ذراع ، وفي صدره سرير من ذهب مفصَّص بأصناف الجواهر ، وفوقه رجل عظيم الجسم ، قد أخذ طولَ هذا الأَزَجِ وعرضه وهو مضطجع على ظهره كهيئة النائم ، وعليه سبعون حلة بمقدار طولهِ وعرضه .
- منسوجة تلك الحلال بقضبان الذهب والفضة ، وإذا في ذلك الأَزَجِ قُبَّ عرضه ذراعان ، وارتفاعه ثلاث أذرع ، خارج إلى فضاء لم ندر ما هو ، وإذا على رأس السرير لوح من ذهب ، فيه كتاب بالمُسْنَد — وهو كتاب عادٍ كانت تكتبه في زمانها — محفور ذلك الكتاب في اللوح حفرا ؛ فقلعناه ودنونا من الرجل ففسنا تلك الحلال فصارت رميا ، وبقيت قضبان الذهب قائمة ، بجمعناها وكانت مقدار ١٠ مائة رطل ، فحملناها في أَزْرَتَا ، وأردنا قلع شيء من تلك الجواهر المفصَّص بها السرير ، فلم نقدر عليه لوثاقته ، فتركناه ؛ وهيم علينا الليل ، ونحن في ذلك الأَزَجِ وعرفنا ذلك بنهاب ذلك الضوء الذي كان يدخل من ذلك الثَّقب ، فبنينا ليلتنا في ذلك الأَزَجِ ، وطَفَئَتِ الشمعة التي كانت معنا ؛ فلما أصبحنا قلت لصاحبي :
- ١٥ ماترى ؟ قال : أما الرجوع من حيث جئنا فلا سبيل إليه ، لارتفاع الدَّرَجِ ، وأنا لا نستطيع صعودها ، لا سبيها والشمعة قد طَفَئَت ، ولكن هلمْ لنزلم هذا الضوء الذي نراه في هذا الثَّقب ، فإني أرجو أن يخرج بنا إلى الفضاء إن شاء الله تعالى .
- فقلت له : لعمري إنَّ هذا هو الرأى .

- قال : فأطلقنا بما معنا من تلك القضبان من الذهب ، وحملناها مع ذلك اللوح الذهب الذي كان عند رأس السرير ، ومشيئا في ذلك الثَّقب تبع ذلك الضوء ، فلم نزل نمشي فيه في طريق ضيق مقدار مائة ذراع حتى خرجنا منه إلى
- ٢٠

كهف في ذلك الجبل كهية الحائط، وقد حَفَ بذلك الكهف البحر؛ فإسنا
على باب ذلك الثقب ثلاثة أيام تتمون بقية ما كان معنا من الماء والطعام؛ فلما كان
في اليوم الرابع نظرنا إلى مركب قد أقبل في البحر فلوحنّا إلى مَنْ فيه، فأرسلوا
إينا القارب، ففرلنا من باب ذلك الثقب نزولا شاقّا حتى وثبنا إلى القارب بما
معنا، ثم خرجنا من البحر فقسّمنا ذلك الذهب بيننا، وصار ذلك اللّوح إلى قِسْطى .

قال : ثم إنّ أنفسنا دعّتنا إلى العودة إلى ذلك السّرَب ممّا على الثقب من جهة
البحر، فركبنا قارباً وسرنا في البحر نحو المكان الذى كنّا فيه، ففرلنا منه، فغفى علينا
فعلّمنا أنّا لم نُرزَق من ذلك المكان إلّا ما أخذناه، فرجعنا .

قال : ومكث ذلك اللّوح عندى حولا وأنا لا أجد من يقرؤه ، حتى أنّا
رجل حميرى من أهل صنعاء كان يُحسن قراءة تلك الكتابة ، فأخرجتُ إليه اللّوح
فقرأه، فإذا فيه مكتوب هذه الأبيات :

اعْتَبِرْ بِي أَهْمَا الْمَغْدُورُ بِالْعَمْرِ الْمَدِيدِ
أَنَا شَدَادُ بْنُ عَادٍ * صَاحِبُ الْحَصَنِ الْعَتِيدِ
وَأَخُو الْقِسْوَةِ وَالْبَا * سَاءَ وَالْمُلْكُ الشَّدِيدِ
وَبِفَضْلِ الْمُلْكِ وَالْمُدَّةِ فِيهِ * وَالْعَدِيدِ
دَانِ أَهْلُ الْأَرْضِ طَرّاً * لِيَ مِنْ خَوْفٍ وَعَيْدِ
وَمَلَكْتُ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ * بِبِسْطَانٍ شَدِيدِ
فَاتَى هُودٌ وَكُنَّا * فِي ضَلَالٍ قَبْلَ هُودِ
فَدَعَانَا - لَوْ قَلِينَا * - إِلَى الْأَمْرِ الرَّشِيدِ
فَمَصِينَاهُ وَنَادَيْ * نَا أَلَا هَلْ مِنْ عِيدِ
فَانْتَبَهْنَا صَبِيحَةَ نَهْ * بَوَى مِنَ الْأَثَقِ الْبَعِيدِ

•

١٠

١٥

٢٠

فَوَاقِنَا كَزَرْجٍ * وَصَطَّ بِيَدَاءَ حَصِيدٍ

وقد ساق أبو إسحاق التعليق أيضا هذه الآيات بهذا السند دون القصة في تفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) وفيها في البيت الرابع بدل قوله :
..... طرأ * لى من خوف وعيدى

دَانَ أَهْلَ الْأَرْضِ لى مِنْ * خَوْفٍ وَعَدَى وَوَعِيدَى

قال أبو إسحاق — رحمه الله — قال دَغَفَلَ الشَّيْئَانِي : سألت علماء حمير عن شَذَاد بن عاد، فقلت : إنه أصيب وكان قد دنا من إرم ذات المهاد، فكيف وُجِدَ سِلْوُهُ في تلك المفارقة وهي بمحض موت ؟ فقالوا : إِنَّهُ لَمَّا هَلَكَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ بالصيحة، ملك بعده مَرْتَدُ بن شَذَاد، وقد كان أبوه خلقه على ملكه بمحض موت قامر بجمل أبيه إلى حضرموت، فحُمِلَ مطلياً بالصبر والكافور، فأمر أن تُحْفَر له تلك المفارقة، وأستودعه فيها على ذلك السرير الذهب، والله تعالى أعلم .

هذا ما أورده — رحمه الله — من خبر إرم ذات المهاد وخبر شديد وشَذَاد بن عاد .
وقد ذكر في هذه الآيات هود النبي — عليه السلام — في قوله :

فَاتَى هُودٌ وَكُنَّا * فِي ضَلَالٍ قَبْلَ هُودٍ



الآيات الخمسة .

وقد تقدم في خبر هود وهلاك عاد بالريح المقيم ، أن ملكهم القائم بأمرهم في زمن هود كان اسمه الْخَلْجَان بن الوهم بن عاد، وأنه هلك بالريح المقيم إثر هلاك قومه، ولم يرد أنه آمن بالله تعالى ؛ وهذه الآيات تدل على ندم قائليها ؛ ومقتضى هذا السياق فيه دلالة على أن شَذَاد بن عاد هذا المذكور آنفاً، وأبنته مرتد بن شَذَاد وخبر إرم ذات المهاد، كان قبل مبعث هود — عليه السلام — والله تعالى أعلم .
ولنرجع إلى قصص الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام —

الباب السادس من القسم الأول من الفن الخامس

في قصة صالح — عليه السلام — مع ثمود وعقرهم الناقة وهلاكهم قال الكسائي : قال كعب : لما أهلك الله — عز وجل — عادا، جاءت ثمود وعمّرت الأرض، وكانوا بضع عشرة قبيلة، في كلّ قبيلة زيادة عن سبعين ألفا سوى النساء والنزّية، وكثروا حتى صاروا في عدد عاد وأكثر، وكانوا ذوى بطش وقوة وعجبر وكفر وفساد، وكانت منازلهم ما بين الحجاز إلى الشام، وهي ديار الحجر من وادي القرى، وكان ملكهم جندع بن عمرو بن عاد بن ثمود بن إرم بن سام ابن نوح .

وقيل في نسبه : إنه جندع بن عمرو بن عمرو بن الدمّيل بن عاد بن ثمود ابن عائذ بن إرم بن سام، وكانت طائفة ممن آمنّت بهود يذكرون له كيف أهلك الله قوم عاد بالريح العقيم، وكيف كانت سيرة هود فيهم؟ فيقول : إنما هلكت عاد لأنها لم تكن تشيد بنيانها : ولا تصنع آلهتها، وكان بنيانهم على الأحقاف التي هي الرمال، ونحن أشد قوة وبناء وبلاغا، ونحن نتخذ الجبال بيوتا فتفتحها في الصخر لئلا يكون للزّرع عليها سبيل، ونحن نعبد آلهتنا حق العبادة .

قال كعب : كانت قوة الرجل منهم أن يفتح في الجبل بيتا طوله مائة ذراع في عرض مثل ذلك، ويضربه بصفايح الحديد، ويطلق بابا من حديد مصمت لا يفتحته إلا القوى منهم، وكانت منازلهم أولا بأرض كوش في بلاد عالج، فانتقلوا إلى هذه البلاد لكثرة جبالها .

(١) في باقوت أن «عالج» رسال بن «فيد» «والقريات»، وهي متصلة «بالثنية» على طريق مكة؛

ظل هذا الموضع هو المراد هنا .

- قال : ثم أجمع كبارهم إلى ملكهم جندع ، وقالوا : نريد أن نتخذ لأنفسنا
الما تعبده ، لم يكن مثله لقوم عاد ولا قوم نوح . فاذن في ذلك ، ففتحوا صنما من
جبل يقال له : (الكتيب) وجعلوا وجهه كوجه الإنسان ، وعقنه وصدره كالبقرة
ويديه ورجليه كالخيل ، وضربوه بصفايح الذهب والفضة ، وعقدوا على رأسه
تاجا ، وورصعوه بالدر والجوهر ؛ فلما بكل خروا له سجدا ، وقربوا القران ، وأقبلوا
إلى الملك فقالوا له : أخرج إلى هذا الإله الذي أنعبنا أنفسنا في آتخاذ . فخرج
الملك إليه في زينة وأصحابه ؛ فلما رأوه خروا له سجدا ؛ ثم أمر الملك أن يتخذ له
بيت ، وأن يسقف بصفايح الذهب والفضة ، ويرصع بالجوهر ، وتفرش أرضه
بالديباج ، وأمر أن تتخذ لسائر الأصنام بيوت ، وأن يتخذ سرير من العاج والابنوس
على عرض البيت ، قوائمه من الفضة ، وأن تعلق فتاديل الفضة بسلاسل الذهب
وأمر أن يُصنع للبيت مصراعان في كل مصراع مائة حلقة من الذهب والفضة
ويعلق عليهما ستران ، وسماهما ستور العز ، ووضع الصنم على ذلك السرير ، وسائر
الأصنام الصغار على كراسي العاج والابنوس ؛ وأمر أن يُندب لخدمة الأصنام رجل
من أشرف قومه وأحسنهم وأنسبهم ؛ فقالوا : ليس في عمود أشرف نسباً وأجل
وجهاً من كانوا^(١) . فاستدعاه وقربه وتوجه وسّده ، وجعله على خدمة الأصنام ؛
فقبل ذلك ، وتفرغ لخدمتها وعبادتها ، وقوم عمود يعبدون ذلك الصنم ، وقد ازدادوا
عزاً وتجبّراً وكفراً وفساداً ، والله تعالى يزيدهم سعة وخصباً ، وهم يرون أن ذلك كله
من بركات أصنامهم .

(١) كذا ورد هذا الاسم في (تاريخ البصرة) في نسخة مقولة عن نسخة المؤلف مأخوذة بالصورة
النمسيّ محفوظه بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ . والذي في الأصل : « كانوا » في جميع
مواضعه .

ذكر ميلاد صالح - عليه السلام -

- قال : فبينما كانوه في بيت الأصنام إذ تحركت نطفة صالح في ظهره، وصار لها نور على عينيه، وسمع هاتفا يقول : (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) ألا بعدا ومحققا لعمود لكفرهم، وهذا صالح بن كانود يصلح الله به الفساد. ففزع من ذلك ، وذهب ليتقدم إلى الصنم الأكبر ، فتنطق بإذن الله وقال : مالي ومالك يا كانوه ، مثلك يخدمني وقد استنارت الأرض بنور وجهك للنور الذي في ظهرك ؟ ! ثم تنكس الصنم عن سريره ، فأعاده كانوه وأعوأته إلى السرير ، وبلغ الملك ذلك ، فأعتم له ، فقال له أصحابه : إن هذا لسوء خدمة كانوه فإنه لا يوقى الآلهة حقها في الخدمة . وهموا بقتله ، فأخفاه الله تعالى عن عيونهم ، فلما كان الليل هبط عليه ملك من السماء ، فأحمله وهو نائم ، وألقاه في وادٍ على أهدال من ديار قومه وهو لا يدري في أي موضع هو ، فنظر غارا في جبل هناك ، فدخله ليكنه من حر الشمس ونام ، فضرب الله على أذنه مائة سنة ، وفقدته قومه ، ونصبوا للخدمة أصنامهم رجلا منهم يقال له : داود بن عمرو ، فبينما هم كذلك وقد خرجوا في يوم عيد لهم إذ نطقت الأشجار بإذن الله وقالت : يا آل عمود ، ألا تمتبرون ، إن الله يخرج لكم في السنة من الثمار مرتين ، ثم تكفرون بنعمة ربكم وتعبدون سواء . ونطقت المواشي كذلك فعمدوا إلى الأشجار فقطعوها ، وعقروا المواشي ؛ فنطقت السباع ونادت من رموس الجبال : ويلكم يا آل عمود ، لا تقطعوا هذه الأشجار وتذبجوا هذه المواشي وقد نطقت بالحق . فخرجوا إلى السباع بالأسلحة وهي تهرب من أيديهم

(١) كما ورد هذا الاسم في (تاريخ اليمن) في نسخة منقولة عن نسخة المؤلف مأخوذة بالتصوير

الشمسي محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ . والذي في الأصل : (كانول) في جميع

وتستخيت بالله وتقول : اللهم طهر أَرْضك بنبيك صالح ، وأرض به الفساد . والقوم يسمون ذلك ويقولون : قد كفر هؤلاء بالهتنا .

- قال : وكان لكانوه في ديار قومه امرأة يقال لها : (رعوم) وهي كثيرة البكاء عليه منذ فقدته ؛ فبينما هي ذات ليلة وإذا بخراب تَمَقَّ ، فقامت لتنظر إليه ، فرأته على مثال الغراب ، ورأسه أبيض ، وظهره أخضر ، وبطنه أسود . وهو أحمر الرجلين والمتقار ، وأخضر الجناحين ؛ فقالت : أيها الطائر ، ما أحسنت ! فقال : أنا الغراب الذي بُعثُ إلى قابيل فأريته كيف يوارى سوء أخيه ، وأنا من طيور الجنة ، وإني أراك باكية حزينة . فقالت : إني فقدت زوجي منذ مائة عام . فقال : اتبعيني فأني أرشدك إليه . فتبعته ، وطويّت لها الطريق حتى وقَّفتها على باب النار ، وفادى الطائر : قم يا كانوه ، قم بقدرة الله . فقام ١٠ ودخلت إليه زوجته ، فواقصها ، فحملت — بإذن الله تعالى — بصالح . وقبض الله كانوه لوقته ؛ وعادت رعوم والغراب يدُلُّا على منزلها ؛ فلما أقضت مدة حملها ، وضعت في ليلة الجمعة من شهر المحرم ، فوقعت هزة شديدة في بلاد حمود لمولده ، ونحرت الوحوش والسباع ساجدة لله تعالى ، وأصبحت الأصنام وقد تنكست ؛ فأقبل داود وأخبر الملك بخبرها ؛ فجاء بأشراف ورفضوها على مراتبها ١٥ وأسرَّتها ، وتقدم الملك إلى الصنم الأكبر وقال : ما دهاك ؟ فناداهم إليّ منته : قد وُلد فيكم غلام يدعوكم إلى دين هود ليس عليكم منه بأس .

فخرج الملك ومن معه مستبشرين ؛

- ونشأ صالح ، حتى إذا بلغ سبع سنين أقبل على قومه وهو يقول : يا آل حمود ، تنكرون حَبِّي ونسبي ، أنا فلان بن فلان . فيقولون : إنك من أحسبنا ٢٠ وأنسبنا ؟ حتى إذا بلغ عشر سنين إذ أقبل عليهم ملك من أولاد سام ، كان يزوهم

في كل سبع سنين مرة فيسلب أموالهم؛ فوثب صالح إلى سيف أبيه وسلاحه ونرج يسدو، وإذا هو بالملك جندع وساندات قومه قد اجتمعوا، وقد أترع الملك منهم أموالهم، وهم لا يستطيعون دفعه عنها لكثرة جموعه؛ فصاح بهم صالح صيحة أزعجتهم، والتي آله الرعب في قلوبهم، واستنقذ منهم جميع ما أخذوه من قومه .

فغضب جندع وأصحابه منه، وأقبلوا يقبلون صالحا ويكرمونه؛ نفثى الملك على ملكه أن يزلوه ويولّوا صالح بن كانوا، فهم أن يقتله، ودس إليه جماعة من خواصه فدخلوا منزله، فأيس الله أيديهم عنه، وأخرس ألسنتهم؛ فلم الملك أنه معصوم، فبعث يسأله فيهم؛ فدعاهم، فأطلق الله أيديهم وألسنتهم، وبقي صالح مكرما معظما في قومه .

ذكر مبعثه — عليه السلام —

قال : ولما أتى عليه أربعون سنة بعثه الله — عز وجل — رسولا إلى قومه؛ بغاءه جبريل بالوحى عن الله، وأمره أن يدعوهم إلى قول ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ والإقرار بأن صالحا عبده ورسوله، وترك عبادة الأصنام، وأعلمه بما سيظهر على يديه من العجايب .

قال : فأقبل صالح إلى قومه في يوم عيد لهم وقد نصبوا أصنامهم واجتمعوا على ميثاقها، والملك جندع مشرف عليهم ينظر إليهم وإلى قريباتهم؛ فتقدم حتى وقف على الملك وقال : قد علمت نصحي لك أبدا، وقد جئتكم رسولا أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأتى صالح رسول الله . فقال الملك له : إن قبائل نمود لا ترضى أن يكون مثلك رسولا إليهم، غير أنني أنظر فيما تقول، فعد إلى غدا .

- ثم أصبح الملك ودعا بأشراف قومه، وأخبرهم بخبر صالح، فقالوا: أحضره حتى نسمع ما يقول. فاحضره فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ فقال له نفر منهم: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنَاهَا أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَنَاقِلِينَ شَكَّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ فقال له الملك: كيف خصك ربك بالرسالة من بيننا، ورفضك علينا وفي قبائل حمود من هو أعز منك؟ فقال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم قل: يا قوم اتقوا الله وأطيعوا، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنتُمْ تَكُونُونَ فِينَا هَاهُنَا آمِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخِيلٍ طَلْعُهَا هَضْبٌ﴾، أى لبن ﴿وَتَحْتَوْنَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا فَاوِهِينَ﴾ أى حاذقين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَادِقِينَ﴾.
- قال: فأقبل الملك عليهم وقال: قد عرقتم صالحا في حربه ونسبه، وأنا رجل متكبر؛ فما قولون؟ وما عندكم من الرأي في أمره؟ قالوا: أيها الملك ﴿إِنَّا لَنَاقِلِينَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكِتَابِ الْأَشْرُ﴾.
- قال: فأمن به منهم جماعة، وخرج صالح من عند الملك، فأمره الله تعالى أن يبنى مسجدا لنفسه ولبن معه من المؤمنين، فأعانتاه الملائكة على بنائه؛ فلما كمل جاءه جبريل بشجرة ففرسها على باب المسجد، وأتبع الله له عينا من الماء العذب.

وكان صالح يخرج في كل يوم إلى قبيلة من قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى ويعظهم بأيام عاد وما حل بهم فيقول ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضِيعُوا مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَسْمَوْنَ أَنَّ صَلَاحًا مُرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ﴾ فكان المستضعفون يقولون : ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ والمكبرون يقولون : ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنُكُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ .

ولم يزل صالح يدعوهم حتى استكمل سبعين عاما ؛ ثم أعظم الله نساءهم وجفت أشجارهم فلم تثمر ، ولم تضع لهم بقرة ولا شاة .

ثم لم يزل يدعوهم حتى استكمل مائة سنة وهم لا يزدادون إلا كفرا ؛ فلما آيس منهم خرج يريد أن يدعو عليهم بالهلاك ، وقال لقومه : لا تبرحوا حتى أعود إليكم . وقصد جبلا فطاف به حتى أمسى ، فنظر إلى عين ماء ، فتقدم وتوضأ وقام ليصلي ويدعو على قومه ، فرأى في الجبل كهفا ، فدخله فرأى فيه سريرا من الذهب ، عليه قُرْش الحرير ، وفي وسط الكهف قنديل ؛ فعجب من ذلك ، وصعد على السرير ، فضرب الله على أذنه فتام أربعين سنة ؛ وأخذ قومه في العبادة ؛ فكان يموت منهم الواحد بعد الواحد ، فيدفن إلى جانب المسجد ، ويكتب على قبره : « هذا فلان بن فلان » .

قال : ثم بعث الله - عز وجل - صالحا من نومه ، فخرج من الكهف وتوضأ وصلى ركعتين ، وأراد أن يدعو على قومه ؛ فقبل له : لا تعجل عليهم ، فإن عجلتك غيبتك عن قومك أربعين سنة .

فعاد إلى قومه ، وإذا برسوم وآثار لا يعرفها ، وأشرف على مسجده وهو تراب ليس فيه إلا الملائكة يحفظونه من فساق أهل ثمود ؛ فقال : إلهي ما فعل

أهل هذا المسجد ؟ فادته الملائكة : مات بعضهم ورجع الباقون إلى دينهم الأول
لما أسوا منك .

ثم أمره الله تعالى أن يأتي قومه ويدعوهم إلى عبادة الله والكف عن عبادة
الأصنام ؛ فأقبل وهم مجتمعون في يوم عيدهم ومعهم ملكهم ، فناداهم : قولوا
(لا إله إلا الله وإني صالح رسول الله) يا قوم إني أرسلت إليكم مرة وهذه
أخرى .

فتحبروا وتساقطت أصنامهم ، ونطقت النوايا : جاء الحق من ربنا . قال له
الملك : من أنت ؟ قال : أنا صالح . قل : أليس قد بقي صالح فينا طويلا وغاب
عنا منذ مدة طويلة ؟ ما أنت إلا ساحر جئتنا بعده . وهم يقتله .

وكان للملك ابن عم يقال له : هذيل ، فقال : يا صالح ، لا تحتاج إلى نصيحتي
فانصرف عتيا . فقال : يا هذا أما إنك ميت في يومك هذا أنت وأهلك وولدك
في وقت كذا وكذا ، وفي غد يموت أبوك وأهلك ، فبادر إلى الإيمان ، فإن آمنت
أحياك الله وجعلك حجة على قبائل ثمود .

فأنصرف الرجل وهم ينظرون إلى الوقت الذي ذكره صالح ؛ فلما جاء الوقت
مات الرجل وأهله وولده ، وانتشر الخبر في قبائل ثمود ، ومات أبوه وأخته من الغد ؛
فغضب الناس وجزعوا ، وخاف الملك .

وأقبل صالح فقال : يا آل ثمود ، كيف كان هذا الميت عنكم ؟ قالوا : خير
رجل حتى مات . قال : فإن أحياء الله بدعائي ، أتؤمنون بي وبإلهي وتبرأون من
أصنامكم ؟ قالوا : نعم . فجاء صالح إلى الميت فدعا ربه ، ثم ناداه بأسمه فقال : ليك
يا نبي الله ، وقام وهو يقول : (لا إله إلا الله صالح عبد الله ورسوله) .

فلما عين قومه ذلك أزدادوا كفرا، ودخلوا على صنهم وشكوا ما يقونه من صالح؛ فطلق إبليس من جوفه وقال : انصرفوا إلى ما أتمم عليه؛ وإنا رأيتكم صالحا تقولوا : اثقتا بيهان كما آتى به هود ونوح .

فخرجوا مسرورين حتى أتوا صالحا، فقال لهم : قد رأيتم ومستم كلام الوحش والطير وإحياء الموتى وغير ذلك من الآيات ما فيه كفاية، فأى آية تريدون ؟ قالوا : نخرج نحن وأنت إلى هذا الوادى، ندعو وتدعو، وننظر أى الدعوتين تستجاب ؛ وتواعدوا إلى يوم عيدهم .

فلما كان فى ذلك اليوم اجتمعوا وخرجوا بأصنامهم وزيتهم ؛ وأقبل صالح يفتق صفوفهم ؛ حتى وقف أمام ملكهم، ودعاهم إلى الإيمان بالله . قالوا : أرنا آية . قال : ما تريدون ؟ قالوا : أخرج لنا ناقة من هذه الصخرة وتؤمن بك وتعلم أنك صادق . قال : إن ذلك هين على ربى، ولكن صفوها لى .

فأقبل القوم يصف كل منهم صفة حتى أكثروا . فقال الملك : إن هؤلاء قد أكثروا وأنا أصفها بما فى قلبى : تكون ناقة ذات قرن ودم ولحم وعظم وعصب وعروق وجلد وشعر يغاطله وبر ، وتكون شكلا^(١) شقراء هيفاء، ولها ضرع كأكبر ما يكون من القلال، يدر من غير أن يستدر، يشخب لنا غزيرا صافيا، ويكون لها فصيل يتبعها على مثالبها، فإذا رغت أجابها بمثل رغائها، ويكون حنينها الإخلاص لربك بالتوحيد، والإقرار لك بالنبوة ، فإن أخرجتها على هذه الصفة آمنا .

فأوحى الله إليه : أن أعطهم ما سألوا . فقال لقومه : إن الله قد شفعنى فى حاجكم ، فإن أخرجتها تؤمنون ؟ قالوا : نعم ، على شرط أن يكون لبنها ألد

(١) شكلا، أى فى لونها بياض مختلط بحمرة .

- من الخمر وأحلى من العسل . قال : إن أخرجها ربّي تؤمنون ؟ قالوا : نعم
على شرط أن يكون لبنها في الصيف بارداً ، وفي الشتاء حاراً ، لا يشربه مريض
إلا برئ ، ولا فقير إلا استغنى . قال : إن أخرجها ربّي تؤمنون ؟ قالوا : نعم ، على
شرط ألا ترعى من مراعيها ، بل في رؤوس الجبال ويطون الأودية ، وتذر ما على
الأرض لمواشيها . قال : إن أخرجها ربّي تؤمنون ؟ قالوا : نعم ، على شرط أن
يكون الماء لنا يوماً ولها يوماً ، ولا يقوتا اللبن ، وتدخل علينا بالشيآت في بيوتنا
وتسمى كلّ واحد منا باسمه ، وتنادى : « ألا من أراد اللبن » ؟ فيخرج ويضع
ما يريد تحت ضرعها ، فيمتلئ لبنا من غير احتلاب . قال تؤمنون حقيقة ؟ قالوا :
نعم . قال صالح : قد شرطتم شرائط كثيرة ، وأنا أشتري عليكم : لا يركبها أحد
١٠ . . . ولا يربها بحجروه . . . ولا يمنحها من شربها ولا فصيلها .
١٠ . . . ولا يربها بحجروه . . . فقال : . . .
قالوا : هذا لك يا صالح . فأخذ عليهم الموائيق .

ذكر خروج الناقة

- قال : فلبث آتته شروطهم وشروطه ، وأخذ عليهم الموائيق ، قام وصلى
ركعتين ، ودعا ، فأضطربت الصخرة وتمخضت ، وتنجرت أصولها الماء ، والقوم
ينظرون ، وسمعوا دويّاً كدويّ الرعد ، فرفعوا رءوسهم ، فإذا بقبة تنفض من الهواء
١٥ فأخذت على الصخرة وحولها الملائكة ؛ ثم تقدم صالح إلى الصخرة فضر بها بفضيب
كان بيده ، فأضطربت وتناغمت صعداً ؛ ثم تطامنت إلى موضعها ؛ ثم خرج رأس
ووثبت من جوفها على الصفة كأنها قطعة جبل ، فوقف بين يدي الملك وقومه
وهي أحسن ممّا وصفوا ، وهي تنادى : (لا إله إلا الله ، صالح رسول الله) .
٢٠ ثم مر جبريل على بطنها بحربة ، فخرج فصيلها على لونها .

١٢٤

ثم نادى : « أنا ناقة ربي ، فسبحان من خلقني وجعلني آية من آياته الكبرى » .
فلما رأى الملك ذلك قام عن سريره وقبّل رأس صالح ، وقال : يا معشر قبائل
ثمود ، لا عني بعد الهدى ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن صالحا رسول الله .

وآمن معه في ذلك اليوم خلق كثير من أهل مملكته وغيرهم ؛ فلما رأى داود
خادمُ الأصنام ذلك نادى بصوت رفيع : يا آل ثمود ، ما أسرع ما صيتم إلى هذا
الساحر ، إن كانت الناقة قد أعجبتكم فهلّموا إلى آلتكم فسلوها حتى تخرج لكم
أحسن منها .

فوقفوا عن الإيمان ، وعمدوا إلى شهاب أخ الملك ، فلكوه عليهم ؛ ودخل
جُنْدَع المدينة فكسر الصنم الذي كان يعبد ، وفزق أمواله على المؤمنين ، وليس
الصفوف ، وعبد الله حقّ عبادته ، وكانت الناقة تنبّج صالحا كاتّباع الفصل لآفته ؛
فلما كان بعد ذلك أقبلت ثمود على صالح ، وقالوا : إن لم نمنس الناقة بسوء بصرف
ربك عنا عذابه ؟ قال : نعم ، إلى منتهى آجالكم . وكانت الناقة تخرج وفصيلها
خلفها ، فتصعد إلى رؤوس الجبال ، ولا تمرّ بشجرة إلا ألقت عليها أغصانها
فأكل أطايب أوراقها ؛ ثم تهبط إلى الأودية فرعى هناك ، فإذا أمست تدخل المدينة
وتطوف على دُور أهلها ، وتنادى بلسان فصيح : ألا من أراد منكم اللبن فليخرج .
فيخرجون بأيّتهم ، فيضعونها تحت ضرعها ، واللبن يشخب حتى تمتلئ الآنية ؛
فإذا آكثفوا عادت إلى المسجد ، وتوسّح الله حتى تصبح ؛ ثم تخرج إلى المرعى
وهذا دأبها .

قال : وكان للقوم يرشرون منها ليس لهم سواها ، فإذا كان يوم الناقة تأتي
وتلبّل رأسها فتشربه وتقول : « الحمد لله الذي سقاني من فضل مائه ، وجعلني حجة
على آل ثمود » .

وكانت تَمُجُّ من فيها إلى فم الفصيل حتى يَرَوَى ؛ فإذا كان يوم القوم أتوا البئر
وزحوا ما فيها ؛ وكانت الناقة تقول إذا أصبحت : إلهي كُلِّ من شرب من لبني
وَأَمِنْ بك وبرسولك فزده إيمانًا و يقينًا ، ومن لم يؤمن بك وبرسولك فأجعل
ما يشرب من لبني في بطنه داء لا دواء إِنَّكَ على كُلِّ شيء قدير .

ذكر خبر عقر الناقة وهلاك ثمود

- قال : فلما كانت تدعو بذلك صار القوم إذا شربوا لبنها أعترتهم الحكة
في أبدانهم ؛ فأجتمعوا وقالوا : ليس لنا في هذه من خير ؛ وأجمعوا على عقرها ؛
وكانت فيهم امرأة يقال لها : عُنَيْرة بنتُ عُمِّ بْنِ جُلْزٍ ^(١) وَتُكْنَى أُمُّ عُمٍّ ، وهي من بنات
عبيد بن المهسل ، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو ، وهي عجوز مسنة ، ولها أموال ^(٢)
ومواش ، ولها أربع بنات من أجمال النساء ، ويجوارها امرأة يقال لها : صَدُوف ^(٣)
بنت الحميا بن فهر ، ولها أيضا مواش كثيرة ؛ فدعنا قومهما إلى عقر الناقة ، فلم
يجبوهما إلى ذلك ؛ فبينما صَدُوف كذلك إذ مرَّ بها رجل يقال له الحباب — وكان ^(٤)
مولمًا بالنساء — فعرضت نفسها عليه على أن يعقر الناقة ؛ فأمتنع ، فقالت له :
لقد جَبُنَ قلبك ، وقصُرَ يدك . وتركته ؛ وأقبلت على ابن عمِّ لها يقال له :
مُضْدَعُ فَكشفت عن وجهها ، وعرضت نفسها عليه على أن يُصِدِّقها عقر الناقة ؛ ^(٥)
فأجاب . وأقبلت صَدُوف إلى عُنَيْرة فأخبرتها بذلك ، فقهرت به . قالت : إلَّا أنه
مستفرد ، ولكن قومي إلى عزيز ثمود قُدَّار ، فإنه شاب لم يترُج ، فأعرضي عليه بتاتك

(١) كذا ورد هذا الاسم في تفسير الطبري ج ٨ ص ١٦٠ . والقي في الأصول : « غلج » .

(٢) كذا ورد هذا الاسم في تفسير الطبري . والقي في الأصول : « الصد » .

(٣) كذا ورد هذا الاسم في تاريخ البني في النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف .

(٤) كذا ورد هذا الاسم في تفسير الطبري . والقي في الأصول : « الحناب » .

(٥) كذا ضبط هذا الاسم بالقلم في تاريخ البني في النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف .

لعله يفعل ؛ فعملت عُذرة ذلك ، وزينت بنتها ، وأقبلت بهنَّ إلى قُدار ، وكان أقيح رجل في ثمود ، وكان في عينيه زُرقة ، وكأتهما عدستان ، وأنفه أفتس ولحيته بطوله ، غير أنه كان يمزُّ بالشجرة العظيمة فينطحها برأسه فيكسرها ؛ فلما رآته عُذرة رجعت ببنتها إلى صَدُوف ، وقالت : من تطيب نفسه أن يزوجَ مثل هؤلاء من هذا ؟ فلم تزل بها حتى رجعت بهنَّ إليه ، وعرضتهنَّ عليه ؛ فأختار منهنَّ (الرياب) ، وأجاب إلى عَقر الناقة ، وأجتمع إليه "مصدع وأخوه ورعين وداود خادم الأصنام وريان وليد والمصد وهزبل ومفزع" هؤلاء التسعة الذين ذكرهم الله في كتابه ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ .

١٠ فطافوا باجمعهم على قبائل ثمود وأعلموهم بما أجمعوا عليه من عَقر الناقة ؛ فرضى بذلك كبيرهم وصغيرهم ، وأجتمع هؤلاء التسعةُ بسيوفهم وقسيهم ، وذلك في يوم الأربعاء ، وقعدوا ينتظرون الناقة ، فأقبلت حتى قربت من البئر ؛ فنادت عُذرة : يا قدار ، اليومَ يومُك ، فأتى السيد في قومك . قال الله : ﴿ فَنادُوا صَاحِبَهُمْ فَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ .

١٥ قال : فشذَّ قُدار قومه ورمأها بهم فأصاب لَبَّتَهَا ، وهو أول من رمأها ، ثم مِصْدَع ، وأقبلوا عليها بالسيوف ففطعوها ، وأندرت فصيلها ، فهرب إلى رأس جبل ، ودعا بالآلعة على ثمود ، فأتبعه القوم وعقروه ، وقاسموا لحمه .

(١) في كتاب الكسائي « وآثر اسمه حراب » . (٢) كذا ورد هذا الاسم مضبوطة بالقلم في تاريخ النبي في النسخة المنقولة عن نسخة المؤلف . وفي الأصول : « دعل » . (٣) كذا ورد هذا الاسم بالزاي في الأصول وتاريخ النبي مضبوطة بالقلم في الأخير . (٤) يلاحظ أن هذه الأسماء الثمانية قد انتقلت فيها الروايات والمصادر اختلافاً بيناً لم يجهل فيها تارة في رسم الحروف .

وحكى الثعلبي في كتابه المترجم (بيواقيت البيان في قصص القرآن) : أَنَّ الفصيل لما عُقِرَت الناقة أتى جبلا منيبا يقال له : صُور . وقيل : اسمه فَاِرَه ؛ وإن صالحا لما بلغه عقر الناقة أقبل إلى قومه ، فخرجوا يتلقونه ويمتدّون إليه ويقولون : إِنَّمَا عقرها فلان وفلان ، ولا ذنب لنا .

- فقال لهم صالح : أنظروا ، هل تدركون فصيلها ؟ فمضى أن تدركوه فيُرفِعَ عنكم العذاب . فخرجوا يطلبونه ، فلما رأوه على الجبل ذهبوا لياخذوه ، فأوحى الله تعالى إلى الجبل أن يتطاوَل ؛ فتطاوَل في السماء حتى ما يناله الطير ؛ وجاء صالح ، فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ؛ ثم دعا ثلاثا فاقترجت الصخرة حتى دخلها ؛ فقال صالح : بكلّ دعوة أجل يوم تَمَتَّعُوا في داركم ثلاثة أَيَّامٍ ذلك وعدٌ غيرُ مكثوب .
- ١٠ . رجع إلى رواية الكسائي ، قال : وصاح قُدار بأصحابه : هلموا . تقدموا فامرهم أن يقطعوا لحم الناقة ؛ فقطعوا وطبخوا وقعدوا للأكل والشرب ، وصالح لا يعلم بذلك ، فنادته الوحوش : يا صالح ، هتكتْ نَمُودَ حرمة ربِّها ، وتعدّوا أمره . فأقبل بالمؤمنين من قومه ؛ فلما رآها بكى وقال : إلهي أسألك أن تنزل على نمود عذابا من عندك .
- ١٥ . فأوحى الله إليه : أن أنذر قومك بالعذاب . فبشّرهم بمذاب الله . فقالوا له : افعل ما بدا لك ، فقد عقرناها ، وقد أنذرت بالعذاب منذ بيد وما نرى له أثرا . فقال لهم : ((تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْثُوبٍ)) . وبات القوم ليلتهم ، فلما أصبحوا تفجّرت آثار وطفء الناقة بعيون الدم ، وظهرت الصفرة في ألوانهم ؛ فقالوا : يا صالح ، ما هذا التغير في ألواننا وبلادنا ؟ قال :

غَضِبَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . فاجتمعوا على قتله ، وقالوا : إذا قتلناه أمتنع عنا صخره ولا تُمكنه الإِسَاعَةُ إلينا . ففقدتم التسعة لقتله عند ما أقبل الليل ، فوقف لهم جبريل ورعى كُلَّ واحد منهم بمحجر قَتَلَهُ .

فلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ نَظَرْتُ نُمُودَ إِلَيْهِمْ وَقَدْ قَتَلُوا ، قَالُوا : هَذَا مِنْ فَعْلٍ صَالِحٍ . فَزَيَّمُوا عَلَى الْمَجْجُومِ عَلَيْهِ وَقَتْلَهُ ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْخُرُوجِ مِنَ الْمَسْجِدِ ، بِجَفَاعُوا لِيَقْتُلُوهُ فَمَا رَأَوْهُ ، وَأَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَقَدْ أَحْمَرَتْ وَجُوهُهُمْ ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أَسْوَدَتْ ، فَأَيُّقُنُوا بِعَذَابِ اللَّهِ ، وَحَفَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ حَفَائِرَ ، وَلَأْهَلِيهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَلِيَسُوا الْأَنْطَاعَ ، وَجَلَسُوا فِي الْحَفَائِرِ يَنْظُرُونَ الْعَذَابَ ، وَصَالِحٌ يَتَوَفَّهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ عَذَابَ اللَّهِ وَهُمْ لَا يَبَالُونَ بِهِ .

فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ — وَهُوَ صَبِيحَةُ الْاَحَدِ — أَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى جَبْرِيْلَ فَنَشَرَ جَنَاحَ غَضَبِهِ ، وَأَتَاهُمْ بِسُرَارَةٍ مِنْ نَارٍ لَقِطَى ، وَجَعَلَ يَرْمِيهِمْ مِنْهَا بِجَهَنَّمَ مَوْجٍ كَأَمْثَالِ الْجِبَالِ ، وَنُمُودَ بَارَكَةً فِي حَفَائِرِهَا .

وَأَخَذَ جَبْرِيْلُ يَخْتُمُ الْأَرْضَ ، فَزُلْزِلَتْ بَيْوتُهُمْ وَقُصُورُهُمْ ، ثُمَّ نَشَرَ جَنَاحَ غَضَبِهِ عَلَى دِيَارِ نُمُودَ ، وَصَاحَ صَبِيحَةً ، فَكَانُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (فَكَانُوا كَهَيْشِمِ الْمُحْتَضِرِ) . ثُمَّ أَقْبَلَتْ سَحَابَةٌ سُودَاءَ عَلَى دِيَارِهِمْ ، فَرَمَتْهُمْ بِوَجْهِ الْحَرِيقِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ حَتَّى صَارُوا رَمَادًا .

فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ أَتَتْ السَّحَابَةُ وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ ، وَجَاءَ صَالِحٌ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَطَافَ بِدِيَارِهِمْ ، وَأَحْتَمَلُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَرْتَمَلُ بِقَوْمِهِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ ، فَتَرَلْ بِأَرْضِ فِلَسْطِينَ ، وَأَقَامَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — حَتَّى مَاتَ .

الباب السابع من القسم الأول من الفن الخامس في أخبار أصحاب البئر المعطلة والقصر المشيد وما كان من أمرهم وهلاكهم

- قال الكسائي : قال كعب : لما قبض الله تعالى نبيه صالحا عليه السلام بأرض فلسطين ، نرح أصحابه إلى بلاد اليمن فتفرقوا فرقتين : فتركت إحداها بأرض مدَن ، وهم أصحاب البئر المعطلة ، والثانية صارت إلى (حضر موت) (والقصر المشيد) وهو قبل البئر؛ والذي بناه رجل يقال له : جند بن عاد، وذلك لأنه رأى ما نزل بقوم هود من الريح، فعزم على بناء قصر مشيد ، فبالغ في تشييده ، وانتقل إليه ، وكان له قوة عظيمة ، فكان يقطع الشجرة ، ويمز بيده في الجبل فيخرقه وكان مولعا بالنساء ، فترج زبادة عن سبعائة امرأة ، ورزق من كل امرأة ذكرا وأنثى ؛ فلما كثر ولده وقومه طغى في الأرض وتجبر ، وكان يقعد في أعلى قصره مع نسائه فلا يمز به أحد إلا أمر بقتله ؛ فلما كثر فسادة أهلكه الله بصيحة جبريل جاءت من قبل السماء فأهلكته هو وأولاده وقومه .

قال الكسائي : ولا يحسر أحد أن يدخل إلى القصر مما نزل بسكانه .

- قال : ويقال : إن فيه حبة عظيمة ، وإنه يُسمع من داخله أين كائين المريض .
وأما البئر المعطلة — فهي بأرض مدَن ، وكان أهلها على دين صالح ، وكان المطر يتقطع عنهم في بعض الأوقات حتى يبلغ بهم الجهد ، فيحملون الماء من بلد بعيد ، فأعظام الله تعالى هذه البئر على ألا يُشركوا به شيئا ، ويعبدوه حتى عبادته وكانوا مسجدين بها ، قد بنوها بالوان الصخور ، وبنوا حولها حياضا بمدد قبائلهم ؛ وكان لهم ملك يموسمهم ، فلما مات حزِنوا عليه حزنا عظيما ؛ فأقبل عليهم إبليس وقال :
٢٠

ما بالك بهذا الحزن ؟ قالوا : كيف لا نكون كذلك وقد فقدنا مَلِكًا مع إحسانه إلينا . قال : إنه لم يمِتْ ، ولكنه آحجب عنكم لفضبه عليكم ، ولكونكم لم تبدوه . وأطلق إبليس فأتخذ لهم صنما على صورة المَلِك ، ونصبه على سريره ، وقال : هلموا إلى الملك فاسمعوا كلامه .

فأقبلوا حتى وقفوا من وراء الستر ، ووقف إبليس في جوف الصنم شيطانا يكلمهم بلغة لا يتكرونها لغة الملك ؛ ثم قال إبليس : استمعوا . فكلهم الشيطان من الصنم وقال : يا آل نوءد ، مالي أراكم تبكون ؟ قالوا : لفقدك . قال : قد كذبتكم ، لو كنتم تحبوني كما تقولون كنتم عبدتموني ، وقد كنت فيكم أربعمائة سنة ما فيكم من سجد لي سجدة واحدة ، والآن فقد ألبسني ربّي ثوب الألوّهية ، فصيرني فيكم لا آكل ولا أشرب ولا أنام ، وأخبركم بالغيوب ، فأعبدوني وسموني ربّا ، فإني أفرىكم إلى ربّي زُلفى .

قالوا : يا أيها الملك ، فلورأينا وجهك . فرفع إبليس الحجاب حتى راوه فلم يتكروا من صفاته شيئا ، فخرّوا له سجدا ، وأخضّوه ربّا ؛ وكان فيهم رجل من خيار قوم صالح اسمه حنظلة بن صفوان ، ففارقهم ولحق بالحرم ، وعبد الله حينئذ فرأى في منامه قائلا يقول له : قد أمرك ربك أن تصير إلى قومك وتحذّركم عذابه إن لم يرجعوا عن عبادة الأصنام ، وتذكّركم اليهود في البئر ، وإن لم يؤمنوا غار ماء البئر حتى يموتوا عطشا .

فأتبه ونرج من ساعته حتى أتى قومه ، فأنذركم وعظهم ، فهموا بقتله فقتل الله تعالى بثرهم حتى لم يجدوا فيها قطرة ، فأتوا إلى صنمهم فلم يكلمهم ، وأنتم صبيحة من السماء ، فهلكوا عن أنفهم .

ويقال : إن سليمان صَفَّد شياطين وحيسهم بهذه البئر ، واهه أعلم .

الباب الثامن من القسم الأول من الفن الخامس

في خبر أصحاب الرّس وما كان من أمرهم

قال الكسائي : قال كعب : إن أصحاب الرّس كانوا بحضرموت ، وكانوا كثيرا ، فبنوا هناك مدينة كانت أربعين ميلا في مثل ذلك ، فأحضروا لها الفتيات من تحت الأرض ، وسموها رّسا ، وكان ذلك أيضا أسم ملكهم ؛ فاقاموا في بلدهم دهرًا طويلا يعبدون الله تعالى حقّ عبادته ؛ ثمّ تغيّروا عن ذلك وعبدوا الأصنام وكان تما أحدثوه إتيانُ النساء في أدبارهنّ والمبادلة بهنّ ، فكان كلّ منهن يبعث بأمرأته إلى الآخر ، فشقّ ذلك على النساء ، فاتاهنّ إبليس في صورة امرأة وطمهنّ السّحاق ففعلنه ، وهم أوّل من أتى النساء في أدبارهنّ وساحق ؛ فأشتهرت هذه القبايح فيهم .

- ١٠ فبعث الله إليهم رسولا اسمه حنظلة . وقيل : خالد بن سنان . وقيل : ابن صفوان . فدعاهم إلى طاعة الله ، ونهاهم عن عبادة الأصنام وفعل القبايح وحذّره وذكّره ما حلّ بين قبلهم من الأمم ؛ فكذبوه ؛ فوعظهم دهرًا طويلا وهم لا يرجعون ، فضرّهم الله بالفحط ، فقتلوا نبيهم وأحرقوه بالنار ؛ فصاح بهم جبريل صيحة فصاروا حجارة سودا ، وخُصِفَت مدينتهم .

- ١٥ وقيل : إن هذه المدينة لم يرها إلّا ذو القرنين ، وإنّه رأى حجارة ، ورأى النساء ملتصقات ببعضهنّ ببعض ، ورأى الملوك على الأسرّة وبين أيديهم الجنود قائّمة ، بأيديهم الأعمدة والأسلحة ، وقد صاروا كلّهم حجارة سودا .

هذا ما حكاه الكسائي .

وقال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله تعالى — قال سعيد بن جبيرة والكلبيّ

(٢٧)

- ٢٠ والخليل بن أحمد — دخل كلامُ بعضهم في بعض ، وكلّ قد أخبر بطائفة من حديث

أصحاب الرس : أنهم بقية ثمود وقوم صالح ، وهم أصحاب البئر التي ذكرها الله تعالى في كتابه ﴿ وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ ﴾ .

قال : وكانوا يفلج اليمامة نزولا على تلك البئر .

وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجر فهي رس ، وكان لهم نبي يقال له : (حظلة ابن صفوان) . وكان بارضهم جبل يقال له : (قلج) مضيد في السماء ميلا وكانت العنقاء تأتيه ، وهي أعظم ما يكون من الطير ، وفيها من كل لون ، وتوفاها العنقاء لطول عتقها ، وكانت تكون في ذلك الجبل وتنقض على الطير فتأكلها بفاعت ذات يوم وأعوذها الطير ، فاققضت على صبي فذهبت به ، فسميت عنقاء مغرب ، لأنها تغرب بما تأخذه وتذهب به ، ثم أققضت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى الجناحين الكبيرين ، فشكوا ذلك إلى نبيهم ، فقال : اللهم خذها وأقطع نفسها ، وسلط عليها آفة تذهب بها . فأصابها صاعقة فاحترقت ، فلم ير لها أثر بعد ذلك .

قال : ثم إن أصحاب الرس قتلوا نبيهم ، فأهلكهم الله تعالى .

قال الثعلبي : وقال بعض العلماء : بلغني أنه كان رسان : أمّا أحدهما فكان أهله أهل بذر وعمود ، وأصحاب غم ومواش ، فبعث الله إليهم نبيا فقتلوه ، ثم بعث الله رسولا آخر وعضده بولي ، فقتلوا الرسول ، وجاهدتهم الولي حتى أخمهم ، وكانوا يقولون : ألمنا في البحر . وكانوا على شفير البحر ، وكان يخرج إليهم من البحر شيطان في كل شهر خرجة فيذبجون عنده ، ويتخذون ذلك اليوم عيدا ، فقال لهم الولي : أرايتم إن خرج إليكم الذي تدعونه وتعبدونه إلى وأطاعني أنجيوني إلى ما دعوتكم إليه ؟ قالوا : بلى . وأعطوه على ذلك اليهود والمواثق ، فانتظر حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت راكبا على أربعة أحوات ، وله عنق

منقلب ، وعلى رأسه مثل التاج ، فلما نظروا إليه خروا سجداً ، وخرج الولي إليه وقال : اتبني طوعاً أو كرها باسم الله الكريم .

- فزل عند ذلك عن أحوائه ، فقال له الولي : اتبني راجياً لئلا يكون القوم في شك . فأتى الحوت وأتت به الحيتان حتى أفضوا إلى البر يمزونه ويمزهم ، ثم كذبوه بعد ما رأوا ذلك ، وتقضوا اليهود ، فأرسل الله تعالى عليهم ريحاً تغذفهم •
- في البحر ومواسيهم وما كانوا يملكون من ذهب وفضة وآنية ، فأتى الولي الصالح إلى البحر حتى أخذ التبر والفضة والأواني ، قسمها على أصحابه بالسوية على الصغير والكبير ، وأقطع ذلك النسل .

- وأما الرس الآخر — فهم قوم كان لهم نهر يدعى الرس ، وذلك النهر بمنقطع أنتريجيان ، بينهما رس أرمنية ، فإذا قطعت مدبراً دخلت في حد أرمنية •
- وإذا قطعت مقبلاً دخلت في حد أنتريجيان ، وكان من حولهم من أهل أرمنية يعبدون الأوثان ، ومن قدامهم من أهل أنتريجيان يعبدون الزيران ، وكانوا هم يعبدون الجوارى العذرى ، فإذا تمت لإحدهن ثلاثون سنة قتلوها وأمتدلوها غيرها . وكان عرض نهرهم ثلاثة فراسخ ، وكانت يرتفع في كل يوم ليلة حتى يبلغ أنصاف الجبال التي حوله ، ولا ينصب في بر ولا بحر ، وإذا خرج من حدهم يقف •
- و يدور ثم يرجع إليهم ، فبعث الله إليهم ثلاثين نبياً في شهر واحد ، فقتلهم جميعاً فبعث الله إليهم نبياً وأيده بنصره ، وبعث معه ولياً ، فجاهلهم في الله حتى جهادهم .
- ثم بعث الله تعالى ميكائيل حين نابذوه — وكان ذلك في أوان وقوع الحب في الزرع ، وكانوا إذ ذاك من أحوج ما يكون إلى الماء — فبحر نهرهم في البحر

فانصب ما في أسفله ، وأثنا عيونه من فوق قسدها ، ثم بعث الله تعالى خمسمائة ألف ملك من الملائكة أعوانا له ، ففزعوا ما بقى في نهرهم .
ثم أمر الله تعالى جبريل فقتل فلم يدع في أرضهم عينا ولا نهرا إلا أيسه بإذن الله تعالى .

وأمر ملك الموت فأنطلق إلى المواشي فأماتها في ربيعة واحدة .
وأمر الرياح الأربع : الجنوب والشمال والديور والصبأ فضمت ما كان لهم من متاع ، وألقى الله تعالى عليهم السبات .
ثم خفقت الرياح الأربع بذلك المتاع أجمع فشتته في ربوع الجبال وبطون الأودية .

وأمر الله الأرض فأبتلت ما كان لهم من حلى وتبر وآنية ؛ فأصبحوا لا ماشية عندهم ولا بقر ولا مال يرجعون إليه ولا ماء يشربون ولا طعام يأكلون ، فآمن بالله تعالى عند ذلك قليل منهم ، وهدهم الله تعالى إلى غار في الجبل له طريق إلى خلفه ، فنجوا ، وكانوا أحدا وعشرين رجلا وأربع نساء وصبيان ، وكان عدة الباقين من الرجال والنساء والذراري ستمائة ألف ، فأتوا عطشا وجوعا ، ولم تبق منهم باقية .

ثم عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها ، فدعا القوم عند ذلك مخلصين أن يحيمهم الله تعالى بماء وزرع وماشية ، وأن يجعل ذلك قليلا لئلا يطغوا . فأجابهم الله تعالى إلى ذلك ، وأطلق لهم نهرهم ، وزادهم على ما سالوه .

فأقام أولئك القوم على طاعة الله تعالى باطنا وظاهرا حتى مضوا وأقبرضوا ؛ فحدث من بعدهم من نسلهم قوم أطاعوا الله تعالى في الظاهر ، وناققوا في الباطن ؛

وأمر الله تعالى لهم ، ثم بعث الله عليهم عدوهم من قاربهم وخالفهم ، فأسرع فيهم القتل ، وبقيت منهم شردمة ، فسلط الله عليها الطاعون ، فلم يبق منهم باقية وبقي نهرهم ومنازلهم ما تبقى عام لا يسكنها أحد .

- ثم أتى الله بعد ذلك بقرن فترلوها وكانوا صالحين سنين ، ثم أحدثوا فاحشة وجعل الرجل منهم يدعو أخته وأخته وزوجته فيلتي بين جاره وأخاه وصديقه •
 يتمس بذلك البر والصلة ؛ ثم ارتفعوا عن ذلك إلى نوع آخر ، ترك الرجال النساء حتى شيقن ، واشتغلن عن الرجال ، بغابت النساء شيطانة في صورة امرأة — وهي الوثانة بنت إبليس — فشبهت للنساء ركوب بعضهن بعضا ، وعلمتهن كيف يصنعن ؛ فأصل ركوب النساء النساء منها ؛ فسلط الله تعالى على ذلك القرن صاعقة من أول ليتهم ، وخسفا في آخر الليل ، وصيحة مع الشمس ، فلم يبق منهم باقية ١٠
 وبادت مساكنهم .

قال الثعلبي : ولا أحسب مساكنهم اليوم مسكونة .

- وقال أبو إسحاق الثعلبي أيضا : وروى علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي بن أبي طالب — رضى الله عنهم — أن رجلا من أشراف بني تميم يقال له : عمرو ، أتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن أصحاب الرس وأى عصر كانوا فيه ؟ وأين كانت منازلهم ؟ ومن كان ملكهم ؟ وهل بعث الله تعالى إليهم رسولا أولا ؟ وبماذا هلكوا ؟ فأتى أجد في كتاب الله تعالى ذكرهم ولا أجد خبرهم .

فقال له : لقد سألتني عن حديث ما سألتني عنه أحد قبلك ، ولا يحذرك

كان من قصتهم يا أخا تميم أنهم كانوا يعبدون شجرة صنوبر يقال لها :
 ساب درحب^(١) ، كان ياقث بن نوح غرسها على شفير عين يقال لها : دوسات^(٢)
 كانت أنيطت لنوح بعد الطوفان ، وكان لهم اثنا عشرة قرية على شاطئ نهر يقال له
 الرس من بلاد المشرق ، ولم يكن يومئذ في الأرض نهر أغزر ولا أعذب منه ولا قرى
 أكثر سكانا وعمرانا منها ، وذلك قبل سليمان بن داود ، وكان من أعظم مدائنهم
 اسفيدا^(٣) ، وهى التى كان يزلها ملكهم ، وكان يسمى بركون بن عابور بن بلوش بن
 سارب بن الثمروذ بن كتمان ، وفيها العين والصنوبر ، وقد غرسوا في كل عين
 حبة من تلك الصنوبر ، فنبتت الحبة وصارت شجرة عظيمة ، وحرّموا ماء تلك
 العيون والآنهار ، لا يشربون منها ولا أنعامهم ، ومن فعل ذلك منهم قتلوه
 ويقولون : هى مباءة الهتنا ، ولا ينبغي لأحد أن ينقص من حياتها ، ويشربون هم
 وأنعامهم من نهر الرس الذى عليه قراهم ، وقد جعلوا في كل شهر من السنة في كل
 قرية عيدا يجتمع أهلها ويضربون على تلك الشجرة مظلة من الحرير ، فيها من
 أصناف الصوور ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قربانا للشجرة ، ويشعلون فيها
 النيران ، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقارها وبخارها في الهواء ، وحال بينهم وبين
 النظر إلى السماء ، خرّوا سجدا ، ويتلون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم .

وكان الشيطان يحىء فيحرك أغصانها ويصبح من ساقها صباح الصبي : عبادى
 قد رضيت عنكم ، فطوبوا نفسا ، وقروا عينا . فيرقعون عند ذلك رعوهم ، ويشربون
 الخمر ، ويضربون بالمعازف ؛ فيكونون على ذلك يومهم وليتهم ، ثم ينصرفون حتى
 إذا كان عيد قريتهم العظمى ، اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم ، فضرّبوا عند الصنوبر

(١) كذا وردت هذه الأسماء التى تحت هذا الرق في جميع الأصول . ولم تقف فيها واجتماع من
 الكتب على ما نقلت من إليه في تصحيحها وضبطها ، على أن الكتب مختلفة في هذه الأسماء القديمة اختلافا يبا .

(٣٩)

- والعين مُرادفا من دساج، عليه من أنواع الصُّور، له اثنا عشر بابا، كل باب لأهل قرية منهم ؛ ويسجدون للصنوبرية خارجا من السرداق، ويقربون لها الذبايح أضعاف ما يقربون للأشجار التي في قُراهم، فيجئُ إليهم عند ذلك فيحرك الشجرة تحريكا شديدا، ويتكلم من جوفها كلاما جهورا، ويمدحهم ويمتحمم بأكثر مما وعدهم به الشياطين كلَّهم ؛ فيرفعون رءوسهم من السجود وبهم من الفرح والنشاط ما لا يفقهون ولا يتكلمون [معه] ؛ فيداومون الشرب والعزف، فيكونون على ذلك آثني عشر يوما بلانيها بمدد أعيادهم في السنة ؛ ثم ينصرفون ؛ فلما طال كفرهم بالله تعالى وعبادتهم غيره ، بعث الله إليهم نبيا من بني إسرائيل من ولد يهوذا بن يعقوب ، فلبث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الله تعالى ، ويمزفهم ربوبيته ؛ فلا يتبعونه ولا يسمعون مقالته ؛ فلما رأى شدة تعاديهم في البغي والضلالة وتركهم قبول ما دعاهم إليه من الرشد والصلاح ، وحضر عيد قريتهم العظمى قال : يا رب إن عبادك أبوا تصديقي ودعوتي لهم ، فإزادوا إلا تكذبي والكفر بك ، وغدوا يبدون شجرة لا تنفع ولا تضر ، فأبيس شجرهم أجمع ، وأرهم قدرتك وسلطانك .
- ١٠ فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كله ، فهالم ذلك وتضعضوا ، فصاروا فرقتين : فرقة قالت : يحر هذا الرجل الذي زعم أنه رسول رب السماء ، الهاكم ليصرف وجوهكم عنها إلى الله ؛ وفرقة قالت : بل غضبت ألفتكم حين رأت هذا الرجل يعبها ويقع فيها ، ويدعوكم إلى عبادة غيرها ، فحجبت حسنها وبهاها لكي تغضبوا لها ، فتتصروا منه .
- ٢٠ فأجمعوا رأيهم على قتله ، فأتخذوا مثل بئر ، وأتخذوا أنابيب طوالا من رصاص واسعة الأفواه ، ثم أرسلوها إلى قرار العين واحدة فوق الأخرى مثل البراجم ، وزحوا

ماء العين، ثم حفروا في قراوها بئرا ضيقة للدخل عميقة، وأرسلوا فيها نبيهم، وألقوا عليه فيها حخرة عظيمة؛ ثم أخرجوا الأنابيب من الماء وقالوا: الآن نرجو رضا ألهتنا عنا إنا رأنا أنك قد قتلنا من كان يقع فيها، ويصعد عن عبادتها.

فبقوا عاقبة يومهم يسمعون أنين نبيهم، وهو يقول: سيدي، ترى ضيق مكاني وشدة كربى، فأرحم ضعف ركني وقلة حيلتي، وعجل قبض روحى ولا تؤخر إجابة دعوتى. حتى مات عليه السلام.

فقال الله تعالى لجبريل: انظر عبادى هؤلاء الذين غرهم حلمى، وأمنوا بكبرى، وعبدوا غيرى، وقتلوا رسولى؛ وأنا المنتقم ممن عصانى ولم يخش عذابى وإنى حلفت بعزى لأجعلهم عبرة ونكالا للعالمين.

فبينما هم فى عيالهم إذ غشيتهم ريح عاصف حمراء، ففتحوا وأدعروا منها وأنضم بعضهم إلى بعض، ثم صارت الأرض من تحتهم حجارة كبريت يتوقد؛ وأظلمت سمابة سوداء، فألقت عليهم كالقبة حجرا يلهب نارا، فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص فى النار؛ فعوذ بالله من غضبه ودرك نقمته.

(١) «درك قمته» أى لحاقها بنا.

القسم الثاني من الفرق الخامس

في قصة إبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — وخبره مع نمرود، وقصة لوط، وخبر إسحاق ويعقوب، وقصة يوسف وآيوب وذى الكفل وشعيب وفيه سبعة أبواب

- الباب الأول منه في قصة إبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — وخبر نمرود بن كنعان .

ولنبداً من هذه القصة بخبر نمرود ؛ ثم نذكر قصة إبراهيم — عليه السلام — لتتعلق قصته به، لأن إبراهيم ولد في زمانه، وآيته الكبرى معه .

ذكر خبر نمرود بن كنعان

- ١٠ هو نمرود بن كنعان بن كوش، وهو أحد ملوك الدنيا الأربعة الذين ملكوا شرقها وغربها .

وقد ورد أنهم مؤمنان وكافران : فالؤمنان سليمان بن داود والإسكندر ذو القرنين المذكور في سورة الكهف ؛ والكافران : شداد بن عاد ونمرود ابن كنعان .

- ١٥ وقد قيل : بدل شداد بـجَحْشَر .

قال الكسائي : قال وهب : لما أهلك الله تعالى أهل الرّس بالمسخ ومن تقدمهم بما ذكرناه، أنشأ قرونا آخرين، فكان ممن أنشأ من ولد حام بن نوح كوش ابن قرظ بن حام، وكان جباراً شديداً القوة عظيم الخلق، له غلاب كالسباع وهو الذي أنشأ كوتارياً من أرض العراق، وولد له بها ولد سمّاه كنعان، وكان له

ولد آخر يقال له : المصاص ؛ فلما مات كوش استقل المصاص بالملك دون كتمان وأستقل كتمان بالصيد ، وولع به حتى ألهاه عن طلب الملك . وكان مع ذلك شديد البطش والقوة ، فبينما هو يتصيد إذ رأى امرأة ترى بقرات ، فأعجبته فراودها عن نفسها ، فأمتعت وأعتذرت بزوجها ؛ فقال : ويحك ، هل على وجه الأرض من يطاولني وأنا من ولد كوش ، ونحن ملوك الأرض ؟ فضحكت المرأة كالمستهزئة ، وقالت : لا تذكر الملوك وأنت رجل صياد .

ثم أقبل زوجها فقتله كتمان وأخذ المرأة ووطئها ، فحملت بمرود ، وقلها كتمان إلى قصره ، فكانت من أحظى نسائه ؛ ثم قتل أخاه بعد ذلك ، وأستقل بالملك .

ثم رأى في منامه كأنه صارح إنسانا فصرعه وقال : أنا مشغوم أهل الأرض ومترى الظلمة ، وقد أجتك حتى أخرج من ظلمتي هذه إلى ضوء الدنيا .

فأتبعه مرثعا ، وأحضر أصحاب علم النجوم ، وقصّ رؤياه عليهم ؛ فقالوا : سيولد مولود هو الآن في بطن أمته يكون هلاكك على يديه .

وتبين حمل الرابعة — وكان اسمها شلخاء — وكانت تسمع من بطنها صوتا عجيبا ، فسمعه كتمان فقال : ويحك ، هذا ليس بأدى ؛ وإنما هو شيطان ؛ وهم أن يدوس بطنها ليقتل من فيه ؛ فهتف به هاتف : مه يا كتمان ، ليس إلى قتله مسيل .

فلما كملت مدة الحمل وضعته أمود أحول أفضس أزرق العين ؛ وخرجت حية من حجر فدخلت في أنفه ، ففزعته شلخاء ؛ وأخبرت كتمان بجنه ؛ فقال : أقتله فإنه شوم . فقالت : لا تطيب نفسى بقتله . قال : فاحمله وأطرحه في البرية .

- فَأَحْمَلْتُهُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ ، فَزَوَّجْتُ بَرَاغِي بَقَرَاتٍ فَعَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَهُ ، وَعَادَتْ إِلَى مَقَرِّهَا ؛
 فَلَمَّا وَضَعَهُ الرَّاعِي بَيْنَ الْبَقَرِ تَعَرَّتْ وَتَغَرَّتْ وَعَسِرَ عَلَيْهِ جَمْعُهَا ، وَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ
 فَأَخْبَرَهَا بِخَبْرِ الْفَلَامِ ؛ فَقَالَتْ : أَقْتُلْهُ فَإِنَّهُ شَوْمٌ . فَأَبَى وَقَالَ : اطْرَحِيهِ فِي النِّهْرِ .
 فَطَرَحْتُهُ فِي نَهْرِ عَظِيمٍ ، فَأَلْقَاهُ الْمَاءُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ فَنَقِضَ اللَّهُ لَهُ نَمِرَةً فَأَرْضَعَتْهُ وَأَنْصَرَفَتْ ؛
 ٥ فَرَأَتْهُ أَمْرَأَةٌ مِنْ قَرْيَةٍ هُنَاكَ فَحَبِطَتْ وَأَخْبَرَتْ أَهْلَ الْقَرْيَةِ ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِ وَأَحْمَلُوهُ
 وَرَبُّوهُ وَسَمَوُوهُ نَمْرُودَ ، فَلَمَّا بَلَغَ جَعَلَ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ وَيُضِيرُ عَلَى النَّوَاحِي ، وَأَجْتَمَعَ
 لَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ ، فَبَلَغَ خَبْرَهُ كَنْعَانُ ، فَجَعَلَ يَبْعَثُ إِلَيْهِ بِقَائِدٍ بَعْدَ قَائِدٍ وَهُوَ يَزِيهِمُهُمْ ؛
 وَعَظَّمَ أَمْرَهُ حَتَّى صَارَ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ ؛ فَسَارَ إِلَى كُوثَارَبَا وَقَاتَلَ كَنْعَانَ ، فَهَزَمَ
 جَبِيوشَهُ وَظَفَرَبَهُ ، وَقَتْلَهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ أَبُوهُ ، وَأَخْتَوَى عَلَى مُلْكِهِ ؛ ثُمَّ أَخَذَ
 ١٠ فِي غَزْوِ الْمُلُوكِ حَتَّى مَلَكَ الشَّرْقَ وَسَائِرَ مَمَالِكِ الدُّنْيَا ؛ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى كُوثَارَبَا فَاسْتَدْعَى
 وَزَرَائِهِ وَقَالَ : أُرِيدُ أَنْ أَبْنِيَ بِنْيَانًا عَظِيمًا لَمْ أَسْبَقْ إِلَى مِثْلِهِ . فَدَلَّوْهُ عَلَى تَارَحَ
 وَذَكَرُوا أَنَّهُ عَارِفٌ بِأَمْرِ التَّجَارَةِ وَالْبِنَاءِ ؛ فَأَحْضَرَهُ وَمَكَّنْتُهُ مِنْ خَزَائِنِهِ ، وَأَمَرَهُ
 بِإِنْشَاءِ قَصْرِ عَظِيمٍ ؛ فَخَرَجَ تَارَحُ وَشَرَعَ فِي بِنَائِهِ ، وَتَأَثَّقَ فِيهِ ، وَأَجْرَى فِيهِ الْأَنْهَارَ ؛
 فَلَمَّا كَمَلَ وَرَأَاهُ نَمْرُودُ خَلَعَ عَلَى تَارَحَ ، وَجَعَلَهُ وَزِيرَهُ .
 ١٥ وَأَخَذَ نَمْرُودُ فِي التَّكَبُّرِ حَتَّى ادَّعَى الْإِلَاحِيَّةَ .
- وَكَانَ مَوْلًى بِعِلْمِ النُّجُومِ ، فَأَتَقَنَهُ ؛ بِخَفَاءِ إِبْلِيسَ فِي صُورَةِ شَيْخٍ وَبِحَدِّ لَهُ
 وَقَالَ : إِنَّكَ قَدْ أَتَقَنْتَ عِلْمَ النُّجُومِ ؛ وَعِنْدِي عِلْمٌ مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ ، وَهُوَ السَّحَرُ
 وَالْكَهَانَةُ . فَعَلِمَهُ ذَلِكَ ، ثُمَّ حَسَّنَ لَهُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ ، فَدَعَا بِتَارَحَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَّخِذَ
 لَهُ صِنًا عَلَى صُورَتِهِ ، وَيَتَّخِذَ لِقَوْمِهِ أَصْنَامًا أُخْرَى ؛ فَاتَّخَذَهَا تَارَحُ مِنَ الْجَوْهَرِ
 ٢٠ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْقَوَارِيرِ وَالخَشَبِ عَلَى أَقْدَارِ النَّاسِ ، وَكَلَّمَهَا عَلَى صُورَةِ نَمْرُودَ
 حَتَّى اتَّخَذَ سَبْعِينَ صِنًا ، وَأَمَرَ نَمْرُودَ قَوْمَهُ أَنْ يَتَّخِذُوا ذَلِكَ وَأَتَمِّمُوا

في عبادتها ، وكلّمهم الشياطين من أجوافها ؛ فعبدها حتّى لم يعرفوا سواها
وطغوا وبغوا ، وأكثروا الفساد في الأرض ، حتّى ضجّت الأرض والسماء والوحش
والطير إلى ربّها منهم .

ذكر الآيات التي رآها نمرود قبل مولد إبراهيم — عليه السلام —

قال : كان أول ذلك أنّه صعد في بعض الأيام إلى سريره ، فانتفض من تحته
انتفاضا شديدا ، وسمع هاتفا يقول : تيس من كفر بالله إبراهيم . فقال تارح وهو
واقف عنده : سمعت ما سمعت ؟ قال : نعم . قال : فمن هو إبراهيم ؟ قال :
لا أعرفه .

فأرسل إلى السحرة وسألهم عن إبراهيم ، وأخبرهم بما سمع ، فقالوا : لا نعرف
إبراهيم ولا إلهه .

ثم توالى عليه الهوائف ، ونظفت الوحش والطير والسباع بمنى ذلك ؛ ثم رأى
الرؤى في منامه .

فكان منها أنّه رأى كأنّ القمر قد طلع من ظهر تارح ، وألقى نوره كالعمود
الممدود بين السماء والأرض ؛ وسمع قائلا يقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ ونظر إلى الأصنام
وهي ترتعد ، فاستيقظ وقصّ رؤياه على تارح ، فقال : أيها الملك ، أتى في الأرض
كالقمر لكثرة عبادتي لهذه الأصنام . فقال له نمرود : صدقت .

وانصرف تارح حتّى دخل بيت الأصنام ، فإذا هي قد سقطت عن كراسيها
منكبة على أوجيها ؛ فأمر خدامها بإعادتها ، وعجب من ذلك .

قال : ثم رأى في منامه كأنّ نورا ساطعا بين السماء والأرض : وقوما يسلكون
فيه يزلون إلى الأرض ، ويصعدون إلى السماء ، وإذا برجل من أحسن الناس وجها

في ذلك النور، وأولئك يقولون : نصرك إله السماء، فبك تحيا الأرض بعد موتها .
فأتبه ودعا بالسَّحرة والكهنة والمتجِّمين ، وذكر لهم رؤياه ، وأقسم إن كنتموه
تأويلها عذبهم وجعلهم طعنا للسياج . فطلبوا أمانه، فآمنهم، فقالوا : رؤياك تدلُّ
على مولود من أقرب الناس إليك ، يرث ملكك، ويرفع ذكرك إلى السماء والشرق
والغرب ويهلكك ، وأنه لا يأتيك ومعه سلاح ولا جند . فتبسم نمرود وقال : إن
كان كذلك فأمره هين . ثم قال لهم : فمَن يكون ؟ قالوا : من ظهر أقرب
الناس إليك ، ولا نعلم أكثر من هذا .

ثم قال : ليس أحد أقرب إلى من أبني كوش ووزيري تارح ؛ ثم أمر بأبيه
كُوش فضرب عنقه ؛ وأمر بقتل الأطفال حتى قتل مائة ألف طفل ، ثم دعا
بالمُتجِّمين فقال : انظروا هل استرحتُم مَن كنت أخافه ؟ قالوا : ما حملت به
أتمه بعد .

وأخذ في ذبح الأطفال حتى نجت أفللاق إلى الله تعالى .

ذكر حمل أم إبراهيم — عليه السلام — وطلوع نجمه

قال : وعبر تارح يوما إلى الأصنام فأضطربت اضطرابا شديدا ؛ فسجد لها
فأنطقها الله . فقالت : يا تارح ، (جاء الحق وزهق الباطل) ووافي نمرود ما كان
يحذره . فخرج خائفا وجلا حتى دخل على أمراءه وذكر لها ذلك ؛ فقالت : وأنا
أخبرك بمعجب ، كنت قمعت عن الحيض منذ كنا وكذا، وقد حضت في يومى هذا .
فقال : اكتمى أمرك لتلاييلك الملك . فلما طهرت هتف به هاتف : يا تارح صر
إلى زوجتك ليخرج النور الذى على وجهك . فلما سمع ذلك مرَّ هاربا على وجهه
فإذا هو بملك يقول : أين تريد ؟ أرجع فردَّ الأمانة التى في ظهورك .

فأنصرف إلى منزله ولم يحسر أن يقرب أمراته ؛ فأصبح وإذا بنور ساطع على وجهه ؛ وكان هو الذى يقرب إلى الأصنام الطعام والشراب كل ليلة ، وينصرف إلى منزله فتأكله الشياطين ؛ فقترب الطعام إليها ، فأقبلت الشياطين لتأكله ، فأرأوا الملائكة هناك فولوا هارين ، وبقى الطعام على حاله ؛ فلما أصبح تارح رآه على حاله فظن أن الأصنام ساخطة عليه ، فمكف عليها لترضى عنه ، فأبطأ عن منزله ، فأتته أمراته ؛ فلما خلت به فى بيت الأصنام تحزكت شهوته ، وهم بمواقعتها . قالت : ألا تستحي ، أضعل هذا بين يدي أهلك ؟ فواقمها ، فحملت منه بإبراهيم — عليه السلام — فنكست الأصنام ، وظهر نعيم إبراهيم وله طرفان : أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب ؛ فحجب الناس منه ؛ ورآه نمروذ فتصير ، فلما أصبح سأل المتجمين عنه ، فقالوا : هذا نجمٌ جديد طلع يدل على مولود جديد من أولاد الأكابر ، يرتفع شأنه ، ويُنشى عليك منه . فهتف به هاتف يقول : يا عدو الله ، هذا المولود قد حملت به أمه واقه مهلكك على يديه .

قال : فلما استجمت أمه تسعة أشهر قالت لأبيه : إني أحب أن أدخل بيت الأصنام فأسأله أن تخفف عني أمر الولادة ؛ فأذن لها فى ذلك ، وتربص بها إلى الليل خوفا أن يعلم الناس بحملها ؛ فلما دخلت بيت الأصنام تنكست عن كراسيها فخرجت فرجة ، فإذا هي بنمرود فى قومه ، وبين أيديهم الشموع والمشاعل ؛ فقال نمروذ : من هذا ؟ قالت : زوجة عبدك تارح ؛ فأراد أن يقول : اقضوها فقال : خلوها ؛ فأقبلت إلى منزلها مذعورة ، بجافعا الطلق ، فأقبل إليها ملك من عند الله تعالى وقال : لا تخافى وأنهضى فضضى ما فى بطنك . فتبعته حتى أدخلها النار ، وهو الذى ولد فيه إدريس ونوح — عليهما السلام — .

ذكر ميلاد إبراهيم — عليه السلام —

- قال : ودخلت أمه الغار فوجدت فيه جميع ما تحتاج إليه ، وخفف الله عنها الطلق ، فولدته في ليلة جمعة ، وهي ليلة عاشوراء ؛ فلما سقط إلى الأرض قطع جبريل سرته ، وأذن في أذنه ، وكساه ثوبا أبيض ؛ ثم عاد بها الملك إلى منزلها فرجعت خفيفة كأن لم تلد ، وقال لها الملك : اكتمى امرئك وما قد رأيت . فدخلت منزلها ، وجاء تارح فوأها نشطة خفيفة ، فقالت : إن الذي كان في بطني لم يكن ولدا ، وإنما كانت ربحا وقد آنفت عني . ففرح بذلك ، وأثنى الله تعالى على نمرود النسيان في أمر إبراهيم ؛ فلما كان في اليوم الثالث خرجت أمه إلى الغار فرأت الوحش والسباع على بابها ، فتوهمت أن يكون هلك ؛ فدخلت فرأته على فراش من السندس ، وهو مدهون مكحول ، فتحيرت وعلمت أنه له رباً ، ورجعت إلى منزلها وأخبرت تارح الخبر ، فنهاها عن العودة إلى الغار ، فكانت تروح إليه سرا في كل ثلاثة أيام تنظر إليه وتعود ، حتى تم له حولان ، فأتاه جبريل بطعام من الجنة ، فاطعمه وسقاه ؛ فلما استكمل أربع سنين جاءه ملك بكسوة من الجنة ، وسقاه شربة التوحيد وقال : أخرج الآن منصورا .

- ذكر خروج إبراهيم — عليه السلام — من الغار وأستدلاله
- قال : ولما قال له الملك ذلك خرج عند غروب الشمس ، فجعل ينظر إلى السموات . فذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ يعني على سبيل الاستفهام ، أي أهذا ربي ؟ . ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْتَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى

الشَّمْسُ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥﴾
وهبط جبريل — عليه السلام — فقال له : انطلق إلى أبيك وأمنك ولا تخف
فإن الله معك . فخرج إبراهيم وجبريل معه حتى وقفه على الباب وقال : هذا بيت
أبيك ، فدونك هو . فاستأذن إبراهيم وقال : أَدْخُلْ ؟ قال تَارَحُ : أَدْخُلْ . فلَمَّا
دخل نظر إليه فعجب من حسنه وجماله ، وقامت أنه مسرعة إليه وأعنته
وقالت : ولدي وعزّة نمرود . فقال لها : لا تحلفي بعزّة نمرود ، فإن العزة لله الذي
خلقني في بطنك وأخرجني منك ، وكَلَأَنِي وَرَبَّانِي وهَدَانِي .

فارتد تَارَحُ من كلامه وقال لأُمّه : أخشى أن تزول عني هذه الميزة بسببه .
ونظر إليه وقال : ما أحسبك ! ظولاً ما وقع في قلبي من محبتك لرفضتُ خبرك
إلى نمرود .

ثم بكى تَارَحُ خوفاً عليه أن يقتل ، فقال له : يا أبت لا تخف على من القتل
فإن الله يعصمني من نمرود . فقال له : أَلَيْكَ رَبٌّ غير نمرود ، وله مملكة الأرض
شرقها وغربها ، وله ثلاثمائة صنم ؟ فقال إبراهيم : بل ربّي الله الذي لا إله إلا هو
خالق السموات والأرض وما بينهما لا شريك له .

وبلغ خبر إبراهيم بعض أقارب تَارَحُ ، فدخل عليه وقال : ما هذا الغلام الجميل ؟
قال : هو أبني ولدي على كبر . قال : فما الذي بلغك من قوله عن نمرود وأصنامنا ؟
قال تَارَحُ : هو ما بلغكم ، فكلموه حتى يعود إلى ديننا . فحاجه قومه وخوفوه
بمذاب نمرود ، وهو يجادلهم ويمتج عليهم ، ويذكر عظمتهم ربّه حتى عجّزوا عنه
فذلك قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ اتَّخَذُوهُنَّ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ الآيات إلى
قوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ .

فانصرفوا عنه، وخاف تَارَحَ أَنْ يَسْعُوا بِهِ وَيُولِدَهُ إِلَى نَمْرُودَ، فَقَالَ : يَا إِبْرَاهِيمَ
كَفَّ عَنْ هَذَا الْكَلَامِ حَتَّى اسْتَخْلَفَكَ عَلَى خِزَانَةِ الْأَصْنَامِ فَقَدْ كَثُرْتُ . فَقَالَ :
يَا أَبَتِ ، إِنَّ الْمَعْبُودَ هُوَ اللَّهُ ، وَالْأَصْنَامُ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ .

فغضب تَارَحَ وَأَقْبَلَ عَلَى نَمْرُودَ ، فَسَجَدَ لَهُ ، وَقَالَ : إِنَّ الْمَوْلُودَ الَّذِي كُنْتُ
تَحْذَرُهُ هُوَ وَلَدِي ، وَلَمْ يُولَدْ فِي دَارِي ، وَلَا أَعْلَمُ بِهِ حَتَّى الْآنَ ، وَقَدْ جَاءَنِي وَهُوَ
غُلَامٌ يَعْقِلُ وَيَفْهَمُ ، وَيَزِيغُ أَنْ لَهُ رَبًّا سِوَاكَ ، وَقَدْ أَعْلَمْتُكَ فَأَصْنَعْ مَا أَنْتَ صَانِعٌ .

فَلَمَّا سَمِعَ نَمْرُودُ ذَلِكَ دَاخَلَ الرَّعْبَ وَقَالَ : صَفِّهِ . فَوَصَفَهُ . قَالَ نَمْرُودُ :
هُوَ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي مَنَامِي . وَقَالَ لِأَعْوَانِهِ : اسْتَوْنِي بِهِ . فَأَتَوْهُ بِهِ ، فَرَدَّدَ النِّظَرَ
إِلَيْهِ وَقَالَ : احْبِسُوهُ إِلَى غَدٍ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَحْضَرَهُ وَقَدْ أَمَرَ بِتَرْبِيقِ قَصْرِهِ بِأَعْظَمِ
زِينَةٍ ، وَهَوَّلَ عَلَيْهِ بِجُنُودِهِ وَأَصْنَافِ السِّلَاحِ ، فَأَلْتَفَتَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى النَّاسِ مِثْلًا وَشِمَالًا
وَقَالَ : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ؟ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَتْلُ طَلِيهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ الَّذِي
خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ ثُمَّ التَفَتَ وَقَالَ :
﴿ وَأَغْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَبَرِّزْتُ الْحَجِيمَ لِلْقَاوِينَ ﴾ .

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ قَالَ لَهُ نَمْرُودُ ، يَا إِبْرَاهِيمَ ، تَقَعُ فِي دِينِي وَأَنَا الَّذِي خَلَقْتُكَ
وَرَزَقْتُكَ ؟ قَالَ : كَذِبَتْ ، إِنَّ خَالِقِي وَرَازِقِي وَخَالِقُ الْخَلْقِ وَرَازِقُهُمْ ، ﴿ هُوَ اللَّهُ
الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فَبُهِتَ النَّاسُ ، وَوَقَعَتْ فِي قُلُوبِهِمْ عُبْتُهُ لِحُسْنِهِ وَحُسْنِ
كَلَامِهِ ، فَأَلْتَفَتَ نَمْرُودُ إِلَى تَارَحَ وَقَالَ : إِنَّ وَلَدَكَ صَغِيرٌ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ
وَلَا يَحِوُزُ لِمَتْلَى فِي قَدْرَتِي وَعِظَمِ مَمْلَكَتِي أَنْ أَتَجَلَّ عَلَيْهِ ، فَخَذَهُ إِلَيْكَ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ
وَحَدَّثَهُ بِأَمْرِي حَتَّى يَرْجِعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ .

فأخذ تارح وأنصرف إلى منزله ، وقال : يا بني ، إن لي عليك حقاً ، وأسألك بحقّي عليك أن تلازمني في عملي وبيع هذه الأصنام كما يفعل إخوتك . قال : كيف أبيع ما أبغضه ؟ قال : ما عليك أن تبعها ؟ وأخرج له صئين صغيرا وكبيرا ، وقال : بيع هذا بكذا ، وهذا بكذا . قال : يا أبت أنت تبعد هذه الأصنام على أنها ترزقك وهي التي خلقتك ؟ قال : نعم . فقال له ما أخبرنا الله به في قوله : ﴿ وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ فغضب تارح من قوله وقال : ﴿ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً ﴾ قال إبراهيم : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيّاً ﴾ .

وقال : وكان إبراهيم يخرج ومعه غلامان ومعهما صنمان ، فيقول : من يشتري ما لا يبصر ولا يسمع ولا يدفع الذباب عن نفسه ؛ وكان يغمسهما في الماء ويقول : اشربا . ويشد الحبل في أرجلهما ويمسهما ، والناس يُعْظَمُونَ ذلك ولا يحسرون يكلونه لكان أبيه من عمروذ .

ذكر معجزة لإبراهيم — عليه الصلاة والسلام —

قال : وبينما إبراهيم قاعدا إذ جاءته امرأة عجوز ، فقالت : بني أحد هذين الصنمين ، وأختر لي أجودهما . قال : هذا أكثر خطايا من هذا . قالت : لست أريده للوقود ، وإنما أريد أن أعبد ، فقد كان لي إله مُرَق في جملة ثياب كثيرة

لى، وأنا أريد أن أشتري هذا الصنم فأعبدته حتى يردّ على رجلي . قال لما إبراهيم :
 إنَّ الإله الذى يُسرق لو كان إلها لحفظ الثياب وحفظ نفسه : فكيف لك تعبدينه ؟
 قالت : كنت أعبدته ونمرودَ منذ كذا وكذا سنة . قال : بئس ما صنعتِ ، هلا
 عبدتِ ربَّ السموات والأرض حتى يردّ عليك ما سُرِق منك ، فإن عاد مالك
 تؤمنين ؟ قالت : نعم .

فدعا إبراهيم ربه فإذا بالمسروق بين يديه قد جاء به جبريل ، فقال لما إبراهيم :
 هذا رحلك . فأخذته المعجوز وكسرت الصنم ، وقالت تَبًّا لك ولمن عبدك دون
 الله . وآمنت ، وجعلت تطوف في المدينة وتقول : يا أيها الناس آعبدوا الله الذى
 خلقكم ورزقكم ، وذروا ما كنتم عليه من عبادة الأصنام .

١٠. فبلغ خبرها نمرود ، فأحضرها وأمر بقطع يديها ورجليها وفقْ عينيها ، فأجتمع
 إبراهيم والناس لينظروا إليها — وهو إذ ذاك لم يبلغ الحلم — فدعا لها بالصبر
 وقال : إلهي إنك قد هديتها ، أسألك أن تجعلها آية . فردَّ الله عينيها ويديها ورجليها
 وآرتفعت في الهواء وهي تتادى : ويلك يا نمرود ، أنا الذى قد فعلتَ بى ما فعلت
 هاتنا أرقى إلى الجنان .

(١١)

١٥. وكان نمرودَ خازن يقال له : بهرام ، فقام وقال : آمنتُ أيتها المرأة بالذى
 خصك بهذه الكرامة ، وآمن في ذلك اليوم خلق كثير من وجوه القوم ، فأمر نمرودُ
 فنُشِروا بالمشايير وأُلقوا للأسود فلم تأكلهم ، وآرتجت المدينة بزلزلة عظيمة
 وترادفت معجزات إبراهيم — عليه السلام — .

ذكر مبعث إبراهيم — عليه السلام —

قال : فلما تم لإبراهيم أربعون سنة، جاءه جبريل بالوحي من الله، وأرسله إلى نمرود، فأقبل إبراهيم ووقف على باب نمرود ونادى بأعلى صوته : يا قوم - قولوا : « لا إله إلا الله وإني إبراهيم رسول الله » . فانتشر الصوت على جميعهم؛ فأحضر نمرودُ الوزراء والبطارقة ، وأجلسهم في مجالسهم ، وأقام جنوده ، وأحضر الأسود والفيكة بسلاسلها، وأقيمت صفوفا عن يمين الدار ويسارها؛ وأمر بدخول إبراهيم؛ فدخل وقال : « بأسم الله العظيم » فلما توسط الدار قال بصوت رفيع : يا قوم قولوا : « لا إله إلا الله خالق كل شيء » .

ثم تقدم إلى نمرود؛ فقال له بعض وزرائه : من أنت؟ قال : أنا إبراهيم بن نوح رسول رب العالمين، أدعوك إلى عبادته . قال له : من ربك؟ قال : الذي خلق الناس جميعا . قال نمرود : إن ملكي أعظم من ملكه . قال إبراهيم : الملك والسلطان لله رب العالمين . قال : لقد تجزأت على - يا إبراهيم ، وأنت تعلم أنني خلقتك ورزقتك . فاضطرب سرير نمرود، وقال إبراهيم : كذبت يا نمرود، إن الله هو الذي خلقك وخلق الناس أجمعين ، ورزقك ورزقهم، وأنت تكفر بنعمته وقد رأيت بعض الآيات؟ قال : هات غير ذلك . فوصف إبراهيم قدرة الله . قال نمرود : فما الذي يفعل من قدرته؟ (قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) قال نمرود : (أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ) . قال : كيف تفعل؟ قال : أخرج من الحبس من قد وجب عليه القتل فأطلقه، وأقتل الذي لم يجب عليه .

قال إبراهيم : إن ربي لا يفعل كذلك ، بل الميت يحييه، والحي يمته من غير قتل، ولكن يا نمرود (إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِيهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) .

ذكر سؤال إبراهيم — عليه السلام — في إحياء الموتى

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتَّيْمِنَ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ خُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْأً ثُمَّ أَدْعُهُنَّ بِأَمْرِكَ سَعْيَا وَاَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾

- قال : فأخذ ديكاً أبيضً وغراباً أسود وحمامة خضراء وطاووساً ، وقطع رموسها ، وخلط الدم بالدم والريش بالريش ؛ ثم جزأها أجزاءً متساوية ، وجعل على كل جبلٍ مِنْهُنَّ جزءاً ، وجعل رموسها بين أصابعه ؛ ثم دعاها ، فانضمَّ كل جزء إلى بعضه ، وخرجت الرموس من بين أصابع إبراهيم ، فصارت كل رأس إلى بدنه .

- قال : واكتفت إبراهيم إلى عمروذ وقال : كيف ترى قدرة إلهي ؟ قال : ليس هذا بيدج من محرك . وأمر به فقيد وفُتت يده ، وأدخل المضيقي تحت الأرض ١٠ وفيه الحيات والعقارب فلم يضروه ذلك .

وجاءه جبريل فيشره عن الله بالنصر ، وألبسه حلة خضراء ، وفرش له فرشاً من السندس ، وأتاه بطعام فأكل وقال له : إصبر كما صبر الأنبياء من قبلك .

ذكر آية لإبراهيم — عليه السلام —

- ١٠ قال : وكان إبراهيم يسأل أهل السجن ، ويذكرهم بالجنة والنار ؛ فقام إليه رجل وقال : يا إبراهيم ، أنا من ملوك العرب ، وأنا ابن ملكهم ، وكأأربع إخوة ففضب الملك علينا فحبسني هاهنا ، وحبس الآخر بالشرق ، والآخر بالمغرب والرايع باليمن ، فهل يقدر ربك أن يجمع بيننا ؟ قال : نعم . ودعا إبراهيم ربه ، فإذا بالأخوين وقد آتقضا من المشرق والمغرب . فبلغ ذلك عمروذ ، فأحضرهم وقال :

مَنْ جَمَعَ بَيْنَكُمْ ؟ قَالُوا : لِمُنَا بَدْعَاءُ إِبْرَاهِيمَ . فَأَحْضَرَ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ : اتَّقِنَا بِالْأَخِ
الرَّابِعِ مِنَ الْيَمَنِ . فَقَالَ : إِنَّهُ قَدْ مَاتَ وَدُفِنَ . فَقَالَ نَمْرُودُ : ادْعُ رَبَّكَ حَتَّى
يَأْتِينَا بِقَبْرِهِ .

فَدَعَا إِبْرَاهِيمَ ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْمَلَكَ الْمُوَكَّلَ بِالْأَرْضِ أَنْ يَخْتَرِقَ الْقَبْرَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ؛
فَخَرَجَ الْقَبْرَ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ إِلَى دَارِ نَمْرُودَ ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلثَّلَاثَةِ : هَذَا قَبْرُ
أَخِيكُمْ . فَقَالُوا : أَيُّهَا الْمَلِكُ . إِنْ كَانَ حَقًّا مَا يَقُولُ فَلْيَدْعُ رَبَّهُ لِيُجِيبَهُ وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ
وَيَكْفِّهِ .

فَصَلَّى إِبْرَاهِيمَ رَكَعَتَيْنِ ، وَسَلَّأَ اللَّهُ أَنْ يُجِيبَهُ ؛ فَانْشَقَّ الْقَبْرُ ، وَخَرَجَ الرَّجُلُ مِنْهُ وَهُوَ
يَشْتَمِلُ نَارًا وَيَقُولُ : هَذَا جَزَاءُ مَنْ عَبْدَ الْأَصْنَامِ وَرَغِبَ عَنْ دِينِ اللَّهِ .

فَقَامَ يَهْرَامُ الْخَازِنُ وَتَزَعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ لِبَاسِ نَمْرُودَ ، وَأَمَّنَ بَاقِيَهُ وَبِإِبْرَاهِيمَ .
فَقَالَ لَهُ نَمْرُودُ : لَقَدْ عَمَلْتُ بِحُجْرَةٍ فَبِكَ . وَأَمَرَ بِهِمْ نَمْرُودُ فَشُدَّتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ
وَوُضِعَتْ عَلَيْهِمْ أَسَاطِينُ ، فَلَمْ يُؤْلَمْهُمْ تَقْلَهُمَا ؛ فَبُهِتَ نَمْرُودُ ثُمَّ قَالَ : عُودُوا لِمَا كُنْتُمْ
فَاتَانَا الَّذِي خَفَفْتَ عَنْكُمْ تَقْلَ هَذِهِ . فَقَالَ خَازِنُهُ : قُمْ حَتَّى نَضَعَ عَلَيْكَ وَاحِدَةً مِنْهَا
وَنُخَفِّفَهَا عَنْ نَفْسِكَ .

فَنَضَبَ نَمْرُودُ وَأَحْرَقَهُمُ بِالنَّارِ حَتَّى صَارُوا رِمَادًا ؛ فَفَرَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ أَرْوَاحَهُمْ
فَقَامُوا عَلَى أَرْجُلِهِمْ يَتَزَوَّنُ بِمُظْلَمَةِ اللَّهِ ؛ فَعَجِبَ النَّاسُ ، وَلَمْ يَدْرِ نَمْرُودُ مَا يَفْعَلُ ؛
فَأَمَرَ بِهِمْ فَأُلْقُوا فِي الْحَبْسِ بَيْنَ حَيَاتٍ وَعَقَارِبَ ، فَبَقُوا فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَلَمْ يَطْعَمُوا
شَيْئًا ؛ فَغَامَتْ أُمُّ إِبْرَاهِيمَ إِلَى نَمْرُودَ وَسَأَلَتْهُ فِي إِطْلَاقِهِ ، فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ هُوَ وَمَنْ
أَمَّنَ بِهِ ، وَفِي ظَنِّهِ أَنَّهُمْ قَدْ مَاتُوا ؛ فَأَخْرَجَهُمْ فَإِذَا هُمْ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ ؛ فَعَجِبَ

١٠

١٥

٤٥

وقال : يا إبراهيم ، من أطعمك وسقاك ؟ قال : رَبِّي أَطْعَمَنِي وَسَقَانِي ، قَائِمِينَ بِهِ
يا نمرود ، فقد رأيت آياته وعظمتَه .

فغضب نمرود ثم أقبل على تارح وقال له : قد كنت أنتخوف من ابنك ، لأنني
كنت أظن له شوكة من الجنود ، والآن فليس عنده إلا السحر ، وقد وهبته لك .
فأخذه أبوه وأخرج به من دار نمرود ، وقال له : يا بني ، امش حتى أدخلك على هذه
الأصنام لعلك تميل إليها . فقال إبراهيم : سوءة لك أيها الشيخ . ثم قال :
(أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ ؟) ثم قال : يا قوم قولوا : لا إله إلا الله وإني إبراهيم
رسول الله فُعلِّمُوا . فكذبوه ، فقال له أبوه : يا بني ما تحشى سطوة الملك .
فقال : يا أبت إن الله يصصمني من مكايده .

قال : ثم أبتلاه الله — عز وجل — بالقحط ، وقتل عندهم الأقوات ؛
وكان بظاهر المدينة كتيب من الرمل ، فعبد إبراهيم فيه ، ودعا ربه أن يحوله
طعاما . فحوله الله ، فكان المؤمنون ينالون منه ما يريدون ، والكفار يسجدون لنمرود
ويأخذون منه القوت .

وكان قد جمع الأقوات في مراديب عنده ، فاطعمهم حتى نفذ أكثرها
ولم يبقَ إلا قوتُ أهله وعشيرته ؛ فشرع الناس يؤمنون ويزيدون في كل يوم ؛
فشق ذلك على نمرود ، وطلب إبراهيم وقال له : اخرج من بلدي فقد أفسدت
قومي بسحرك . فقال إبراهيم : لم أخرج وأنا أحق منك ؟ وخرج من عنده
فأحضر نمرود تارح وقال له : إن ابنك قد آذاني في أهل مملكتي ، ولولا منزلتك
عندي لبطشت به . فقال : إنني قد هجرته ، ولست راضيا بصنعمه ، فأفعل به
ما بدا لك .

ذكر خبر تكسير إبراهيم الأصنام وإلقائه في النار

قال كعب : وكان لأهل كوثرياً عبد يخرجون إليه في كل سنة ، فينبدون هناك أياماً ، وكان بعيداً من البلد ، فلما حضر ذلك العيد قال تارح لإبراهيم : أخرج معنا إلى عيدنا . (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ) ، يعني لعبادتكم الأصنام (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ) إلى عيدهم ، ولم يبق في بلدهم إلا الصغار والمهرمون .

فقام إبراهيم ودخل بيت الأصنام — وكان القوم قد وضعوا الطعام بين أيديها — (فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ • مَا لَكُمْ لَا تَنْتَفِقُونَ) استهزاء بهم ، وكانت في جانب البيت فأس ، فأخذها وكسرها هذا الصنم ، وكسر يد هذا الصنم ورجل هذا ورأس هذا . قال آله عز وجل : (قَرَأَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) وترك كبيرهم كما أخبر الله تعالى : (بِمَعْلَمِهِمْ جُذَاءً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ) ثم علق الفأس في عنق الصنم الأكبر ورجع إلى منزله .

وأقبل القوم بعد فراغهم من عيدهم ، فرأوا أصنامهم على ذلك ، فقالوا : (مَنْ قَلَّ هَذَا بِالْهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ • قَالُوا سَمِعْنَا قَتْلَ ذُرِّيَّتِهِ يَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) وبلغ الخبر نمرود . قال : (فَأَتَوْا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) يعني عذابه . فلما أتوا به (قَالُوا عَائِتْ فَفَعَلَتْ هَذَا بِالْهِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ • قَالَ بَلْ فَسَلَّهَ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْتَفِقُونَ) قال بعضهم لبعض : (إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ • ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْتَفِقُونَ • فَصَاحُوا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ : أَفَأَسْرَأْنَا بِذَلِكَ وَاتَّعَمَلْتُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ لَا تَسْمَعُونَ وَلَا تَبْصُرُونَ • قَالَ إِبْرَاهِيمُ : (أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّهُمْ أَفَ لَكُمْ عِلْمٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) فقال القوم لنمرود ما أخبرنا الله تعالى عنهم : (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) .

٤٦

وكان لعمود تتور من حديد يُحرق فيه من غضب عليه، فأمر به فأُشجِرَ فطرح إبراهيم فيه، فلم تضره النار بقدره الله؛ فلما رأى عمود ذلك جمع أهل مملكته واستشارهم، فأشاروا أن يحبسوه ويجمع له الحطب الكثير، ويضرم فيه النار، ثم يلقيه فيه إذا صار جمرا. وقالوا: إنه لا يقدر يسحر النار الكبيرة، ولا يعمل سحره فيها.

- عند ذلك حبسه وأمر بجمع الأخطاب؛ فيقال: إن الدواب أمتعت من حملها إلا البغال، فأعقماها الله عقوبة لذلك؛ فجمعوا من الأخطاب ما لا يحصى كثرة؛ وأمر أن تُحفر حفرة واسعة، وتبنى حولها حائطا عاليا، وألقي فيها تلك الأخطاب وأضرم فيها النار والنقط ثلاثة أيام، فكان لها بها يصيب الطائر في الجو فيُحرق.

قال: وهموا بطرح إبراهيم فيها، فلم يقدروا يقرّبوا منها.

- فيقال: إن إبليس أتاهم في صورة شيخ، وصنع لهم المنجنيق، ولم يكونوا يعرفونه قبل ذلك، ووضعوا إبراهيم في كفة المنجنيق، ورموا به وهو يدعو الله أن ينصره عليهم؛ فعارضه جبريل وهو في الهواء، وقال له: ألك حاجة يا إبراهيم؟ قال: أما إليك فلا، بل حسبي الله ونعم الوكيل.

فلما قرب من النار قال الله عز وجل: (يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ).

- قال ابن عباس — رضى الله عنهما —: لو لم يقل «وسلاما» لمات إبراهيم من شدة البرد.

فبرد حرها وأخضرت الأشجار التي احترقت ورست بصروفها.

فلما أصبح عمود جلس في مكان مُشرف ينظر إلى ما أصاب إبراهيم من النار؛ فكشِفَ عن بصره فإذا هو برجل في وسطها على سرير، عليه ثياب خضر وإلى جنبه رجل آخر؛ وخلق كثير وقوف من ورائهما؛ فعدا بصاحب المنجنيق

وقال له : كم أقيت في النار ؟ قال : إبراهيم وحده . فمجب وعجبت الناس وقال : اذهبوا وأنظروا من القاعد على السرى ومن إلى جنبه وحوله . فاتوا فإذا هم بإبراهيم على أحسن صورة ، فأخبروا نمرود ، فقال : اتوني به . فقالوا : لا نستطيع الوصول إليه لحز النار . فنادوه : يا إبراهيم ، أخرج إلينا . فخرج إلى نمرود وقال له : ما أعجب سمحك يا إبراهيم ! قال : ليس هذا بسحر ، وإنما هو من قدرة الله تعالى . قال : فن الذي عن يمينك ؟ قال : ملك جاءني من عند ربّي بشرني أنّ الله اتخذني خليلاً . فقال نمرود : لأصعدك إلى السماء وأقتل الملك .

ذكر خبر صعود نمرود إلى السماء على زعمه

- قال : وأمر نمرود أن يتخذ له تابوت مرصع ، ويكون له بابان : باب إلى السماء وباب إلى الأرض ، وجوّع أربعة نسور ، وسرّ أربعة رماح في أركان التابوت ، وعلق اللحم في أعلاها ، وشدّ النسور بأوساطها إلى الرماح ، وجلس في التابوت ومعه وزيره ، وحمل معه قوساً ونشاباً ، وأطبق البابين ، فرفعت النسور رؤوسها فنظرت إلى القيم ، فطارت صاعدة ، وآتفت في الهواء ، فقال لوزيره : افتح الباب الذي على الأرض وأنظر كيف هي ؟ قال : أراها كأنها قرية . قال : فانظر إلى السماء . فقال : هي كما رأيناها ونحن في الأرض . ولم يزل يصعد حتى قال : أما الدنيا فلا أراها إلا سواداً ودخاناً ، والسماء كما رأيناها .
- وآرتمت النسور حتى كادت تسقط إلى الأرض ، فعارضه ملك وقال : ويلك يا نمرود ؛ إلى أين ؟ قال : أريد محاربة الله إبراهيم . قال : ويحك ، إنّ بينك وبين سماء الدنيا نحو مائة عام ، ومن فوق ذلك ما لا يسله إلا الله . فخر الوزير ميتاً ، فأخذ نمرود القوس ووضع فيه السهم ، وقال : أنا لك يا الله إبراهيم ، ورمي بالسهم إلى الهواء ، فيقال : إنّ ذلك السهم عاد إليه ملطخاً بالدم بلذّن الله .

- وأمر الله جبريل أن يضرب التابوت بمحاربه ، فيلقيه في البحر ، فضربه
فترجى به حتى ألقاه في البحر ، وأمر الله الأمواج أن تلقيه إلى الساحل ، فلما
وصل إلى البر خرج وقد أبيضت لحيته لما عاين من الأحوال ، وتوصل من بلد إلى
بلد حتى أتى المدينة ، فدخل منزله ليلا فانكره الناس لشبهه ، ثم عرفوه ، وجاءه
إبراهيم فقال : كيف رأيت قدرة ربّي ؟ قال : قد قتلُ ربك . قال : إن ربّي
أعظم من ذلك ، ولكن هل لك قوة — مع كثرة جنودك — أن تقايني ؟ قال : نعم .

ذكر خبر إرسال البعوض على نمرود وقومه

- قال : وأمر نمرود جنوده فأجتمعوا لحرب إبراهيم وهم لا يحصون كثرة ، وخرج
إبراهيم في سبعين من قومه الذين آمنوا في الصحراء ، فأرسل الله عليهم البعوض حتى
أمتلأت منه الدنيا ، ولدغت جيش نمرود ، فمات من لدغها خلق كثير ، والتجأ
الباقون إلى الدور ، وأغلقوا الأبواب وأسبلوا الستور ، فلم تن عنهم شيئا ، وأفرد
نمرود عن جيشه ، ودخل منزله وأغلقت الأبواب ، وأرخت الستور ، واستلقى
على سريره ، فجاءت بعوضة ففقدت على لحيته ، فهمت بقتلها ، فدخلت منخره
وصعدت إلى دماغه ، فعذبه الله بها أربعين يوما لا ينام ولا يطعم ، ثم شقت رأسه
وخرجت في كبر القرح ، فمات .

- وقيل : إنه آخذ إرزة من حديد ، فكان صديقه الذي يضرب بها رأسه
فأفلق رأسه بضربة فخرجت كالفرخ وهي تقول : هكذا يهلك الله أعداءه ، وينصر
أنبياءه ، ويسلط رسله على من يشاء .

وأرسل الله الزلازل على المدينة ، فخربت .

- قال : وجاء لوط وهو أبن أخت إبراهيم ، وآمن به ، وآمنت سارة ، فزوج بها إبراهيم .

ذكر هجرة إبراهيم — عليه السلام —

قال : وجمع إبراهيم أصحابه الذين آمنوا به ، وسار يريد الشام ، بقاء إلى (حران) فأقام بها مدة من عمره ، وترك بها طائفة من المؤمنين ، وسار حتى أتى الأردن وكان أسم ملكها صادق ، فتربه وهو في منطرة له ، فنظر إلى سارة مع إبراهيم فأحضرهما ، وقال لإبراهيم : من أنت ؟ قال : أنا خليل الله إبراهيم . وذكر له ما كان من أمر نمرود . فقال له : من هذه ؟ قال : هي أختي . فقال : زوجنيها . قال : هي أعلم بنفسها مني ، وإنها لا تحل لك . فأغتصبها منه ، وقام إلى مجلس آخر وأمر بجعلها إليه . فدعا إبراهيم الله تعالى ، فأرتج المجلس بالملك ، وبسبب يده فقال لسارة : ألا ترين ما أنا فيه ؟ قالت : لأنك أغضبت خليل الله .

قال : فتضرع إلى إبراهيم ؛ فسأل الله في رد يده عليه ؛ فأوى الله إليه : لا أطلقه دون أن أخرجيه من ملكه ويُسلم ؛ فأُسلم وخرج عن الملك ، ووهب سارة هاجر ، وهي أم إسماعيل .

قال وأرتحل إبراهيم حتى أتى الأرض المقدسة فزما .

وقد روينا هذه القصة بسندنا إلى البخاري — رحمه الله —

وسند ذكر الحديث — إن شاء الله تعالى — في أخبار طرطيس أحد الملوك بمصر ، فقد ورد أنه صاحب القصة ؛ والله أعلم .

ذكر خبر ميلاد إسماعيل — عليه السلام — ومقامه وأمه في البيت المحترم قال : وأقام إبراهيم بالأرض المقدسة ما شاء الله أن يقيم حتى كبرت سارة وأيست من الولد ، نخافت من أقطاع نسل إبراهيم — عليه السلام — فوهبت هاجر فقيلها ، وواقفها ، فحملت بإسماعيل ، ووضعت كالكمر وفي وجهه نور نيتا عهد

صلى الله عليه وسلم ؛ فأجته سائة حتى بلغ من عمره سبع سنين ، فداخلت الغيرة سائة ، ولم تطلق أن ترى إبراهيم مع هاجر ، فقالت : يا نبي الله ، إني لا أحب أن تكون هاجر معي في الدار ، فقولها حيث شئت .

فلوحى الله إليه أن آتلفها إلى الحرم ؛ وجاءه جبريل بفرس من الجنة ، فقال له : يا إبراهيم ، أحمل هاجر وإسماعيل على هذا الفرس . فأركب إبراهيم هاجر وإسماعيل من ورائها ، وسار بهما حتى بلغ الحرم .

فلوحى الله إليه أن آتلف بهما هاتين . فأنزلهما بالقرب من البيت ، وهو يومئذ أكمة حمراء كالربوة من تخريب الطوفان . ثم قال إبراهيم لهاجر : كوني هاتين مع ولدك فإني راجع ، فبذلك أمرني ربي . فلما أراد إبراهيم أن ينصرف قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُونِهَا بَوَادٍ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .
ثم رجع وتركهما هناك ولا ثالث لهما إلا الله تعالى .

فلما علا النهار ، وأشدت الحر ، وفقد ما معهما من الماء ، قامت هاجر تمدد يميناً وشمالاً في طلب الماء فلم تجده ؛ فبادت إلى إسماعيل فرأته يبحث بأصابعه في موضع بئر زمزم وقد نبغ الماء ؛ فسجدت لله ، وأخذت تجمع الحصى حول العين لئلا ينتشر الماء وهي تقول : زُمُّ زُمُّ يا مبارك .

فناداها جبريل : لا تخافى وأبشري ، فإن الله سيعمر هذا المكان .

قال وهب : لولا أن هاجر جمعت الحصى حول الماء لتمت العين نهراً جارياً على وجه الأرض إلى يوم القيامة .

قال : وأقبل ركب من اليمن يريدون الشام ، وطرقتهم على الحرم ، فرأوا الطير تهوى إلى الأرض ، فقالوا : إن الطير لا تنقص إلا على الماء والماءة .

وأقبلوا قرأوا هاجرو إسماعيل والعين؛ فسألوها ، فقالت : أنا جارية خليل
الله إبراهيم وهذا ابنه ، خلقتنا وأنصرف إلى الشام .

فأستأذنوها في الماء؛ فأذنت لهم . ثم قالوا : هل أحد يتازعك على هذا الماء؟
قالت : لا ، فإن الله أنجزه لي ولولدي . قالوا : إن حضرننا بأهاليينا وسكننا
في جواركم هل تمنعينا من هذا الماء ؟ قالت : لا ، فإنه لله يشربه خلق الله .

فرجعوا إلى بلدكم ، وأحملوا أهاليهم وأتوا الحرم بها وبمواشيهم ، فصاروا
لها أنسا .

ونشأ إسماعيل حتى بلغ مبلغ الرجال ، فكان يخرج إلى الصيد معهم ويرجع
ومات أمه هاجر ، وتزوج إسماعيل منهم ، وبلغ إبراهيم خبر موت هاجر ، فأشفاق
إلى إسماعيل ، فأستأذن سائة في ذلك ، فأذنت له ، بغناه جبريل بفرس فركبه وسار
حتى وقف على بيت ولده إسماعيل بالحرم ، فقال : السلام عليكم يا أهل المنزل .
فقالت له المرأة : إن صاحب البيت غائب . فقال إبراهيم : إذا رجعت فقولى له :
أبديل عتبة دارك ، فإنى لا أرضاها لك . وانصرف إلى الشام .

فلما عاد إسماعيل أخبرته بالخبر ، فقال : صفه لي . فوصفته ؛ فقال : الحق بأهلك .
بغناه أهلها وقالوا : ما الذى كرهت منها ؟ قال : لأننا لم نعرف لخليل الله قدرا .

ثم تزوج امرأة من جرهم ، فأولدها إسماعيل ستة أبطن ، فاشفاق إبراهيم إلى
ولده ، بغناه جبريل بفرس فركبه وسار إلى الحرم ، وقد عمر ذلك المكان بجرهم ؛
فوقف على باب إسماعيل وقال : السلام عليكم يا أهل المنزل . فبادرت المرأة
وسلمت عليه ، وقالت : فدتك نفسى ، إن صاحب المنزل غائب ، وإنه يعود عن
قريب . قال : هل عندك طعام ؟ قالت : نعم ، عندنا خير كثير . وجاءته بطبق

عليه لحم مشوي من الصيد ، وقدج فيه ماء . قال : فهل غير هذا من حب
أو زبيب ! قالت : يا عمّاه ، ما هذا طعام بلدنا ، ولكنه يُحبب إلينا ، فَأَنْزِلْ مِنَّا
وتناول طعامنا . قال : إني صائم ، ولكن عليّ ذَرْقُ الطيرِ فَأَغْسِلِيهِ . وحَوَّلَ قدمه
عن القُرس ، ووضعهُ على المَقَامِ ؛ ففُضِلَتْهُ ، فقال : إذا جاء زوجك فسلّمي عليه
وقولي له : إِزْمِ عتبة بابك فقد رَضِيَتْهَا لك . وأنصرف .

فلما رجع إسماعيل من الصيد أخبرته الخبر فقال : لقد كنتِ كريمة عليّ
وقد صرت الآن أكرمَ بكِ كرامك أبي خليل الله إبراهيم .

ثم أشتاق إبراهيم إلى ولده ثالثاً ، وذلك بعد ثلاث وعشرين يوماً ، بغاء إليه
ولقيه ، وأمره الله أن يبنى البيت ، فبناه ؛ وأناه جبريل فعلمه مناسك الحج .

وقد تقدّم ذكر ذلك ميّناً في الباب الثاني من القسم الخامس من الفن الأول
وهو في السفر الأول من كتابنا هذا ، فلا حاجة لنا في إعادته .

قال : ورجع إبراهيم إلى البيت المقدس ، وأوحى الله إليه أن يرسل لوطاً نبياً
إلى سدّوم ؛ فأرسله .

وكان من أمره ما نذكره في أخباره في الباب الذي يلي هذا الباب — إن شاء
الله تعالى .

١٥

ذكر خبر بشارة إبراهيم بإسحاق — عليهما السلام —

قال : وبث الله الملائكة إلى إبراهيم حين أرسلهم بالعناب على قوم لوط
وأمرهم أن يبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ؛ فأنوه على صورة البشر
وم جبريل وميكائيل وإسرافيل ودريائيل .

٢٠

(١) في (ج) : « روث » - (٢) في كتاب الكسائي : « ضلت رأسه » .

قال : فأتوه مفاجأة على خيولهم ، ودخلوا عليه منزله ففزع منهم ، حتى قالوا :
 (سَلَامًا) . فسكن خوفه ، وقال : (سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ) ورحب بهم وأجلسهم
 وقام إلى زوجته سارة وأمرها بخدمتهم ، فقالت : عهدي بك وأنت أغير الناس .
 قال : هو كما تقولين ، وإنما هؤلاء أضياف أخيار . ثم قام إلى عجل سمين فذبحه
 وشواه ، وقربه إليهم ، ووقفت سارة لخدمتهم ، فجعل إبراهيم يأكل ولا ينظر إليهم
 وهو يظن أنهم يأكلون ، فرأت سارة أنهم لا يأكلون ، فنبهته على ذلك ، فقال :
 (أَلَا تَأْكُلُونَ) ؟ ودخله الخوف من ذلك ، ثم قال : لو علمت أنكم لا تأكلون
 ما قطعت العجل عن البقرة .

فد جبريل يده نحو العجل ، وقال : قم بإذن الله . فاشتد خوف إبراهيم وقال :
 (إِنَّا نَمُنُّكَ وَجُلُونَ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ ابْشِرْ مُنُونِي عَلَى أَنْ
 مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ الْبَشَرِ) إلى قوله : (إِلَّا الضَّالُّونَ) .

قال : وكانت سارة واقفة هناك ، فقالت : « أَوَّه » (فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ
 عَجُوزٌ عَقِيمٌ) قال الله تعالى : (وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ) أى حاضت (فَبَشَّرْنَاهَا
 بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا
 إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ
 إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ) ولم تعلم أنهم ملائكة ، فقال لها جبريل : يا سارة ، (كَذَلِكَ
 قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ) . قال إبراهيم : (فَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
 قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ مِنْ قَبْلِهِمْ * لَتَرْسِلَ عَلَيْهِمْ حَمَاقَ مِثْلِ طِينٍ) ثم عاد جبريل
 إلى صورته ، فصرفه إبراهيم ، وعرفه أنهم يقصدون قوم لوط بالعذاب ، فأغم
 إبراهيم شفقة على لوط وأهله ، ثم قال : امضوا حيث تؤمرون .

وكان من أمر قوم لوط ما نذكره .

قال : وحملت سارة بإسحاق في الليلة التي خسف الله فيها بقوم لوط ، ووضعت
وعلى وجهه نور أضاء منه ما حولها ؛ فدخل إبراهيم وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ ورَبَّتْهُ سارة حتى بلغ سبع سنين .

ذكر خير النبيح وفدائه

- قال : وكان إسحاق يخرج مع أبيه إلى بيت المقدس ، فبينما إبراهيم في مصلاته .
اذغلبته عينه فنام ، فأتاه آت في منامه وقال : إن الله يأمرك أن تتقرب قربانا .
فلما أصبح عمد إلى ثور فذبحه وقرق لحمه على المساكين ، فلما كان الليل رأى
في منامه الذي أتاه وهو يقول : يا إبراهيم ، إن الله يأمرك أن تتقرب له قربانا أعظم
من الثور . فلما آتته ذبح جحلا وقرق لحمه على المساكين . ثم رآه في الليلة الثالثة وهو
يقول : إن الله يأمرك أن تتقرب قربانا أعظم من الثور والجمل . قال إبراهيم :
وما هو ؟ فأشار إلى ولده إسحاق ، فأنتبه فزعا ، وأقبل على إسحاق وقال له : ألسنت
تطعني يا بني ؟ قال : بلى ، ولو كان في ذبح نفسي .

فأنصرف إبراهيم إلى منزله ، وأخذ الشفرة والحبل ، فوضعهما في مخلاته
وقال : يا إسحاق ، امض بنا إلى الجبل .

- فلما مضيا أقبل إبليس إلى سارة وقال لها : إن إبراهيم قد عزم على ذبح إسحاق
فالحقه ورديه . قالت : ولم يذبحه ؟ قال : إنه زعم أن ربه أمره بذلك . قالت :
إن كان الأمر كذلك فإنه صواب إذا أراد رضى ربه . وقالت : اللهم أصرف
نزع الشيطان . فولى عنها هاربا ، وتبع إسحاق فتداه : إن أباك يريد أن يذبحك .
فقال إسحاق لأبيه : يا أبت ألا تسمع إلى هذا الهاتف ما يقول ؟ قال : يا بني
امض ولا تلتفت إليه ، فما أخبرك .

فلما آتتها إلى رأس الجبل قال إبراهيم : (يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا آيَّتُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) .
 فحمد إبراهيم ربه على ذلك ؛ فنودي من السماء : أليس الله قد صفك بالحلم فكيف لا ترحم هذا الطفل ؟ قال : إن الله قد أمرني بذلك . فقال إسحاق :
 يَا أَبَتِ عَجَلْ أَمْرَ رَبِّكَ قَبْلَ أَنْ يَنَالَ مَتَا الشَّيْطَانِ .

٥
 فترع إبراهيم قيصة وربطه بالحبل ، وكتبه على جبينه وهو يقول : الحمد لله باسم الله الفاعل لما يريد . ووضع الشفرة على حلقه ، فلما هم بذبحه ألقبت الشفرة ، فارتعدت يد إبراهيم ، فقال له إسحاق : يَا أَبَتِ ، حَذِّ الشُّفْرَةَ ، وَأَصْرِفْ وَجْهَكَ عَنِّي حَتَّى لَا تَرَحُنِي . قال : يَا بَنِيَّ ، قَدْ فَعَلْتُ حَتَّى لَوْ قَطَعْتُ بِهَا الْمِجَنَّ لَقَطَعْتُهُ بِحَذِّهَا .

١٠
 ثم وضع إبراهيم الشفرة على حلقه ثانيا ، وهم بقطع أوداجه ؛ فاقبلت ؛ فقال إبراهيم : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . فقال : أَصَبْتَ فِي قَوْلِكَ يَا أَبَتِ وَلَكِنْ حَذِّ شَفْرَتِكَ لِتَذْبَحَنِي ذَبْحًا ، وَلَا تَحْزَنْ . فخذ إبراهيم المذبة حتى جعلها كالنار ووضعها على حلق إسحاق ، فسمع إبراهيم هتة عظيمة ومتاديا يقول : يَا إِبْرَاهِيمُ خذْ هَذَا الْكَبِشَ فَادْبَحْهُ عَنْ أَبْنِكَ ، فَهُوَ قَرِيبَانِ عَنِّي ، وَهَذَا الْيَوْمَ جَمِلَ عَيْدَا لَكَ وَلَوْلَاكَ مِنْ بَعْدِكَ .

فالتفت إبراهيم إلى الجبل ، وإذا هو بكبش أملح أقرن ، قد أتحد من الجبل وهو يقول : خذني يَا إِبْرَاهِيمُ فَادْبَحْنِي عَنْ أَبْنِكَ ، فَأَنَا أَحَقُّ مِنْهُ بِالذَّبْحِ ، فَأَنَا كَبِشٌ هَابِيلُ بْنُ آدَمَ .

٢٠ (١) الهدة : صوت شديد تسمعه من سقوط ركن أو ناحية جبل . ويقال : الهدة صوت ما يقع من السماء .

فحمد إبراهيم ربه على ذلك ، وذبح الكبش ؛ فأثت نار من السماء بنير دخان
فأكله حتى لم يبق إلا رأسه ؛ وأنصرف إبراهيم وإسحاق ورأس الكبش معهما
إلى منزل إبراهيم ، وأخبر سارة بما جرى .

قال : ثم توفيت سارة بعد ذلك ، وتزوج إبراهيم بامرأة من الكنعانيين
وأولها ستة أولاد في ثلاثة أبطن .

وإبراهيم أزل من صاغ وعاق وفوق الشعر بالمشط وتفت الإبط وأستاك
وأكتحل وأختن بالقندوم .

ذكر وفاة إبراهيم — عليه السلام —



قال : فبينما إبراهيم على باب داره ، وإذا هو بملاك الموت وقد وافاه في أحسن
صورة ؛ فسلم عليه ؛ فأجابه وقال : من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت ، أمرني الله
بقبض رُوحك . ففكر إبراهيم الموت ؛ ثم تصوّر له في صورة شيخ كبير ، ودخل
على إبراهيم وقال : هل من طعام ؟ فقُدّم إليه طعام على طبق ، فجعل ملك الموت
يتناول الطعام ، ويحيل إلى إبراهيم أنه يلوث وجهه وعقه ، وأنه لا يستقر في طنه .
فقال له إبراهيم : أيها الشيخ ، ما بال هذا الطعام لا يستقر في بطنك ؟ قال : يا خليل
الله ، إني قد شُخْتُ ، ولستُ أتمكن منه إلا على هذا الوجه . قال : فكَمْ تمد من
السنين ؟ قال : قد جرت مائتي سنة . قال إبراهيم : وأنا في المائتين إلا سنة ، وإذا
مضى على مائتين أصبح كذا ؟ [قال : نعم]^(١) .

فدعا إبراهيم ربه أن يقبضه . فجاء ملك الموت ؛ فقال : يا ملك الموت
قد أشتقت إليك منذ رأيت ذلك الشيخ على تلك الصورة ، فأقبض رُوحى .
فقبض رُوحه صلى الله عليه وسلم .

(١) هذه العبارة لم ترد في الأصول . وقد أبتناها عن (قصص الأنبياء للكسائي) المتقول به هذا الكلام .

الباب الثاني من القسم الثاني من الفن الخامس

في قصة لوط — عليه السلام — وقلب المدائن

هو لوط بن هاران بن تارح ، وتارح هو آزر أبو إبراهيم — عليه السلام —
 وكان لوط قد شخص مع عمه إبراهيم — عليهما السلام — من المدائن إلى أرض
 الشام ، مؤمنا به ، مهاجرا معه ، ومع إبراهيم تارح وسارة بنت ماحور ، فلبس آتھوا
 إلى حران هلك تارح بها وهو باق على كفره ، وسار إبراهيم ولوط وسارة إلى
 الشام ، ثم مضوا إلى مصر وبها فرعون من الفراعنة يقال له : سين بن علوان
 ابن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام ، ورجعوا إلى
 أرض الشام فقتل إبراهيم فلسطين ، وأُتزل لوطا الأزدق ، فكان هناك إلى أن
 بعته الله نيا . ١٠

قال : وأوحى الله — عز وجل — إلى إبراهيم أن يرسل لوطا نيا إلى
 (سَدُوم) ، وكانت خمس مدائن ؛ وهى : (صامورا) (وصابورا) (وَسَدُوم) (وَدُومَة)
 (وعامورا) ، وهى المؤنككت ، وكان أعظمها (سَدُوم) وعلى كل مدينة سور عظيم
 مبنى بالحجارة والبرصاص ، وعليهم ملك يقال له : (سَدُوم) من بيت نمرود بن
 كنعان ، وكان أهل هذه المدائن قد خُصّوا بحذف الحصا والحقق في المجالس ١٥
 وعبادة الأصنام ، وكانوا حسان الوجوه ، فأصابهم قحط ، فأناهم إبليس فقال :
 إنما أصابكم القحط لأنكم منعتم الناس من دوركم ولم تمنعهم من بسايتكم . فقالوا :

(١) لم يذكر الأئوسى (صابورا) ولا (صامورا) ، وذ (مكاتها « مية » « وصمرة » ج ٣

ص ٥٩٤ . (٢) في تفسير الأئوسى ج ٣ ص ٥٩٤ طبع بولاق « دوى » مقصودا .

(٣) كذا ورد هذا اللفظ مضبوطا بالبارقة في تاج العروس مادة « حق » وهو الضراط . ٢٠

كيف السبيل إلى المنع؟ قال : اجعلوا السنة بينكم إذا دخل بلدكم غريب سلبتموه وتكسبتموه في دبره ، فإذا قُتلتم ذلك لم تهبطوا .

فخرجوا إلى ظاهر البلد فتصوّر لهم إبليس في صورة غلام أمرد ، فكسبوه وسلبوه ، فطالب لهم ذلك حتى صار فيهم عادة مع الغرباء ، وتعدوا إلى أهل البلد ، وفشا بينهم ، فأرسل الله إليهم لوطا ، فبدأ بمدينة (سدوم) وبها الملك ، فلما بلغ وسط السوق قال : يا قوم آتسوا الله وأطيعوا وأرجعوا عن هذه المعاصي التي لم تُسبقوا إليها ، وآتسوا عن عبادة الأصنام ، فأتى رسول الله إليكم .

فكان جوابهم أن قالوا : ﴿ أَكُنَّا بِمَنَازِلَ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وبلغ الخبر الملك ، فقال : « أَتُسَوِّى بِهِ » فلما وقف بين يديه سأله :
 ١٠ من أين أقبل ؟ ومن أرسله ؟ ولماذا جاء ؟ فأخبره أن الله أرسله . فوقع في قلبه الخوف والرعب ، وقال : إنما أنا رجل من القوم ، فأدعهم فإن أجابوك فانا منهم . فدعاهم فقالوا : ﴿ لَنْ لَمْ تَنْهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ . فقال لهم : ﴿ إِنِّي لَمَمْلِكُ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

١٥ فلبث فيهم عشرين سنة يدعوهم إلى الله وهم لا يسمعون .

ثم توفيت أمراءه ، فزوج بإمراته من قومه كانت قد آمنت به ، فأقام معها أعواما وهو يدعوهم حتى صار له فيهم أربعون سنة وهو يدعوهم بما أخبر الله به ويقول : ﴿ أَتَأْتُونَ الْقَائِلَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْقَائِلِينَ ﴾
 الآيات ، وهم لا يزدادون إلا كفرا وإصرارا وتماديا على أضالهم الذميمة ، فضجت الأرض منهم .

⑤

ذكر خبر نزول العذاب على قوم لوط وقلب المدائن

قد ذكرنا في قصة إبراهيم أن الله — عز وجل — أرسل الملائكة إليه وبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وأخبروه بما أمرهم الله به من إهلاك قوم لوط، وقال لهم : امضوا حيث تؤمرون .

فاستَووا على خيولهم ، وساروا إلى المدائن وهم على صفة البشر ، فاتوا المدائن

وقت المساء . فراهم أبنة لوط — وهي الكبرى من بناته — وهي تستقي الماء

— فتقدمت إليهم وقالت : ما لكم تدخلون على قوم فاسقين ؟ ليس يضيفكم

إلا ذلك الشيخ . فدخلت الملائكة إلى لوط ، فلما رآهم أعتم غماً شديداً مخافة عليهم

من شر قومهم . ثم قال لهم : من أين أقبلتم ؟ قالوا : من موضع بعيد . وقد حللنا

بإساحتك ، فهل لك أن تضيفنا الليلة ؟ قال : نعم ، ولكن أخاف عليكم من هؤلاء

الفاسين — عليهم لعنة الله — قال جبريل لإسرافيل : هذه واحدة — وكان الله

قد أمرهم ألا يدمروا على قومهم إلا بعد أربع شهادات من لوط ولعنته عليهم —

ثم أقبلوا إليه وقالوا : يا لوط ، قد أقبل علينا الليل ، فاعمل على حسب ذلك .

قال : قد أخبرتكم بأن قومي يأتون الرجال من العالمين — عليهم لعنة الله —

فقال جبريل لإسرافيل : هذه ثانية . ثم قال لهم لوط : انزلوا عن دوابكم

وأجلسوا ها هنا حتى يشتد الظلام ، وتدخلون ولا يشعر بكم أحد منهم — عليهم

لعنة الله — قال جبريل : هذه ثالثة . ثم مضى لوط والملائكة وراعه ، فدخل

المتزل ، وأغلق الباب ، وقال لأمرأته : إنك قد عصيت الله أربعين سنة

وهؤلاء ضيفاني قد ملأوا قلبي خوفاً ، فأكتمى على أمرهم حتى يغفر الله لك

ما مضى . قالت : نعم . ثم خرجت ويدها سراج كأنها تُسْمَل ، فطافت على عتبة

من القوم ، فأخبرتهم بمجالهم وحسنهم ، فعلم لوط بذلك ، فأغلق الباب وأوثقه ؛ فأقبل الفساق وقرعوا الباب ، فناداهم لوط : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَأَقْصُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُنُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا أَتَقْدَعِلِمَتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ ثم كسروا الباب ، ودخلوا ، فقالوا له : ﴿ أَوَلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْمَالِينَ ﴾ .

فوقف لوط على الباب الذى دونه ضيفانه وقال : لا أسلم ضيفانى إليكم دون أن تنهب نفسي .

- فقدّم بعضهم ولطم وجهه ، وأخذ بلحيته ، ودفعوه عن الباب ، فقال : أوه ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ ثم قال : إلى خذلى بحق من هؤلاء الفسقة وألعنهم لئلا يكبرا . فقال جبريل عند ذلك : هذه أربعة . وقام جبريل ١٠ ففتح الباب وقال للوط : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ ﴾ فهجم القوم . ودخلوا وبادروا نحو الملائكة ، فطمس الله أعينهم ، وأسوت وجوههم . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ بغابت طائفة أخرى ونادوهم : اخرجوا لندخل . فنادوا : يا قوم ، هؤلاء قوم سمرة سمحوا أعيننا فانرجونا . فانرجوهم ، وقالوا : يا لوط ، حتى نصبح نريك وبناتك . ونرجوا ١٥ فقال لوط للملائكة : بماذا أرسلتم ؟ فأخبروه ، فقال : متى ؟ قالوا : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ .

- ثم قال له جبريل : ﴿ فَاسْرِ بِأَهْلِكَ يَقْطَعِ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْقَفْتَ مِنْكُمْ أَحَدًا إِلَّا أَمْرًا إِنَّكَ إِنَّمَا تُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ بجمع لوط أهله وبناته ومواشيه ، وأخبره جبريل من المدينة ، وقال له : ﴿ إِنَّ دَارَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ ومضى لوط ٢٠

بمن معه ، وجبريل قد بسط جناح النضب ، و إسرائيل قد جمع أطراف المدن
ودريائيل قد جعل جناحه تحت الأرض ، وملك الموت قد تهيأ لقبض أرواحهم
حتى إذا برز عمود الصبح صاح جبريل صيحة : يا بئس صباح قوم كافرين .
وقال ميكائيل : يا بئس صباح قوم فاسقين . وقال دريائيل : يا بئس صباح قوم
ظالمين . وقال إسرائيل : يا بئس صباح قوم مجرمين . وقال عزرائيل : يا بئس
صباح قوم غافلين .

فاقتلع جبريل هذه المدن عن آخرها ، ثم رفعها حتى بلغ بها إلى البحر الأخضر
وقلبها ، فجعل عاليها سافلها . قال الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤَفَّفَكَ أَهْوَى ، فَفَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾
يعني رعى الملائكة إياهم بالمجاعة من فوقهم .

قال : وأسبغظ القوم ، وإذا هم بالأرض تهوى بهم ، واليران من تحتهم
والملائكة تحذفهم بالمجاعة .

قال : ومن كان من القوم يغير مدائنهم بمن كان على دينهم وفعلهم أتاه
حجر فقتله .

قال : وبقي يخرج من تحت المدائن دخان متن ، لا يقدر أحد يشمه
لنته . وبقيت آثار المدائن . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال : ومضى لوط إلى إبراهيم — عليهما السلام — فذلك قوله عز وجل :
﴿ وَلَوْطًا أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمًا سَوِيًّا فَاسِقِينَ ﴾ . وأدخلناه في رحمته إنه من الصالحين .

(١) في إحدى نسخ الكسائي : « تلك » مكان قوله : « تحت » .

الباب الثالث من القسم الثاني من الفن الخامس

في خبر إسحاق ويعقوب — عليهما السلام —

قال : ولما قبض الله تعالى إبراهيم الخليل — عليه السلام — سكن إسماعيل الحرم ، وإسحاق الشام ومدين ، وسكن معه سائر أولاد إبراهيم ، وبنيته الله إلى الأرض المقدسة نبياً ورسولاً ، فأقام بينهم نحواً من ثمانين سنة ، وكفّ بصره فينا هو نائم إلى جنب أمراءه إذ تحركت شهوته ، فقالت : وفيك بقية يا إسحاق؟ فواقمها مرة فحملت بذكرين : وهما يعقوب والعيس — على ما ذكرناه في الأنساب — وهو في الباب الرابع من القسم الأول من الفن الثاني ، وهو في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، وذكرنا أيضاً أولاد العيس فيه .

- ١٠ قال : ثم قبض الله تعالى نبيه إسحاق ، فقسم ما كان له من بقر وخيل وغنم وغير ذلك بالسوية ، ومات ؛ فنلب العيس على مال يعقوب ، وأغضبته إياه وقصد قتله ؛ فقالت له أمه : الحق بخالك (لأبائ) وإخوته بخران ، فإنهم مؤمنون من آل إبراهيم .

- ١٥ فتوجه يعقوب إلى حران ، فأكرمته خاله ، وزوجه أخته ، وسلم إليه ما بيده من المال ، وكانت أخته هذه الكبرى ، وأسمها (ليآ) ^(١) فرزق منها روبيل ^(٢) وشعمون ^(٣) ، ثم ذكرين : لاوى ويهوذا ، وتوفيت ؛ فزوجه خاله أخته الثانية وأسمها

(١) كذا ضبط هذا الاسم بكسر اللام في فهرست تاريخ الطبري المطبوع في أوربا . والقي في التوراة ص ٤٩ « ليآ » بفتح اللام وبالحز في آخره . (٢) كذا في تاريخ العيس . والقي في التوراة « راوين » بفتح الراء . (٣) كذا ضبط هذا الاسم في القاموس بفتح الشين . وضبط في التوراة بكسرهما ، وهو شمعون الصفا . (٤) في التوراة : « لاوى » بكسر الواو .

سرورية^(١) ، فولدت له ولدين : دانا وقتالي^(٢) ، ثم توفيت ، فزوجه الثالثة فأولدها
 ذكرين يسائر^(٣) و زبولون ، وماتت ؛ فزوجه آبته الرابعة ، وأسماها راحيل — وكانت
 أحسن بناته — وذلك بعد أن استكمل يعقوب من عمره أربعين سنة ، بتمامه الوحي
 يومئذ وهو بحزان وقد مات أمه .

ذكر مبعث يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام

قال : ولما أتاه الوحي أقبل على خاله لايان ، وشكره على فعله ، وقال : إن
 ربى بعثنى رسولا إلى أرض كنعان . فزوجه بجبل وغم وبقر وغير ذلك ، وقال :
 امض لما أمرك به ربك . فخرج يعقوب ومعه أولاده المشرة وامراته يريد أرض
 كنعان ، فبلغ خبر نبوته أهله العيص ، فنضب لذلك ، وعارضه في طريقه يجوعه ؛
 فرأسله يعقوب مع ابنه رويسل ، وذكره الأخوة والرحم ، فزبر رويسل وردته ؛
 ثم التفتا ، فظفر الله يعقوب بالعيص بقوة النبوة ، فاحتمله وألقاه على الأرض
 وجلس على صدره ، وقال له : كيف رأيت صنع الله بك يا عيص ؟ ثم رق له وقام
 عن صدره وأعتقه ، فأعترف العيص بفضلته عليه ، وسأله أن يعفو عما سلف منه
 في حقّه ؛ فاستغفر له يعقوب ودعا له ، وأنصرف العيص إلى بلده ، وأقبل يعقوب

(١) في تاريخ النبي ونسب الأوسى والنسب بوزي وغيرها من الكتب أن دانا وقتالي واثنين آخرين
 لم يذكرهما المؤلف هنا ، وهما جاد وأثر ، من مرتبين ليعقوب ، إحداهما زلفة ، والثانية بله . وهذا
 هو ما يستفاد من التوراة أيضا . (٢) في تاريخ النبي ونسب الأوسى « يثتال » بالياء مكان
 النون . والذي في الأصل هو ما في التوراة . (٣) كذا في الأصول وتاريخ النبي . والذي
 في التوراة « يساكر » بفتح الياء وتشديد السين وكاف بعد الألف . (٤) يلاحظ أن المؤلف
 لم يذكر فاسيق من أولاد يعقوب غير ثمانية ، ولم يذكر ولديه من راحيل وهما يوسف وبنايمين .
 فتوله هنا : « المشرة » غير ظاهر . ويؤخذ مما يأتي في صفحة ١٣٠ سطر ١٧ أنه لم يرزق بولديه
 من راحيل إلا بعد خروجه إلى أرض كنعان وغزوة الملكها . (٥) ذيره ، أى أتهره .

إلى أرض كنعان ، فبيت له دار مَسْعة ، سكنها بأهله وأولاده ، وكان بأرض كنعان ملك يقال له : سحيم ، فدعاه يعقوب إلى الإيمان بالله ، فلم يكثر به قال : فأنى مجاهدك . قال : بمن تجاهدنى وليس معك أحد ؟ قال : أجاهدك بالله ولائكنه وهؤلاء أولادى .

- وأقبل يعقوب بأولاده والملك في حصنه ، فقال : يا بنى ، جاهدوا في الله حق جهاده . فقال ابنه شمعون : أنا أكفيك هذا الحصن . وأقبل وضرب باب الحصن برجله فتساقطت حيطانه ، وصاح صبيحة عظيمة فأت الملك وأكثر من بالحصن . ودخل يعقوب الحصن ، وغم ما كان فيه ، فكانت هذه معجزة ليعقوب ، وبلغ ذلك أهل كنعان ، فوقع العرب في قلوبهم ، فأمنوا بيعقوب — عليه السلام — .

١٠

الباب الرابع من القسم الثانى من الفن الخامس

في قصة يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام
وهذه القصة تدخل فيها بقية أخبار يعقوب وما كان من أمره ووفاته
وغير الأسباط أولاده .

٥٣

- ١٥ ذكر خبر ميلاد يوسف — عليه السلام —

قال : ولما رجع يعقوب من غزاته دخل على امرأته راحيل فواقعا فحملت بيوسف وبينامين أخيه ، فوضعتهما ، فجاء يوسف كالنمر ، فربته أمه حتى صار عمره ستين ، وماتت أمه ، فلما بلغ عمره عشرين أمر يعقوب بجدعة من غنمه ، فذبحت ، وصنعت طعاما ، وجمع أولاده على الطعام يأكلون ، فأقبل

مسكين وسأل وأكثر السؤال ، واشتغل يعقوب عنه ولم يأمرهم بإطعامه ، حتى أنصرف السائل .

فلما فرغ يعقوب من أكله قال : أعطيت السائل شيئاً ؟ فقالوا : إنك لم تأمرنا بشيء . بغاءه الوحي : يا يعقوب ، قد جاعك مؤمن فقير مريض شم رائحة طعامك فلم تطعمه ، وأحرقت قلبه ، فلا تحرق قلبك . فأغم يعقوب .

ذكر رؤيا يوسف — عليه السلام — وكيف إخوته له

قال : ولما بلغ أنتى عشرة سنة رأى رؤياه وقصها على أبيه . قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَايَهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَحْنِكُكَ رَبُّكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قال : فسمع إخوته الرؤيا ، فداخلهم الحسد ، وقالوا ما أخبر الله به عنهم : ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى آبَانَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَمْلِكُ لَكُمْ وَجَهٌ بَيْنَكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَنِيهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

قال : فاتفقوا وجاموا إلى أبيهم ، فقالوا : ﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاجِحُونَ * أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَنَحَافَظُونَ ﴾ . فقال لهم يعقوب : ﴿ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا نَبْنِئُ لَهُ كَلْبًا يُصَافِرُ * قَالَ يُوسُفُ أَهْلِي بِمِصْرَ نَحْنُ الْغَافِلُونَ * قَالُوا نَبْنِئُ لَهُ كَلْبًا يُصَافِرُ * قَالَ يُوسُفُ أَهْلِي بِمِصْرَ نَحْنُ الْغَافِلُونَ ﴾ .

- قال : وأحب يوسف ذلك ، فدنا يعقوب بسلة فيها طعام وكوز ماء ، وقال :
- إذا جاع فأطعموه من هذا الطعام ، وإذا عطش فاسقوه ؛ وأخذ عليهم اليهود برته
- وشيعهم بنفسه ، وجلس على تل عال ينظر إليهم حتى غابوا عنه ؛ فندم على إرساله
- ثم رجع إلى منزله ؛ وجعل إخوة يوسف يُعنون في السير ، وهو يمشي وراءهم ولا
- يلحقهم ، ويناديهم : « قفوا لي » . فلم ينفقوا . ويقول : « اسقوني » . فلم
- يسقوه ؛ وكسر شمعون الكوز وقال : قل لأحلامك الكاذبة حتى تسقيك . ورمى
- (لاوى) سلة الطعام في الوادي ؛ فلم يوسف أنهم قد عزموا على أمر ، فتأداهم
- وناشدهم الله والرحم ، وذكّرهم بمهود أبيه ، فطمه أحدهم فأكّبه ؛ وساروا ويوسف
- يعدو وراءهم حتى بلغوا موضع أغنامهم ، فأرادوا قتله ؛ فقال لهم يهوذا : إن قتلتموه
- حلّ بكم ما حلّ بقايل حين قتل أخاه . فأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الحب
- وطلبوا له جبا عميقا فوجدوه ، فجزوه إليه وهو يبكي ، فقال لهم يهوذا : يا بني يعقوب
- لقد ذهب الرحمة من قلوبكم . قالوا : فترده إلى أبيه فيحدثه بما فعلناه به ؟ قال :
- فإن طرّحتموه في الحب لا يبلغ قعره حتى يموت ، ولكن دلوّه بجبل . ولم يكن
- معهم جبل ، فذبحوا شاة ، وقذّوا جلدها كالجل ، ودلوّه به ؛ فلما نزل إلى الحب
- أمسلاً نورا ، وأناه جبريل وقال له : لا تخف فإن الله معك . وكان في الحب
- محجر عظيم ، فسقطه جبريل بجنّاحه فصار كالطبق وأجلسه فيه ، وأناه بطعام
- من الجنة فاكل ، وأناه بقميص قبيص . وبقراش من الجنة ، وآنسته الملائكة
- في الحب .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَعَوْا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْحُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال : ثم قالوا : ماذا نقول لأبينا ؟ قال بعضهم : إنه كان يخاف عليه من الذئب ، فنقول : إن الذئب أكله . فعددوا إلى جدى فذبحوه على قيصه ، والصقوا بالدم شيئا من شعر الجدى ، ورجعوا إلى أبيهم .

ذكر رجوع إخوة يوسف إلى يعقوب

قال : ولما قُربوا من عرش يعقوب أخذوا في البكاء والمويل ، فرأىهم أبنة يعقوب ، فزلت إلى أبيها باكية ، وقالت : رأيت إخوتي متفرقين سيكون ، ورويل يقول : « يا يوسف يا يوسف » ، فصاح يعقوب - ونحر على وجهه - فدخلوا عليه وقالوا : يا أبانا ، جلت المصيبة وعظمت الرزية ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّيْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَبِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ . وأخذ يعقوب القميص - ونظر إليه فلم يرفه أترخدش فقال : يا بني ، ما للذئب وأكل أولاد الأنبياء ؟ وأخذ يبيك ، ثم قال : أخرجوا في طلب هذا الذئب ، وإلا دعوت عليكم قتهلكوا . فخرجوا فأخذوا ذئبا عظيما وجعلوا يضر بونه ويمحزونته ، حتى جاءوا به إلى أبيهم ، فقال : كيف عرفتموه ؟ قالوا : لأنه ذئب كبير ، وكان يتعرض لنا في غنمنا .

ذكر كلام الذئب بين يدي يعقوب

فقال يعقوب : سبحان من لو شاء لأطلقك بمجنتك . فنطق الذئب وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يا بني الله ، إني ذئب غريب ، قدت ولدا لي جفت في طلبه حتى بلغت بلدك ، فأخذني هؤلاء وضربوني وكذبوا علي ، والذي أطلقني ما أكلت ولداك ، وكيف يأكل الذئب أولاد الأنبياء ؟ فأطلقه يعقوب .

ذكر خير خروج يوسف من الحبّ وبيعه من مالك بن دُغر

قال : وأقبل قوم من بلاد اليمن يريدون أرض مصر، فخرج بعضهم في طلب الماء، فرأى نورا يسطع من البئر، فأدلى دلوّه، فتعلق به يوسف، فاجتذبه، فنظر إليه فرآه، فقال للذي كان معه : (يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) . فانرجوه .

- قيل : وذلك في اليوم الرابع من إلقائه في الحبّ . وكان إخوته على رأس جبل فنظروا إلى اجتماع القافلة على الحبّ . فعبدوا إليهم ، وقالوا : هذا عبد لنا أبى منذ أيام ، ونحن في طلبه . فإن أردتم بعثه منكم .

ثم قالوا ليوسف بالعبرانية : إن أنكرت العبودية أترعنك من أيديهم وقتلناك . فساله أهل القافلة فقال : « إني عبد » ، أراد الله .

- ١٠ • وكان رئيس القافلة مالك بن دُغر ، فاشتراه منهم بأقل من عشرين درهما .
- قيل : تنقص درهما . وقيل : تريد درهين . وقيل : اشتراه بأربعين درهما والله أعلم . فاقسموها بينهم .

- قال الله تعالى : (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)
- ثم قالوا لمالك : هذا عبد أبى سارق ، قيده حتى لا يهرب منك ولا يسرق .
- ١٥ • فقيده وأركبه ناقة ، وكتب يهوذا كتاب البيع، وساروا حتى بلغت القافلة قبر أم يوسف ، فلم يملك أن رمى بنفسه على القبر وبكى ، فافقدوه فلم يروه ، فبعثوا في طلبه ، فوجدوه وقد أتكأ على القبر ، فظلمه واحد منهم ، وقالوا : هلا كان هذا البكاء قبل اليوم حتى تخا لا تشتريك ؟ وساروا به حتى دخلوا مصر ، فبشر مالك لباس يوسف ، وعبر به ، فاجتمع الناس على القافلة ، وراوا يوسف فمجبوا لحسنه وجماله .

ذكر خبر بيع يوسف من عزيز مصر

قال : وواعدوا مالكا على بيعه يباب الملك ريان بن الوليد ، فزين يوسف بأحسن زينة ، وأقدمه على كرسى^(١) ، وأقبل عزيز مصر وأسمه قطيفير ، واجتمع التجار وقام الدلال ونادى عليه ؛ فيكى يوسف ، وتزايد القوم حتى بلغ يوسف مالا لا يحصى كثرة ؛ واستقر بيعه من قطيفير^(١) ، وأحضر الأموال .

وقد اختلف الزواة في كمية الثمن . فتمهم من لم يحده ، بل قال : مالا كثيرا .

ومنهم من قال : إن عزيز مصر تلقى القافلة ، وأشتراه من مالك بن دُعر بشرين ديناراً ، وعلين ، وثوبين أبيضين . وقد عُرِى هذا القول إلى ابن عباس — رضى الله عنهما — .

وروى عن وهب بن منبه أنه أقيم في السوق ، وتزايد الناس في ثمنه ، فبلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً وحريراً ، فأبتاعه العزيز بهذا الثمن .

نرجع إلى سياق الكسائي :

قال : فوقف عليه رجل من بلاد كتمان على ناقه ، فقلت عقها ، وجملت تَمَّ يوسف ، فقال يوسف صاحب الناقة بالبرانية : من هو ؟ فأخبره أنه من أرض كتمان ؛ فقال له : أقرئ يعقوب سلامي إذا رجعت . وصف له صفى . فلما عاد الكتائي أخبر يعقوب بذلك ؛ فقال يعقوب : سألني حاجة بهذه البشارة . قال : أدع لي أن الله يكثر ولدى ومالى . فقال : اللهم أكثر ولده وماله وأدخله الجنة .

(١) كذا وجدنا هذا الاسم مضبوطاً بالعارة في هامش تاريخ النبي ورقة ٩٧ من الجزء الثاني قسم ١

عن النسبة المأخوذة بالتصوير الشمسي المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ .

قال : ثم دنا مالك من يوسف فقال له : أنا يوسف بن يعقوب بن إبراهيم الخليل ، وأخبره بخبر إخوته . فصاح مالك وقال : والله ما علمت فاستغفر لي فأني من أولاد مدین بن إبراهيم . فبكى يوسف ، وقال له مالك : أسألك أن تدعو الله يرزقني ولدا . فدعا الله فزقه أربعة وعشرين ولدا ، وعاش مالك حتى رأى يوسف وهو عزيز مصر .

قال : ودخل قطفير منزله و يوسف معه ، فرأته زليخا — وكانت أحسن نساء زمانها — فقال لها زوجها قطفير : قد اشتريت هذا الغلام لتخدمه ولدا فإنما لم نرزق ولدا . قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ ﴾ .

ذكر خبر يوسف وزليخا

قال : ولما رأته زليخا عجبت لحسنه ، ولاطفته ، وقالت : لا ينبغي لمثلك أن يباع عبدا . ويوسف ساكت ، وكان لا يأكل من ذبايحهم . فقالت له : لم لا تأكل من ذبيحتنا وقبل كرامتنا ولي هذا البستان أريد أن تحفظه . فقال يوسف : أفضل ذلك . فكان يوسف يتعاهده حتى عمر بركته . وهو يأكل من نابه ، فوقعت محبته في قلب زليخا ، فكتمت ذلك حتى كاد يظهر عليها ، فأتتها دأيتها ، وقالت : يا سيدة نساء مصر ، أخبريني بقصتك . فذكرت ما بها من حب يوسف ، فأمرتها أن تترين بأحسن زينتها ، ففعلت ، وجلست على سرير وأحضرت يوسف ، فوقف بين يديها وهو لا يعلم ما يراد منه ، وأغلقت الدابة أبواب المجلس من خارج ، فلم عند ذلك مراد زليخا — وكان عمره ثمان عشرة سنة — ، قال

(١) لعل صواب العبارة « ثم دنا يوسف من مالك » عكس ما هنا ، كما يدل عليه سياق ما يأتي .

الله تعالى : ﴿ وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي يَمِينِهَا عَنْ قَبَائِلِهِ وَغَلِقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ مَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قال : فرمت بتاجها ومهنت به . قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَهَّمْتُ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّي كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

قالوا : هم بضربها . وقيل : بردها . وقيل : لما حصل عنده من الهم . ولا تمويل على ما نقله أهل التاريخ : أنه هم بها كما مهنت به .

قالوا : وكان البرهان الذي رآه أنه سمع صوتا من ورائه ، فألقت ، قرأى صورة يعقوب وهو عاض على يديه يقول : « الله الله يا يوسف » .

وقيل : خرجت كف من الحائط مكتوب عليها : ﴿ أَفَلَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ؛ ثم أنصرفت الكف وعادت زليخا لمرادته ، فخرجت الكف ثانية مكتوب عليها : ﴿ وَإِنِّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَكْتُبُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ ثم عادت فخرجت الكف ثالثة وعليها مكتوب : ﴿ زَوَّاجُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ .

قال : فلما نظر يوسف إلى البرهان ، بادر إلى الباب ، فصدت زليخا خلفه فلحقته عند الباب ، بغذبت قبيصة فقدته من دُبر ؛ وإذا قطفير قد أقبل . قال الله تعالى : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَبِيصَةٌ مِنْ دُورٍ وَأَلْفَيَْا سَيْحًا لَدَى الْبَابِ ﴾ .

قال : فلما نظرت زليخا إليه لطمت وجهها ، وقالت : أيها العزيز ، هذا يوسف الذي آخذناه ولدا دخل يراودني عن نفسي .

ثم قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . قال هي راودتني عن قبيسي ﴿ فهُمْ قَطْفِيرٌ أَنْ يُضْرَبَ يُوسُفَ بِسَيْفٍ ، فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ .

وكان في المجلس صغير ابن شهرين - وهو ابن داية زليخا - فتكلم بإذن الله وقال : لا تسجل يا قطفير ، أنا سمعت تخريق التوب . قال الله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَيْصُ قَدْ مِنْ قِيلَ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَيْصُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ثم لم ينطق الصبي بعد ذلك حتى بلغ حد النطق ، وهذا الصبي أحد من تكلم في المهد . ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَيْصُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنِ إِنَّ كَيْدَكُنِ عَظِيمٌ ﴾ ، وأقبل على يوسف وقال : ﴿ يَوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ الحديث لا يسمعه أحد . وقال زليخا : ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

ونخرج قطفير من منزله ، وعادت زليخا لمرادته ، فامتنع عليها .

١٠ ذكر خبر النسوة اللاتي قطعن أيليهن

قال : وفشا في المدينة ، وشاع عند نساء الأكابر خبرها ، ففتننها عليه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ فلما بلغها ذلك من قولهن ﴿ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاً ﴾ .

- ١٥ قال : استندعت امرأة الكاتب والوزير وصاحب الخراج وصاحب الديوان .
وقيل : إن النساء اللاتي تكلمن في أمر زليخا امرأة الساق وأمرأة الخباز وأمرأة صاحب الديوان وأمرأة صاحب السجن وأمرأة الخاجب ، والله أعلم .
قيل : إنما قدمت إليهن صواني الأترج ويصاحف العسل : ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وزينت يوسف : وقالت : إنك عصيتني فيما مضى ، فلماذا دعوتك الآن فأخرج . فأجابها إلى ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ ٢٠

إِلَيْهِمْ وَأَعَدَّتْ لَهُمْ مُتَكَاً وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُمْ وَقُلْنَ حَاشَ فِيهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

قال: كثر يا كلن الأثرج بالسكاكين ففاحش من الدهش والحيرة ماقطعن أيديهن^(١) ولوثت بالدماء ولم يشعن؛ فقالت لمن زليخا ما حكاه الله عنها: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودُونَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَئِسَ مِنَ الْيَهُودِ لَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾.

وقيل: إن النساء خلون به ليعذله لهما، فراودته كل واحدة منهن عن نفسه لنفسها، ثم أنصرفن إلى منازلهن.

ثم دعت زليخا وراودته، وتوعدته بالسجن إن لم يفعل؛ فقال يوسف ما أخبر الله به عنه: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

قال: فلما أيسر زليخا منه مضت إلى الملك وبأن بن الوليد—وكانت لا ترد عنه— فقالت: إني أشتريت عبدا، وقد استعصى عليّ ولا ينفع فيه الضرب والتوبيخ، وأريد أن أحبه مع العصاة. فأمر الملك بحبسه، وأن يفرج عنه متى اختارت؛ فأمرت السجن أن يضيق عليه في حبسه وما كله ومشربه؛ ففعل ذلك؛ فانكره العزيز، وأمر أن يُنقل إلى أجود أما كن السجن، وبُكِّ قيده، وقال له: لولا أن زليخا تستوحش من إخراجك لأخرجتك، ولكن أصبر حتى ترضى عنك ويطيب قلبها.

(١) يلاحظ أن المؤلف في هذه البارة قد حذف عائد «ما» وهو قوله «ببيه» أو «به» مثلا. ويستفاد من كتب القواعد أن حذف العائد المجرور بالحرف جائز إذا تعين الجواز، وهذا قول الشاعر: * وأى الدهر ذل لم يحسدوني * أى فيه انظر حاشية المبانج ١ ص ١٦٨ طبع بولاق. (٢) يقال: «عذله» بشديد اللام وتخفيفها، أى أقامه وسواه.

ذكر إلهام يوسف - عليه السلام - التعبير

ونزل جبريل على يوسف - عليه السلام - وبشّره أنّ الله قد ألهمه تعبير الرؤيا
فعرّفه بإذن الله عزّ وجلّ، وأنبأ الله له شجرة في محبسه يخرج منها ما يشتهي .

ذكر خبر الخباز والساق

- قال : وغضب الملك ريان بن الوليد على ساقيه شريفا، وصاحب مطبخه^(١)
شرفا، فأمر بحبسهما، فحسبا في السجن الذي فيه يوسف، فرأى الساق رؤيا
فسأل أهل السجن عن تأويلها، فدلّوه على يوسف، فأنابه وقال : قد رأيت رؤيا .
فقال له يوسف : قصّها . فقال : رأيت كأنّي في بستان فيه كرمة حسنة ، وفيها
عناقيد سود، فقطعت منها ثلاث عناقيد وعصرتها في كأس الملك، ورأيت الملك
على سريره في بستانه، فناولته الكأس فشربه، وأنبتت .

فقال صاحب المطبخ : وأنا رأيت مثل هذه الرؤيا، رأيت كأنّي أخبز في ثلاثة
تناير : أحمر وأسود وأصفر، ورأيت كأنّي أحمل ذلك الخبز في ثلاث سلال إلى دار
الملك، وإذا بطائر على رأسي يقول لي : قف فإني طائر من طيور السماء . ثم سقط
على رأسي فجعل يأكل من ذلك الخبز، والناس ينظرون إليه وإلى، وانبتت فيزعا .

- فقال يوسف : بشما رأيت . ثم قال للساق : إنك تقيم في السجن ثلاثة أيام
ويخرجك الملك فيسلم إليك خزانته، وتكون ساقيه وصاحب خزانته . وأنت يا خباز
بعد ثلاثة أيام تضرب رقبتك وتُصلب وتأكّل الطير من رأسك . فقال الخباز : إني
لم أأر شيئا، وإنما وضعت رؤياي هذه . فقال : (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) .

(١) كذا ورد هذان الاسمان اللذان تحت هذا الرمز في الأصول . ولم نجد فيا واجتماع من الكتب
ما نطعن اليه في تصحيحهما ، بل الكتب فيها وفي أمتاها من هذه الأسماء القديمة مختلفة كل الاختلاف .

ثم قال يوسف الساقى : ﴿ أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ وأُعلِّمه أَنَّى محبوس ظلما . فقال له : ما أتيتي جهدا .

فلما كان بعد ثلاثة أيام كان من أمر الساقى والنجار ما قاله لما يوسف .

ثم هبط جبريل على يوسف وقال : إن الله يقول لك : نسيتَ نعمائى عليك فقلتَ للساقى يذكرُكَ عندَ ربه ، وهما كافران ، فازلت حاجتك من كفر بنعمتى وعبد الأصنام دونى .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ .

قيل : الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو الساقى ، ﴿ فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ يَضَعُ سِتْرَيْنِ ﴾ وهو يسبى ويستغفر ويتضرع إلى الله ، فأوحى الله إليه : أنى قد غفرت لك ذنبك ، وأنه سيخرجك من السجن ، ويجمع بينك وبين أهلك وإخوتك وتصدق رؤياك . فخر ساجدا لله تعالى .

ذكر رؤيا الملك وتغييرها وما كان من أمر يوسف وولايته

قال : وقد رآه عز وجل أن الملك — وهو الريان بن الوليد بن ثروان بن أواصة بن قاران بن عمرو بن عمار بن لاوذ بن نوح عليه السلام — رأى فى تلك الليلة رؤيا حالته ، فدعا بالمعبرين ، فقالوا : إن هذه ﴿ أَصْحَابُ أَحْلَامٍ وَمَا عَنْهُمْ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِمَالَيْنِ ﴾ . فغضب الملك وقطع أرزاقهم ، وذكر الله الساقى ، قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ (١)

فتقدم إلى الملك وذكر له خبر يوسف — وكان بين المذتين سبع سنين وسبعة

(١) عبارة الكسائى : « بين هذا الحديث وبين هذه الرؤيا » وهى أظهر .

- أشهر — فأرسله الملك إليه وقال : أخبره برؤياى وأخى بتأويلها . فأقبل الساق إلى السجن وأجتمع بيوسف ، واعتذر له ، وأخبره برؤيا الملك ، وقال : هل عندك تعبير ذلك ؟ قال : لا أفضل حتى ترجع إلى الملك ونسأله ﴿ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ ؛ فرجع الساق إلى الملك وأخبره ، فأستدعى النسوة ، فأتى بمن كان يعيش منهن . فقال الملك : ﴿ مَا خَطْبُكِ إِذْ رَأَوْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فلما قلن ذلك قال الملك : ﴿ أَتُؤْنِسُنِي بِهَاسْتِخْلَافِهِ لِغَيْبِي ﴾ ؛ فلما دخل عليه أجلسه معه على السرير ، وسأله عن أسمه ونسبه ، فأنسب له ، وذكر قصته مع إخوته ؛ فقال له الملك : قد سمعت ما رأيت في منامى . ثم قصها عليه ، فقال : رأيت سبع بقرات سمان في نهاية الحسن ، ولكل بقرة قرون كبيرة ، فحملتنى واحدة على قرنها ، فجعلت أصير من بقرة إلى بقرة حتى طفت على الجميع ؛ فبينما أنا كذلك وإذا بسبع بقرات عجاف مهازيل ، فعمدت فأكلت كل واحدة من المهازيل واحدة من السمان ، وبقيت أتي أنا على قرنها فلما تقدمت المهزولة لأكلها ، رمته عن قرنها ، فأكلتها المهزولة ؛ ثم صار للمهازيل أجنحة ، فطارت ثلاث نحو المشرق وثلاث نحو المغرب . وبقيت هناك واحدة ؛ فبينما أنا كذلك وإذا أنا بسبع سبلات في نهاية الخضره خرجن من ذلك الوادى ، ثم لاحت فيهن سبع سبلات يابسات ، فالتفتن على الخضر حتى غلبن على خضرتين ، وإذا بملك قد أقبل وقال : يارأيان ، خذ هذا الرجل فأقمعه على سريرك ، فإنه لا يصلح ما رأيت إلّا على يديه ؛ فهذا ما رأيت .
- ١٥ فقال يوسف : أما السبع بقرات السمان فهي سبع سنين يكون فيها زرع وخصب ﴿ قَدْ حَصَدْتُمْ قَنَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ فإنه أتى له .
- ٢٠

وأما البقرات العجاف، فأتها سبع سنين فيها حط وضيق، فأك كل ما حصدم
في سنين الخصب (إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ) في ميوتكم .

وأما السائل الخضر، فهي سنو الخصب، واليابسة سنو الجوع، والرجل الذي
قال لك؛ أقدمه على سررك، فيكون صلاح ذلك على يده فأنا هو؛ وقد أمرك
ربي بهذا؛ فهذا تأويل رؤياك .

قال : فقال له ريان : أشر على الآن بمن أقدمه في هذا الأمر . فقال
يوسف : (اجعلي على خزان الأرض إني حفيظ عليهم) .

قال : كيف يتيأ لك وأنت رجل عراقي لا تعرف لغة أهل مصر؟ فقال :
إن الله الحمى جميع هذه الألسنة يوم دخلت مصر . فترع الملك خائمه ، وجعله
في أصبح يوسف، وقال لأصحابه : هذا عزيز مصر وخليفتي، فاسمعوا له وأطيعوا .

قال التلميذ : قال أهل الكتاب : لما تمت ليوسف في الأرض ثلاثون سنة
استوزره فرعون مصر . وكان مرادهم — والله أعلم — أنه لما استكمل ثلاثين سنة
من عمره .

وحكى التلميذ أن الملك عزل العزيز وولى يوسف، ثم هلك العزيز عن قريب
وكان يوسف يوم قضائه تُضرب له قبة من الديباج يجلس فيها للحكومة بين الناس

٥٨

وبقية الأيام يدور في عمله ويأمر بالزراعة والحراث وعمر البيوت لحزن الجبوب
بستانها، حتى ملاها، وخرن الأتبان حتى آفقت سنو الخصب ودخلت سنو
الفحص، فنهى عن الزراعة فيها لعله أن الأرض لا تثر فيها شيئا؛ فأكلوا ما عندهم
حتى نضد؛ فالتجأوا إلى الملك، فقال الملك : عليكم بالعزيز فأت في يده خزان

الطعام . فباعوه، فباعهم في السنة الأولى بالثناوير والدراهم، وفي السنة الثانية بالحن

والجواهر ، وفي الثالثة بالأراضي والعقار ، وفي الرابعة بالإماء والعبيد ، وفي الخامسة بأولادهم ، وفي السنة السادسة بأنفسهم ، حتى صاروا يملكوا له عبيدا ، وأطعمهم في السنة السابعة لأنهم صاروا عبيده وإماءه ؛ والله أعلم .

ذكر حاجة زليخا إلى الطعام وزواج يوسف بها

- يقال : إن زليخا أصابها من الحاجة ما أصاب غيرها ، وأبتاعت الطعام بجميع مالها ، وبقيت منفردة ، فلم تجد بقيا من التمرض ليوسف ، فعمدت على طريقه وإذا هو قد أقبل في مواكب عظيمة ، فقامت وقالت : يا يوسف ، سبطان من أعز العبيد بالطاعة ، وأذل السادات بالمعصية ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت من أولاد النبيين .

- ١٠ فسألتها يوسف . من أنت ؟ فقالت : زليخا ، وبكت وذكرت حاجتها إلى الطعام ، فصرفها إلى منزلها ، وردّ عليها أملاكها وأموالها ، وبعث لها بمال جزيل وطعام كثير ، ثم أستاذن الله تعالى في زواجها ، فأذن له ، فترجّعها ، وردّ الله عليها حسننها وجمالها ، فلما دخل عليها وجدها بكرا ، فعجب من ذلك ، فقالت : يا نبي الله « والذي هداني إلى دينك ما مسني ذكر قط ، وما قدر عليّ العزيز » .

- ١٥ فيقال : إنه رزق منها عشرة أولاد في خمسة أبطن .
وقد حكى التلبي أن العزيز قطفيرا لما هلك بعد عزله زوج الملك يوسف بأمراته زليخا ، وسماها التلبي في كتابه : « راعيل » .

قال : وأنتشر القحط حتى بلغ أرض كنانة ، فقال يعقوب لبنيه : يا بني ، إنكم ترون ما نحن فيه من الضر ، وقد بلغني أن عزيز مصر يقصده الناس فيمتارون منه

ويمحسن إليهم، وأنه مؤمن بالله إبراهيم، فاحلوا ما عندكم من البضاعة وتوجهوا إليه .
ف فعلوا ذلك وساروا .

قال : وأقبل مالك بن دُعر على يوسف ومعه أولاده ، وهم أربعة وعشرون ولدا ، كلهم ذكور ، فوقف بين يديه وحيّاه بتحية الملك ، وقال : أيها العزيز أنصرفي ؟ قال : إني أشبهك رجل حلتى إلى ها هنا . قال : أنا هو .

فقرّبه وسأله عن الفتية ، فقال : هم أولادى رزقهم يركة دعاتك . فكساه وكساهم ، وكفاهم من الطعام ، وسأله : هل مرّ بارض كنعان ؟ قال : نعم وإتهم لقي جهد ، وقد رأيت الذين باعوك متى مقبلين عليك يريدون أن يتاروا .
فصرح يوسف .

ذكر دخول إخوة يوسف — عليه السلام — في المرة الأولى

قال : وأقبل إخوة يوسف فدخلوا مصر ليلا ، وأناخوا رواحلهم بباب قصر أخيم ، فاشرف عليهم وقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن أولاد يعقوب النبي ، قدسنا من أرض كنعان لنشترى القوت . فسكت ، وأمر بترين قصره ، وبات إخوته على الباب .
وأصبح يوسف بخلس على السرير ، وتنتج وتمنطق وتطوق ، ثم امر بإخوته فدخلوا عليه — وهم عشرة ، وتامر عنهم بنيامين عند أبيه — .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ .
فسلموا عليه ، وحيّوه بتحية الملوك ، فردّ عليهم وقال لهم : إنكم أولاد يعقوب النبي ، فكيف لى بصدقكم ؟ فقال له روبيل : نحن نأتيك بإخينا الذى عند أبينا يضرّك بمثل ما أخبرناك به .

فامر بأخذ بضاعتهم ، وأن يكال لهم الطعام بقدر كفايتهم .

ثم قال لأعووانه : أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ . قال الله تعالى : (وَمَا جَهَنَّمَ بِمِجَازِهِمْ قَالِ اسْأَلْنِي بِأَجْلِ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَتَرَأُودُ عَنْهُ آبَاؤُهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ أَجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

فوضعت في رحل يهودا؛ ثم سار القوم حتى أتوا إلى أرض كنعان، فدخلوا على أيهم؛ فسألم عن حالهم وما كان من أمرهم، وفتحوا رحالهم، فوجدوا بضاعتهم ردت إليهم؛ فدخلوا على أيهم وقالوا : يَا أَبَانَا مَا نَبُئُكَ هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا . فقال : إِنَّ هَذَا الطَّعَامُ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ إِلَّا أَنْ تُؤَدُّوا ثَمَنَهُ .

فقالوا : كيف نرجع إليه وقد ضلنا له أن ثمنه باخيذا بنيامين ؟

ثم قالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم : (يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَحْكُلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ أَسْكَنْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَهَامِشِكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَافْهَمْ خَيْرَ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) .

فقال له يهودا يَا أَبَانَا مَا نَبُئُكَ هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَغَيَّرَ أَهْلُنَا وَنَحْفِظُ أَخَانًا وَزَادَ كَيْلَ بَعِيرِ ذَلِكَ كَيْلَ بَعِيرٍ * قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ .

ودعا يعقوب بقميص يوسف الذي وردوا به عليه بالدم ، فألبسه بنيامين وودعهم وقال يَا بَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا اغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ،

ثم ساروا .

ذكر خبر دخولهم عليه في المرة الثانية

قال : فلما بلغوا مصر ودخلوا على يوسف قريهم ، ونظر إلى أخيه بنيامين وأدناه وأجلسه بين يديه .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ .

ثم قال له : أرى كل واحد من هؤلاء مع أخيه ، فما بالك منفردا ؟ فقال : أيها العزيز ، كان لي أخ ، ولا أدري ما أصابه ، غير أنه خرج مع هؤلاء الإخوة إلى الغنم ، فذكروا أن الذئب أكله ، ورددوا قبيصه هذا الذي علي وهو ملطخ بالدم . فقال لهم يوسف : يا أولاد يعقوب ، إن فيكم من يصيح بالأسد فيخز ميتا ومن يأخذ برجل الذئب فيشقّه آثنين ، وفيكم من يقطع الشجرة من أصلها ، وفيكم من يلدو مع الفرس فيسبقه . ١٠

قالوا : نعم أيها العزيز . فقال : سوءة لكم ولقوتكم إذ يدنو الذئب على أخيكم فيأكله . فقالوا : إذا جاء القضاء ذهب القوي .

فسكت يوسف ، ثم أمر لهم بخمس موائد ، وأمر كل اثنين منهم أن يجلسا على مائدة ، ثم وضعت أخرى بين يدي بنيامين ، فبكى ، فقال له : ما يبكيك ؟ قال : أيها العزيز ، إخواني يا لكون كل واحد مع أخيه ، وأنا وحدي ، ولو كان أخى يوسف باقيا أكل معي . ١٥

فقال يوسف : يا فتى ، أنا لك كالأخ . ثم نزل عن السرير وأكل معه .

فلما فرغوا من الأكل جعل يوسف يسألهم عن أرض كنعان وهم يخبرونه .

ثم خرج صبي من القصر يتتلى ، فنظر إليه بنيامين وبكى ، فقال له يوسف : ثم بكيت ؟ قال : هذا الصبي يشبه أخى يوسف ، فبكيت لأجله . ٢٠

فقال يوسف : هل فيكم من حزن على يوسف ؟ قالوا : نعم ، كلنا حزنا عليه
وبنيامين أشد منا حزنا .

ثم قال : فما الذى حملتم من البضاعة ؟ قالوا : لم نحمل شيئا ، لأنه لم يكن لنا
شيء ، غير أننا رددنا عليك البضاعة التى وجدناها فى رحلتنا ، لأنها ثمن الطعام الذى
حلناه من عندك .

فأمر أن يُسَلَّوا من الطعام ما تحمله إبلهم ، وأمر غلمانه أن يحملوا الصواع
فى رحل بنيامين ، فكانوا يملكون وإخوة يوسف يخطون الأعدال ، حتى فرغوا .
ورحل إخوة يوسف وهم لا يشعرون بالصواع .

وقال التلوي : كانت السقاية مشربة يشرب فيها الملك ، وكانت كأسا من
ذهب مكدلة بالجواهر ، جعلها يوسف مكدلا يكال بها .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهِزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَلَّ السَّاقِيَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ
مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا تَفْقِدُ صَوَاعَ
الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا نَافَهُ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِنُقِصِدَ
فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَا جَرَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَرَاؤُهُ مِنْ
وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَرَاؤُهُ كَذَلِكَ تَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ .

فبعد ذلك أمر يوسف أن تفتش رحلهم . قال الله تعالى ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ
قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ الآية .

قال : فلما نظروا ذلك ضربوا بأيديهم على جباههم ، وقالوا : نكلتك أمك

فضحنت يا بنيامين . قال : إني لم أفعل ذلك . قالوا : من وضعه فى رحلك ؟

قال : الذي جعل البضاعة في رحالكم . فسكتوا ، ثم قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأنسرها يوسف في نفسه ولم يبلغها لهم قال أتم شرمكانا والله أعلم بما تصفون .

قال التلطي : وأختلف الملاء في المرقعة التي وُصف بها يوسف ، فقال سعيد وقتادة : سرق يوسف صنما لجدته أبي أمة وكان من ذهب ، فكسره وألقاه في الطريق .

وقال ابن جريج : أمرته أمة — وكانت مسلمة — أن يسرق صنما لخاله كان يعبد .

وقال مجاهد : جاء مائل يوما ، فسرق يوسف بيضة من البيت .

وقال ابن عينة : دجاجة ، فناولها السائل ، فبيروه . ١٠

وقال وهب : كان ينجأ الطعام من المائدة للفقراء .

وقال الضحاك وغيره : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء أن عمته بنت إسماعيل كانت أكبر ولد إسماعيل ، وكانت لها منطقة إسماعيل ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكانت راحيل أم يوسف قد ماتت ، فحضرته عمته وأحبته حباً شديداً فكانت لا تصبر عنه ؛ فلما ترعرع وبلغ سنين وقع حبه في قلب يعقوب ، فأناها وقال : يا أختاه سلمى إلى يوسف ، فوالله ما أصبر عنه ساعة واحدة . فقالت : ما أنا بتاركه . ١٥

فلما عليها يعقوب قالت : قدعني أياما أنظر إليه ، لعل ذلك يسليني عنه . ففعل ذلك يعقوب ؛ فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسماعيل فخرمها على يوسف تحت ثيابه وهو صغير ، ثم قالت : لقد فقدت منطقة إسماعيل ٢٠

فانظروا من أخذها . فالتُست فلم توجد ؛ فقالت : اكشفوا أهل البيت . فكشفوهم ، فوجدوها مع يوسف ؛ فقالت : والله إنه يُسَلِّمُ لى أصنع فيه ما شئت — وكان ذلك حُكْمَ آل إبراهيم فى السارق — فاناما يعقوب ، فاخبرته بذلك ؛ فقال : إن كان فعل ذلك فهو يُسَلِّمُ إلك ، ما استطع غير ذلك .

- فامسكته بعلّة المنطقة ، فاقدر يعقوب عليه حتى ماتت ، فهو الذى قال له
 إخوته : **إِنْ يَبْرِقْ قَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ . قَالُوا يَا أَبَا الْعَزِيزِ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مِمَّا ذَا اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَفَّالْمُونَ * فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا أَى يُنَاجُونَ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلنَّيِّبِ حَافِظِينَ .**

قال : ثم تشاوروا فقالوا : إن هذا الملك وأهل مصر كفره يعبدون الأصنام فعلموا تتظاهر عليهم .

- قال روبيل : أنا أكفيكم الملك وأعوانه .
 وقال شمعون : أنا أكفيكم أمر العزيز وأعوانه .
 وقال يهوذا : أنا أكفيكم الأسواق .

- فلم يوسف بذلك ، فاحضرهم وقال : يا بنى يعقوب ، ما الذى غرّكم منى ؟ أحسنت إلكم مرّة بعد مرّة ، وتفضّلت عليكم ، وجنى أخوكم جناية فقتلوا رجم فى هلاك المدينة وأهلها ، أنظنون أن هذه القوّة لكم دون غيركم ؟ ثم ضرب برجله

السُّقَّة التي كان عليها فطحطحتها وكسر صفائح رخامها ؛ ثم قال : لولا أنكم من أولاد الأيتياء لصحت بكم صيحة تخزون على أذنانكم .

قال : وكان يهوذا قد عزم على أن يفعل شيئا ، وكان على كتفه شجرة إذا غضب نرجت من جذبه فيقطر منها الدم ، ثم يصبح صيحة فلا يسممها أحد إلا سقط مغشيا عليه ؛ وكان لا يسكن غضبه إلا أن يمسه أحد من آل يعقوب ؛ فدعا يوسف بابنه مَنَّا وقال : اذهب إلى ذلك الكهل فسِّه بيدك ، وسِّع عنه من حيث لا يشعر بك . ففعل ذلك ، فسكن غضبه ؛ فقال يهوذا لإخوته : من الذي مسني منكم فقد سكن غضبي . قالوا : لم يمسك غير ذلك الصبي . فقال : والله لقد مسني يد من آل يعقوب .

فلما عسر عليهم ما عزموا عليه ، عزموا على العود إلى أبيهم ، وتركوا روبيل عند بنيامين .

قال : فلما أنصرفوا دخل يوسف إلى متله وأحضر بنيامين ، وقال : أتعرفني ؟ قال : نعم ، أنت العزيز ، والله مامرقتُ ، فلا تعجل علي ، فإنك موصوف بالإحسان . فضمه يوسف إلى صدره ، وقال له : أنا أخوك يوسف . ثم كساه وسأله عن أبيه ، فأخبره بما يقاسيه من أجله .

قال : ورجع إخوة يوسف إلى أبيهم فذكروا ما كان من خبر بنيامين ، وأن روبيل أقام عنده .

قال : وكيف يسرق ولدى وهو من النزية الطيبة ؟ فقالوا له : وأسأل القرية التي كُنَّا فيها والذين أتوا قبلنا فيها وإنا لصادقون * قال بل سَوِّتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً فَصَبِرُوا جِيلَ عَسَى أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وتولى عنهم وقال يا بني على يوسف وأبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم إلى قوله : مَا لَا تَعْلَمُونَ .

قال : وأخذ في البكاء حتى شجر منه جيرانه ، فأوحى الله إليه : أن كف عن بكائك فإني سأرد عليك بصرك ، وأجمع بينك وبين ولدك . فسكن وهداً ، ثم قال لبنيه : احملوا كتابي إلى العزيز . ودعا بآبته (دِينَةَ) وقال لها : اكنبي ، باسم إله إبراهيم ، من يعقوب إلى عزيز مصر ، إن الله أكرمني بولد كان أحب أولادي إلي . وقد قدسته وبكيت عليه حتى عمت ، وكنت آنس بأخيه بنيامين الذي حبسته عندك ، وعجبت من أمر الصواع ، فإن أولاد الأنبياء لا يفعلون ذلك ، وإنه مكذوب عليه ، فإذا أتاك كتابي هذا ففضل على بولدي وردّه علي فإني أدعو الله أن يزيدك فضلاً وكرامة .

١١

وسلم الكتاب إليهم ، وقال : يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسُّوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَبْتَئُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ الْآيَةَ .

١٠

ذكر خبر دخولهم عليه في الدفعة الثالثة

قال : وساروا حتى دخلوا مصر ، فاستقبلهم روبيل ودخل معهم ، فلما دخلوا عليه قالوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعٍ مُزْجِيَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ، وناولوه الكتاب ، فقبله وقرأه ، ثم قال لهم : لو كنتم حلتُم إلي هذا الكتاب قبل اليوم دفعته لكم ، ولكني قد ألتيت حديثه إلى الملك ، وأنا أكلته فيه .

١٥

ذكر خبر حديث الصاع

قال : ثم أمر يوسف بإحضار الصاع بين يديه وقال : اجتمعوا حتى أسأل هذا الصاع عنكم . فقر الصاع فطلق ، فقال : يا بني يعقوب ، إن هذا الصاع يقول : إنكم تشهدون بالزور ، وإنكم كذبتُم في قولكم : إن الذئب أكل أخاكم .

٢٠

قالوا : ما شهدنا بالزور قط ، وما قلنا في يوسف إلا الحق . ففقر الصاع وقال :
أندرون ما يقول ؟ إنه يقول : إنكم حسدتم أخاكم ، وأخرجتموه من عند أبيه
وأردتم قتله ، ثم أقيتموه في الحب المظلم البعيد القعر . ثم قررنا وقال : إنه
يقول ، ما كذبتك فيما أقول ، ولقد أخرجوا أخاهم من الحب فباعوه بعشرين درهما
عددا تنقص درهما ، وأوصوا مشتريه أن يقيده حتى يبلغ أرض مصر . فتغيرت
وجوه القوم ، وقالوا : ما نعرف شيئا من هذا . ثم قرره رابعا وقال : إنه يقول :
وكتبوا كتاب البيع بخط يهوذا . فقال : أيها العزيز ، إنى لم أكتب شيئا وأنكره .
فقال : مكانكم حتى أعود إليكم . ودخل على زليخا وقال : هاتى تلك الصحيفة .
فأخرجتها له ، فأخرجها إلى يهوذا وقال : أتعرف خطك ؟ قال : نعم . فالتقاهما إليه
فقرأها وهي خطه ، فقال : هي خطى ، "غير أنى لم أكتبه باختيارى ، وإنما كتبته
على عبد أبى منّا" .

فغضب يوسف وقال : ألسن تزعمون أنكم من أولاد الأنبياء ، ثم تفعلوا مثل هذا .
ثم قال لأعوانه : انصبوا عشرة أشجار على باب المدينة حتى أضرب أعناق هؤلاء
وأصلبهم ، وأجعلهم حديثا لأهل مصر . فبكوا وقالوا : اقلنا كيف شئت ولا نصليبا .
وأقبل بعضهم على بعض وقالوا : هذا جزاؤنا بما علمنا به أخانا . فلما أقروا
كلهم بالذنب ، رفع التاج عن رأسه ، وقال : هل علمتم ما فعلتم يوسف وأخيه
إذ أنتم جاهلون ، وكان في رأسه شامة منها في رأس يعقوب ؟ فلما نظروا إلى
الشامة عرفوها وقالوا : بئنا لك لآنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أنى قد من
الله علينا إلى قوله : وهو أرحم الراحمين .

(١) يلاحظ أن وجه المقابلة غير ظاهر بين قوله : «لم أكتبه باختيارى» وقوله : «وإنما كتبته
على عبد أبى منّا» .

فعمد يوسف إلى قميصه ، وجعله في قسبة من فضة ؛ ودفعه إلى يهودا
 وخلع عليهم وطيهم ، وقال : اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
 بَصِيرًا وَأَشْتَرُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ . فخرجوا ، وسبقهم يهودا بالقميص . قال
 الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَ الْعِمْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ
 تَفْتُنُونِي ۖ ﴾ .

قال : لما فصلت العير من أرض مصر حملت الريح رائحة القميص
 فشمها يعقوب ، فقال ذلك . ومعنى (تفتنون) ، أى تكذبون . فقال له أهله :
 — وقيل : بنو بنيه — تالله إنك لئبى ضللك القديم ، معناه فى حبك القديم
 ليوسف .

- ١٠ فلما وصل يهودا بالقميص ودخل على يعقوب ألقاه على وجهه وقال :
 خذها بشارة . فماد بصره من ساعته ، وخر ساجدا لله . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا
 أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ ﴾ الآية .

- وجاء بنوه وقالوا : يا نبي الله ، نحن الذين غيبتنا يوسف عنك ، ونحن الذين
 بيناك بجنه وهو عزيز مصر . ثم قالوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا
 خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

- ١٥ قال : وجاء جبريل بناقه من نوق الجنة ، فاستوى عليها ، وخرج من أرض
 كنعان يريد مصر ومعه أولاده وأهله ، وهم ثمانية وسبعون إنسانا ، فدعاهم يعقوب
 فما دخل أولاده مصر إلّا وقد غفر لهم ؛ وخرج يوسف للمثقى أبيه ومعه خلق كثير
 فلما رآه يوسف ترجل عن فرسه وأبرك يعقوب ناقته ، واعتنقا وبكيا ، وقال
 يوسف : اذْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ .

قال الله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا يُوْنُسَ عَلَى الْعَرْشِ وَنُحِرُوا لَهُ مُجَدًّا ﴾ (بنى الأب والخال،) وَقَالَ يَا آيَّتُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) .

قال : وكان بين مفارقتها ووقت الاجتماع أربع وثلاثون سنة .

وقال الحسن : كان بين خروج يوسف إلى يوم الالتقاء معه ثمانون سنة

لم تحف عيناه .

وأقام يعقوب بمصر أربعين سنة . وقيل : أربعاً وعشرين سنة ؛ ثم أمره الله أن يرتحل إلى أرض كنعان لأقتراب أجله ؛ فارتحل ومات هناك ، ودفن إلى جانب أبيه إسحاق .

وحكى الثعلبي — رحمه الله — أن يعقوب مات بمصر ، وأوصى يوسف أن يحمل جسده إلى الأرض المقدسة حتى يدفنه عند أبيه إسحاق وجده إبراهيم ؛ ففعل ذلك ، وقبله في تابوت من ساج إلى البيت المقدس ، وخرج معه في عسكره وإخوته وعظماؤه أهل مصر ، ووافق ذلك اليوم وفاة عيصو ، فدفنا في يوم واحد ، وكان عمرهما جميعاً مائة سنة وسبعا وأربعين سنة ، لأنهما ولدا في بطن واحد ، وقبرا في قبر واحد .

ذكر دعوة يوسف — عليه السلام — وأرتحاله عن بلد الريان

قال : ثم إن يوسف — عليه السلام — دعا أهل مصر إلى الإيمان سرا وعلانية ، فأمن به كثير منهم ، وكسروا الأصنام ، وصارت الغلبة للسلدين ؛ فاستدعاه ريان بن الوليد وقال له : أيها العزيز ، إن أهل مصر كانوا يحبونك وقد كرهوك بسبب أديانهم ، فما لك وأديانهم ؟ فقال يوسف : قد بلغني ذلك

وأنا رأت عليك ما خولتني ، ومتحول عنك وعن قومك بأهل ملتي ، فإني لا أحب أن أكون من عبدة الأوثان .

- وخرج يوسف هو وأولاده وإخوته وقومه الذين آمنوا حتى نزل الموضع الذي استقبل أباه يعقوب عنده ؛ فبناه جبريل وخرق له نهرا من النيل إلى هناك ، وهو نهر الفيوم ، ولحق به كثير من الناس ، وآمنوا ، وأبقي مدينتين وسمّاهما بالحرمين . وكان لا يدخلهما أحد إلّا يلبي يقول : « ليك يا مفضل إبراهيم بالنبوة ليك » . ولم يكن بأرض مصر أعمر منهما ، وسار يوسف في قومه سيرة الأنبياء حتى مات .

ذكر خبر وفاة يوسف — عليه السلام —

- قال : ولما أدركته الوفاة أوصى إلى ابنه (أفرايم) أن يسوس قومه بالواجب وأن يكون معاندا لأهل مصر الذين يعبدون الأوثان ، ويجاهدهم في الله حق جهاده ؛ ثم توفى ، وكانت زليخا قد ماتت قبله ، وما تزوج بعدها .

قال الثعلبي : قال أهل التاريخ : عاش يوسف بعد يعقوب ثلاثا وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة .

- قالوا : ودفن في بلده فعمر الجانب الذي يليها وأخصب ، وقحط الجانب الآخر ، فشكا أهله إلى الملك ، فبعث إلى أفرايم أن ينقله فيدفنه في الجانب الآخر . وإن لم يفعل قاتله ؛ فدفنه هناك ، فخصب ذلك الجانب ، وقحط الآخر ، فكان يدفن سنة في هذا الجانب ، وسنة في الآخر ؛ ثم اجتمعت الآراء أن يدفن في وسط النهر ؛ ففعلوا ذلك ، فخصب الجانبان ببركته ، ولم يزل في نهر النيل حتى بعث الله موسى — عليه السلام — فأمره الله أن يحمل تابوت يوسف ؛ فأخرجه ونقله إلى بيت المقدس ، فدفنه هناك ، وموضع قبره معروف .

الباب الخامس من القسم الثاني من الفرق الخامس

في قصة أيوب — عليه السلام — وأبنتائه وعافيته

عن وهب بن منبه أنه لم يكن بعد يوسف نبي إلا أيوب، وهو أيوب بن أموص
ابن عيص بن إسحاق بن إبراهيم .

وكان أموص كثير المال والماشية، لم يكن في أرض الشام أغنى منه، فلما
مات صار ذلك جميعه لأيوب؛ وكان أيوب يومئذ ابن ثلاثين سنة، فأحب الزواج
نظفب رحمة بنت أفرام بن يوسف؛ فتزوجها، وكانت أشبه الخلق بيوسف
وكانت كثيرة العبادة، فزرعه الله منها اثني عشر بطنا، في كل بطن ذكر وأنثى؛ ثم بعته
الله تعالى إلى قومه رسولا — وهم أهل حوران والبثنية — وزرعه الله حسن الخلق
والرفق، فشرع لقومه الشرائع، وبني المساجد، ووضع مواثقه للفقراء والأضياف؛
وأمر وكلاءه ألا يمتنعوا أحدا من زراعته وثماره، فكان الطير والوحش وجميع الأنعام
تأكل من زرعه وبركة الله تزداد صباحا ومساء، وكانت كل مواشيه تحبل في كل
سنة بتوهم .

وكان أيوب إذا أقبل الليل جمع من يلذبه في مسجده، ويصلون بصلاته
ويستبجون بتسبيحه حتى يصبح، فحسده إبليس؛ وكان لا يمر بشيء من ماله
وماشيته إلا رآه وهو مختوم بخاتم الشكر؛ وكان إذا ذاك يصعد إلى السموات
ويقف في أي مكان أحب منها، حتى رفع الله عيسى بن مريم، فحُجب عن أربع
سموات منها؛ حتى بعث الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، فحُجب عن جميعها
فصعد إبليس في زمن أيوب — عليه السلام — وقال: يارب إني طفت الأرض
فتنت من أطاعني إلا عبادك منهم المخلصين . فتودى: ياملون، هل علمت

بعبدى أيوب ؟ وهل نلت منه مع طول عبادته ؟ وهل تستطيع أن تغيره عن عبادتي ؟ فقال إبليس : ألمى إنك ذكرته بالخير ، وقد نظرتُ في أمره فإذا هو عبد طافته بفاعيتك ، ورزقته شكرك ، ولم تختبره بالبلاء ، فلو أبتليته بالمصائب لوجدته بخلاف ما هو عليه ، فلو سلطتني على ماله لرأيتَه كيف ينسلك .

- فسأله الله على ماله ، فأخضّ وجمع الغفاريات ، وأخبرهم أنه سلط على مال أيوب ، وحضهم على زرعه وأشجاره ومواشيه ، فأحرقوا الأشجار ، وصاحوا بالمواشي صيحة فمات برعاتها .

- قيل : وكان له ألف فرس وألف رَمَكَة وألف بقل وبغلة ، وثلاثة آلاف بعير ، وألف وخمسمائة ناقة ، وألف ثور ، وألف بقرة ، وعشرة آلاف شاة وخمسمائة فدان ، وثلاثمائة أتان ، مع ما يتبع ذلك من التاج ، فهلك جميع ذلك ، ثم
- ١٠ أقبل إبليس إلى أيوب في صورة راع من رعاته ، وخيل له أن عليه هج الحريق وقد أسود وجهه ، وهو يسأى : يا أيوب ، أدركني فانا الناجى دون غيري ما رأيتُ قط مثل هذا اليوم ، رأيت نارا أقبلت من السماء فأحرقت أموالك ، وسمعت نداء من السماء : هذا جزاء من كان مراثيا في عمله يريد به الناس دون الله .
- ١٥ وسمعت النار تقول : أنا نار الغضب . فأقبل أيوب على صلاته ، ولم يكثر به حتى فرغ منها ، وقال : يا هذا ، لقد كثرت على ، ليست الأموال لي ، بل هي لربي يفعل فيها ما يشاء . فقال إبليس : صدقت .

وماج الناس بعضهم في بعض ، وقالوا : هلا قبضها قبضا جيلا .

- فشق ذلك على أيوب من قولهم ، ولم يحبهم ، غير أنه قال : الحمد لله على قضائه وقدره . وأنصرف إبليس عنه ، وصعد إلى السماء ، فنسودى : يا ملعون
- ٢٠

كيف وجدت عبدى أيوب وصبره على ذهاب أمواله ؟ فقال إبليس : إلهى إنك قد متعت بالأولاد ، فلو سلطتني عليهم لوجدته غير صابر . فنودى : يا ملعون اذهب فقد سلطتك عليهم . فأتقض إبليس على باب قصر أيوب الذى فيه أولاده فزلزله حتى سقط عليهم ، وشدهم بالخشب ، ومثل بهم كل مثله ، فأوحى الله إلى الأرض : احفظي أولاد أيوب فأتى بالغ فهم مشيتي .

وأقبل إبليس إلى أيوب وقال له : لو رأيت قصورك كيف تهتمت ، وأولادك وماحل بهم . ولم يزل يعد له ماحل بهم حتى أبكاه ، ثم ندم على بكائه ، فاستغفر وخرّ ساجداً ، وأقبل على إبليس وقال : يا ملعون ، انصرف عني خائباً ، فإن أولادى كانوا عارية عندى الله .

فانصرف وصعد إلى السماء ، ووقف موقفه ، فنودى : يا ملعون ، كيف رأيت عبدى أيوب واستغفاره عند بكائه ؟ فقال : إلهى إنك قد متعت بهافية نفسه ، وفيها حوض عن المال ، فلو سلطتني على بدنه لكان لا يصبر . فنودى : يا ملعون اذهب فقد سلطتك على جسده إلا عينيه ولسانه وقلبه وسمعه . فأتقض إبليس عليه وهو في مسجده يتضرع إلى الله ويشكره على جميع بلائه ، فلما سمع إبليس ذلك منه

أغتاظ ، ولم يتركه يرفع رأسه من السجود حتى نفخ في مِخْرَجه كالنار الملتبئة . فأسود وجهه ، ومرت النخعة في سائر جسده ، فتمطع منها شره ، وفتقر جميع بدنه ، وورم في اليوم الثانى ، وعظم في الثالث ، وأسود في الرابع ، وأمتلاً قيعا في الخامس ، ووقع فيه الدود في السادس ، وسال منه الصيد في اليوم السابع ووقع فيه الحُكَّاك ، فجعل يحكه حتى سقطت أظافيره ، فحك بدنه بالخرق والمُسوح

والججارة ، وكان إذا سقطت دودة من بدنه ردها إلى موضعها ، ويقول : كلى إلى أن يأذن الله بالفرج .

فَقَالَتْ لَهُ رَحْمَةٌ : يَا أَيُّوبُ ، ذَهَبَ الْمَالُ وَالْوَلَدُ ، وَبَدَأَ الضَّرُّ فِي الْجَسَدِ .

فَقَالَ لَهَا : يَا رَحْمَةٌ ، إِنَّ اللَّهَ أَتَى الْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِ فَصَبِرُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ وَعَدَ الصَّابِرِينَ خَيْرًا ، وَنَحْنُ سَاجِدُونَ لَهُ تَعَالَى ، وَقَالَ : إِلَهِي لَوْ جَعَلْتُ ثَوْبَ الْبَلَاءِ سَرْمَدًا وَحَرَمَتِي الْعَافِيَةَ ، وَمَرْزُقَتِي كُلَّ مَمْزُقٍ ، مَا أَزْدَدْتُ إِلَّا شُكْرًا ؛ إِلَهِي لَا تَشْمِتْ بِي عَدُوِّي إِبْلِيسَ .

ثُمَّ قَالَ لِرَحْمَةٍ : أَتَقْلِبُنِي إِلَى مَوْضِعٍ غَيْرِ مَسْجِدِي ، فَإِنِّي لَا أَحِبُّ أَنْ يَسْلُوثَ الْمَسْجِدَ .

فَانْطَلَقَتْ إِلَى قَوْمٍ كَانَ أَيُّوبُ يَحْسُنُ إِلَيْهِمْ ؛ فَاتَّخَمَتْ مِنْهُمْ أَنْ يَمِينُوهَا عَلَى إِخْرَاجِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ ؛ فَقَالُوا : إِنَّهُ قَدْ غَضِبَ عَلَيْهِ رَبُّهُ بِمَا كَانَ فِيهِ مِنَ الرِّاءِ ، فَلَيْتَ كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ بَعْدَ الْمَشْرِقِينَ . فَرَجَعَتْ رَحْمَةٌ وَاحْتَمَلَتْهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ يَضَعُ فِيهِ الْمَوَائِدَ لِلنَّاسِ بِالْفَضَاءِ .

ثُمَّ قَالَ لَهَا : يَا رَحْمَةٌ ، إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحُلُّ عَلَيْنَا ، فَاحْتَالِي فِي خِدْمَةِ النَّاسِ . وَبَكَتْ ، فَكَانَتْ تَخْدُمُ أَهْلَ الْبَلَدِ فِي سَقَى الْمَاءِ وَكُنُسِ الْبُيُوتِ وَإِخْرَاجِ الْكُكَّاسَاتِ إِلَى الْمَزَابِلِ ، وَتُكْسَبُ مِنْ ذَلِكَ مَا تَنْفِقُهُ عَلَى أَيُّوبَ ؛ فَأَقْبَلَ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ ، فَوَقَفَ عَلَى أَهْلِ الْقَرْيَةِ وَقَالَ : كَيْفَ تَطِيبُ نَفُوسَكُمْ بِخَالِطَةِ أَمْرَأَةٍ تَعَالَجُ مِنْ زَوْجِهَا هَذَا الْقَيْحِ وَالصَّدِيدِ وَتَدْخُلُ بُيُوتَكُمْ ، وَتَدْخُلُ يَدَهَا فِي طَعَامِكُمْ وَشَرَابِكُمْ ؟ ! فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ وَمَنَعُوهَا أَنْ تَدْخُلَ بُيُوتَهُمْ .

قَالَ : وَاشْتَدَّ بِأَيُّوبَ الْبَلَاءُ ، وَتَنَّى حَتَّى لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ أَنْ يَسْتَفِزَّ فِي بَيْتِهِ لَشِدَّةِ رَأْحَتِهِ ؛ فَاجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَرْسُلُوا عَلَيْهِ الْكَلَابَ لَأَنْ يَكَلَّهُ ؛ فَأَرْسَلُوهُمَا فَعَلَتِ حَتَّى قَرِبَتْ مِنْهُ وَوَلَّتْ حَارِبَةً وَلَمْ تَرْجِعْ إِلَى الْقَرْيَةِ .

ثم قال لرحمة : إن القوم قد كرهوني ، فأحتال في قتل عنهم .

فوجهت واتخذت له عريشا ، وأستعانت بمن يحمله ، فأعاناها الله بأربعة من الملائكة ، فحملوه بأطراف النطع إلى العريش ، وعزّوه في مصيبتهم ودعّوا له بالعافية ، واتخذت له رحمة في العريش رمادا ، فألقى نفسه عليه ، ثم توجهت

في طلب القوت ، فرتعا أهل القرية ، وقالوا : إن أيّوب سيخط عليه ربّه .

فصادت إليه باكية ، وقالت : إن أهل القرية غلقوا أبوابهم دوني . فقال :

إن الله لا يعلّق بابي دوننا . فحملته إلى قرية أخرى ، وصنعت له عريشا

ودخلت القرية ، فقزبوا وأكروها ، وجمّلت في ذلك اليوم عشرة أفراس من

خمسة بيوت ، ثم شتم أهل القرية رائحة أيّوب بعد ذلك ، فنعوا رحمة أن تدخل

إليهم ، وقالوا : نحن نواسيك من طعامنا بشيء . فرضيت بذلك ، فيينا هي تتردد

إلى أيّوب إذ عرض لها إبليس في صورة طيب وقال : إني أقبلت من أرض

فلسطين لما سمعت خبر زوجك ، وقد جئت لأناويته ، وأنا صائر إليه فدا فيجب

أن تخبريه ، وقول له : يحتال في عصفور أو طائر فيذبجه ولا يذكر أسم الله

عليه ، ويأكله ويشرب عليه قلحا من نحر ، فقرجه في ذلك . فخافت رحمة

إلى أيّوب وأخبرته بذلك ، فتبين الغضب على وجهه ، وأخبرها أنه إبليس

وسألها أن تعود لمثل ذلك ، ثم أقبلت بعد ذلك إلى أيّوب بشيء من الطعام

فعرض لها إبليس في صورة رجل يبي على حمار ، فقال : كأني أعرفك ، أليس

رحمة امرأة أيّوب ؟ قالت : بلى . قال : إني أعرفكم وأتم أهل غناء ويسار

فألذي غير حالكم ؟ فذكرت ما أصاب أيّوب من البلاء في المال والولد والنفس

قال : وفي أي شيء أصابكم هذه المصائب ؟ قالت : لأن الله أراد أن يعظم لنا

الأجر على قدر بلائه .

قال إبليس : بئس ما قلت ، ولكن للسماء إله وللأرض إله ، فلماذا إله السماء فهو الله ، وأما إله الأرض فانا ، فأردتكم لنمسي فعبستم إله السماء ولم تعبدوني ففعلت بكم ما فعلت ، وسلبتكم نعمكم ، وكل ذلك عندي ، فأتبعني حتى تنظروا إلى ذلك ، فإنه عندي في وادي كذا وكذا .

فلما سمعت (رحمة) ذلك منه عجبت ، وأتبعته غير بعيد حتى وقفها على ذلك الوادي ، وسحر عينها حتى رأت ما كانت قد سمعت من أمواليهم . فقال : أنا صادق أم لا ؟ فقالت : لا أدري حتى أرجع إلى أيوب . فرجعت وأخبرته بذلك ، فقال وأنكر عليها وغضب ، فسأله أن يعفو عنها ولا تعود ، فقال : قد نيتك مرة وهذه أخرى ، وأقسم إن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة على كلامها لإبليس .

قال : ولبت أيوب في بلته ثمانى عشرة سنة حتى لم يبق إلا عيناه تدوران في رأسه ، ولسانه ينطق به ، وقلبه على حاله ، وأذناه يسمع بهما .

قال : وعجزت (رحمة) في بعض الأيام عن تحصيل القوت ، وطافت القرية حتى أتت إلى امرأة عجوز فشكت لها ذلك ، فقالت العجوز : يا رحمة ، قد زوجت أختي ، فهل لك أن تعطيني صغيرتين من صفائك لأزين بهما أختي ، وأعطيتك رغبين . فاجابتها رحمة إلى ذلك ، وأخذت الرغبين ، وجاءت بهما إلى أيوب ، فأنكرهما أيوب وقال : من أين لك هذين ؟ فأخبرته بالقصة ، فصاح أيوب وقال ما أخبر الله تعالى : (أَيْ مَسِي الضَّرَّاءُ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) .

فأوحى الله إليه : يا أيوب ، قد سمعت كلامك ، وسأجزيك على قدر صبرك ، وأما رحمة فلا رضى عنها بالجنة .

ذكر كشف البلاء عن أيوب — عليه السلام —

- قال : فلما كان يوم الجمعة عند زوال الشمس ، هبط عليه جبريل فسلم عليه فردّ عليه وقال : من أنت ؟ قال : أنا جبريل ، وبشّره بالشفاء ، وإن الله قد وهب له أهله وماله وولده ومثلهم معهم لتكون آية ، فيكي أيوب من شدة الفرج وقال :
- الحمد لله الذي لم يسمت بي عدوى إبليس . فقال له جبريل : قم يا أيوب . فلم يستطع ، فأخذ بيده وقال : قم بإذن الله . فقام على قدميه . فقال له جبريل : أركض بركلك هذه الأرض . فركضها ، فنبعت عين من الماء تحت قدميه أشدّ بياضا من الثلج وأحلى من العسل وأذكى من المسك ، فشرب منه شربة فسقط ما في بدنه من الدود ، ثم أمره جبريل فأغتسل من تلك العين ، فخرج ووجهه كالقمر وعاد إليه حسنه وجماله ، ثم ناوله جبريل خلعين ، فأترر بواحدة وأرتدى بالأخرى ؛ وناوله ثعلين من الذهب شراكهما من الياقوت ؛ وناوله سفرجلة من الجنة ؛ ثم قام إلى الصلاة ، فأقبلت رحمة وقد طردها الناس من كل الأبواب ؛ فلما صارت إلى ذلك المكان رائته وقد تغير ، فظنت أنها قد أخطأت الطريق ؛ فقالت : أيها المصلّي كلّني . فلم يكلمها ، وثبت في صلاته ؛ فقال له جبريل : كلها . فقال :
- ما حاجتك ؟ قالت : هل عندك علم بأيوب المبتلى فأني خلّفته هاهنا ولست أراه .
- فتبسّم أيوب وقال : إن رأيته عرفته ؟ فقالت : والله إنك لأشبه الناس به قبل بلائه . فضحك وقال : أنا أيوب . فبادرت إليه واعتنقته ، وبشّرها جبريل بأولادها وما فقداه من الأموال وغيرها ومثلهم معهم ، وأمطر الله عليهم جرادا من ذهب ؛ وكان له بيتدران ، فأرسل الله محابتين فأفرغتا في أحدهما ذهباً وفي الآخر فضة حتى فاض أحدهما على الآخر .

قيل : إنه كان له بعد العافية أربعة آلاف وكيل ، رزق كل واحد في الشهر مائة مثقال من الذهب ، وبين يديه أشا عشر من البين ، ومثلهم من البنات وملكه الله جميع بلاد الشام ، وأعطاه مثل عمره الذي عُمره في الماضي .

فلما أدركته الوفاة أوصى أولاده أن يحرقوه في ماله كما كان يفعل مع الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل ، ثم مات ، وتوفيت امرأته قبله .

وقيل : بعده بقليل ، فدفن إلى جانب السين التي أنهب الله بلاه فيها .

قال التلميذ — رحمه الله تعالى — : وكانت مدة ابتلائه ثمانى عشرة سنة .

الباب السادس من القسم الثاني من الفن الخامس

في خبر (ذى الكفل)

١٠ اختلف العلماء في (ذى الكفل) من هو ؟ فقال الكسائي : هو ابن أيوب — عليهما السلام — وذكر قصته فقال :

لما قبض الله — عز وجل — أيوب عليه السلام صار ابنه حوميل —

وهو أكبر أولاده — في الناس سيرة أبيه ، حتى خرج عليهم ملك من ملوك الشام يقال له : لام بن دعام ، فطلب إلى بلاد الشام ، وبعث إلى حوميل يقول : إنكم

١٥ ضيقت علينا بلاد الشام ، وأريد منكم نصف أموالكم وتزوجوني أختكم حتى أقفكم على ما أنتم عليه ، وإلا سرت إليكم بخيل ورجل وجعلتكم غنيمة .

فأرسل إليه حوميل يقول : إن هذه الأموال التي في أيدينا ليس لأحد فيها حق إلا الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل ، وأما أختنا فأنك من غير ديننا ، فلا تزوجها لك ، وأما تخويفك لنا بخيلك ورجلك ، فنحن نتوكل على الله ربنا ، وهو حسبنا .

بجمع الملك جنوده وقصلهم ، فالتقوا وأقتلوا قتالا شديدا ، فكانت الكسرة على أولاد أيوب ، وأمر بشير بن أيوب وجماعة معه ؛ وأقلب حوميل بنفسه وجمع مالا عظيما ليحمله إلى الملك ويخلص أخاه منه ؛ فبينما هو في ذلك إذ أتاه آت في مثاه فقال : لا تحمل هذا المال ، ولا تخف على أخيك ، فإن هذا الملك يؤمن ، وتكون عاقبة أمره خيرا .

١١

فلما أصبح قص رؤياه على إخوته ، ففرحوا ؛ فبلغ الملك توقُّعه في حمل المال فأرسل إليه يقول : احمل ما تكفل به أهلك من المال وإلا أحرقتُ بالنار . فبعث إليه : إني قد أمرت ألا أحمل لك شيئا ، فأصنع ما أنت صانع . فغضب الملك وأمر أن تجمع الأحطاب ؛ فحُملت وألقي فيها النار والتقط ، وأمر بشير فألقى فيها فلم تحرقه ؛ فعجب الملك من ذلك ، وآمن بالله ، واختلط بعضهم ببعض ، وزوجوه أختهم ، وسمى بشير ذا الكفل ، وأرسله الله إلى الشام ؛ وكان الملك يقاتل بين يديه الكفار ، فلم يزل كذلك حتى مات أولاد أيوب ؛ ثم مات الملك وغلب المارقة على الشام ، إلى أن بعث الله — عز وجل — شعبيا رسولا .

وحكى الثعلبي في تفسيره وقصصه في قصة ذي الكفل غير ما تقدم ، وساق القصة تلو قصة اليسع ، فقال : قال مجاهد : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلا على الناس ففعل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل . فجمع الناس وقال : من يتكفل لي بثلاثة استخلفه : يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب .

فقام رجل شاب زرد ربه العين قال : أنا . فردد ذلك اليوم ؛ وقال مثل ذلك في اليوم الآخر ؛ فسكت الناس ، وقام ذلك الرجل فقال : أنا . فاستخلفه ؛ فجعل إبليس يقول للشياطين : عليكم بفلان . فأعياهم ؛ فقال : دعوني وإياه . فقام

٢٠

- في صورة شيخ فقير حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام بالليل إلا تلك النومة؛
فدق الباب، فقال: من هذا؟ فقال: شيخ مظلوم. ففتح الباب، فجعل يقص
عليه قصته، فقال: إن بني وبين قوم خصومة، وإنهم ظلموني وفعلوا وفعلوا
وفعلوا؛ وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة؛ فقال له: إذا رحمتُ
فإني قد أخذ بحقك. فأنطلق وراح، فكان في مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ؟
فلم يره، فلما رجع وأخذ مضجعه أتاه ودق الباب، فقال: من هذا؟ قال: أنا
الشيخ المظلوم. فقال: ألم أقل لك: إذا قدمت فأتني. قال: إنهم أخبث قوم
إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نحن نطعمك ونعطيك حقك، وإذا قتت جحدوني.

- قال: فأنطلق، فإذا رحمتُ فأتني، فقائه القائلة، فراح فجعل ينظر فلا يراه
وشق عليه الناس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام
فإني قد شق على الناس. فلما كانت تلك الساعة جاء فلم ياذن له الرجل، فنظر
فراى كوة في البيت، فتسورها فإذا هو في البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل؛
فأستيقظ ذو الكفل، وقال: يا فلان، ألم أمرك ألا تاذن لأحد علي؟ فقال:
أنا من قبل فأتيت، فأنظر من أين أتيت.

- فقام إلى الباب فإذا هو مفتاح والرجل معه في البيت، فقال له: أستم والخصوم
ببابك؟ فقال: فعلتها يا عدواقه. قال: نعم، أعيتني في كل شيء ففعلت ما ترى
لأغضبك، فصصمك الله مني، فسعى ذا الكفل، لأنه متكفل بأمر فوق به.

- وروى الثعلبي أيضا بسند رفيع إلى ابن عمر — رضي الله عنهما — قال:
سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحلث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة
أو مرتين لم أحدث به، سمعته منه أكثر من سبع مرات.

قال : كان في بني إسرائيل رجل يقال له : ذو الكفل ، لا يترع عن نفيه .
عمله ، فأتبع امرأة فأعطاهما ستين ديناراً على أن تعطيه نفسها ، فلما قعد منها مقعد
الرجل من المرأة أوعدت وبكت ، فقال : ما بيك ؟ قالت : من هذا البعل
ما عملته قط . قال : أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكن حملني عليه الحاجة . قال :
اذهي فهي لك . ثم قال : والله لا أعصى الله أبداً ، فأت من ليته . فقيل :
« مات ذو الكفل » فوجدوا على باب داره مكتوباً : إن الله قد غفر لذي الكفل .
وقال أبو موسى الأشعريّ — رضي الله عنه — إن ذا الكفل لم يكن نبياً
ولكنه كان عبداً صالحاً ، تكفل بعمل رجل صالح عند موته ، فكان يصلي لله تعالى
في كل يوم مائة صلاة ، فأحسن الله — عز وجل — عليه الثناء .

وقيل : كان رجلاً غنياً ، تكفل بشأن رجل وقع في بلاء ، فأجابه الله تعالى .
وقيل : ذو الكفل ، هو إلياس النبي عليه السلام .
وقيل : هو زكريا النبي عليه السلام ، والله تعالى أعلم .

الباب السابع من القسم الثاني من الفن الخامس

في خبر شعيب النبي عليه السلام

هو شعيب بن صغون بن عفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم عليه السلام .

١٥

(١٧)

قال : وعاش مدين عمراً طويلاً ، وكان قد تزوج امرأة من العالقة فولدت له
أربعة بنين ، ونسأوا فكثر عددهم في حياة مدين ، فلما رأى كثرة عقبه جمعهم وأشار
عليهم أن يبنوا مدينة ويحصنوها من العالقة ، ففعلوا ذلك ، وجعلوا أبوابها من
الحديد ، وسَمَّوها مدين باسم أبيهم ، وجعلوها محالاً لقبائلهم ، فرغبت العالقة

- في مجاورتهم ، وأمتلأت المدينة من المبالغة ومن أهلها حتى ضاقت بهم ، فخرجت المبالغة من مدين وزلوا بالأيكة ، — وكانت غيضةً عن عيين مدين — فبنوا هناك الدور لأنفسهم ، واختلطوا بأهل مدين ، وكان أهل مدين يمدون الله ، وأصحاب الأيكة يمدون الأصنام ، ولا يمدو بعضهم على بعض ؛ وكان صنون والد شعيب من البباد والعلماء بمدين ، وتحتة امرأة من المبالغة ، فولدت له شعيبا في نهاية الجمال ؛ فلما كبر أعطاه الله فهما وعلما ؛ وكان قليل الكلام دائم الفكر ؛ وكان أبوه إذا تأمل ضعفه ونحافته يقول : اللهم إنك كثرت الشعوب والقبائل في أرض مدين ، فبارك لي في شعبي هذا . يعني ولده . فرأى في منامه أن الله تعالى قد بارك لك في شعبيك هذا ، وقد جعله نبياً إلى أهل مدين . فسمى شعيباً لذلك .
- ١٠ وتوفى والده فقام شعيب مقامه ، وبرز بالزهد على أهل زمانه ، واشتهر بالعبادة . قال : وكان ملك الأيكة — وأسمه أبو جاد — قد اتخذ لقومه أصناما ، وهي ثلاثون صنما ، عشرة من الذهب حلالها بالجوهر خاصة به وبأولاده ، والبقية من الفضة والنحاس والحجارة والحديد والخشب لبقية الناس .
- قال كعب في تفسير (أيجد) : إنها أسماء ملوك مدين .
- ١١ وقيل : بل ملوك الأيكة ، وهم أبو جاد وهوز وخطى وكلبن وسفص وقرشت . قال : وكان أهل مدين أصحاب تجارات يشترون الحنطة والشعير وغيرهما من الجبوب ، ويحبون ذلك من سائر البلدان يترقبون به الغلاء ، وهم أقول من تريض ؛ وكان لهم ميكران : وإف يكالون به لأنفسهم عند الشراء ، وتأقص يكونون به للإعطاء ، وكذلك في وزنهم ؛ فكانوا على ذلك وشعيب بين أظهرهم وهو لا يخالطهم ، وله غنم ورتبا من أبيه يأكل من منافعها ، وهو عظيم المحل عندهم .
- ٢٠

فبينما هو ذات يوم على باب منزله مشتغل بالذكر ، إذ جاءه رجل غريب فقال : إن هؤلاء القوم يظلمون الناس ، وإنى اشتريت منهم مائة ميكال بمائة دينار وقبضوا الثمن وزيادة ، والذي كَلَّه منهم قصّ عشرين ميكالا . فقال له شعيب : ارجع إليهم فلملهم قد غلطوا عليك . قال : قد راجستم فضربوني وسبوني ، وقالوا : هذه سنّا في بلدنا . وأتتس الرجل من شعيب أن يساعده عليهم ، فخرج شعيب معه حتى صار إلى سوقهم ، وسألهم عن قصّته فلم ينكروها ، وقالوا : ألم تعلم يا شعيب أنّ هذه سنة أهلنا في بلدنا ؟ قال ليس هذا من السنة . فذلّمهم ، فلم يرجعوا إلى قوله وضربوا الرجل حتى أدموه ، وأنصرف شعيب إلى منزله .

ذكر مبعث شعيب — عليه السلام —

١٠ قال : فاتاه جبريل في الحال ، وأخبره أنّ الله قد بعثه رسولا إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة وغيرهم ممن يعبدون الأصنام ، وأمره أن يدعوهم إلى عبادة الله وطاعته ، والآيخسوا الناس أشياءهم .

قال : وأقبل شعيب إلى أهل مدين وقال لهم ما أخبر الله تعالى به في كتابه : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَتَّبِعُوا الْمَكَالَ وَالْمِزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ خَافِرًا إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ اقْوُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ هَيْتَ اللَّهُ خَيْرُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ .

٢٠ فلما سمعوا ذلك منه أجابوه بما أخبر الله به عنهم : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَبْغُونَ أَمْؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ لَكُمْ إِلَّا مَا أَنَا فِيهِ أَنَا أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَحْزِمَكُمْ شِقَاقِي أَنْ تُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَقْرَأُوا رِيبَكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي بِرَحِيمٍ وَدُودٍ .

ثم أنصرف عنهم، وعاد إليهم من الندد وقد اجتمعوا مع ملكهم أبي جاد؛ فوقف عليهم ونهاهم عن عبادة الأصنام وبخس المكيال والميزان؛ فقالوا له :
 (يَا شُعَيْبُ مَا تَفْعَلُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتِ لِي أُعْزِي عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَتَّخِذُ لَكُمْ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا وَإِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) .

فاستهزأ القوم به ، فقال : وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ يَعْلَمُونَ مِنْ بَيْنِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِلَى مَعَكُمْ رَقِيبٌ .

فكتبه سفهاء قومه، كما أخبر الله عنهم : نَزَلَ كَذَبَ أَصْحَابُ الشُّجْعَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُوفُّوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْذِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَأَنْتُمْ أُولُو الْأَلْبَانِ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطَّلُكَ لَئِنْ الْكَاذِبِينَ * فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

ثم قال له الملك : قد بلغت رسالتك بزعمك، وقد سمعناها وأبينا، فلا تعد إلينا قري ما لا طاقة لك به . فقال : أنا رسول الله إليكم، وإنى أعود أَدْعُوكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ . فغضب الملك، وأنصرف عنهم شعيب؛ وأمن به رجل من وزراء الملك، وأستكنه إيمانه، فكتبه شعيب؛ ثم عاد من الندد وقد أخرج الملك

ومن معه إلى سوقهم ، وأخرجوا أصنامهم ونصبوها ؛ وأمر الملك في أهل مدين
والأيكة : من سجد لأصنامنا فهو متآ ، ومن أبى عذّبناه عذابا شديدا . فجد القوم
بأجسامهم للأصنام ؛ فناداهم شعيب : إن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ، فتركوا
عبادتها . وحذرهم عذاب الله . فقالوا : إنك تدعونا بغير حجة ، فهل لك حجة على
دعواك النبوة ؟ قال لهم شعيب : إن نطق هذه الأصنام بصدق مقالتي أتؤمنون ؟
قالوا : نعم . ورضى الملك بذلك ؛ فتقدم شعيب إلى الأصنام وقال لها : أيتها
الأصنام ، من ربك ؟ ومن أنا ؟ تكلمي بإذن الله . فنطقت بإذن الله وقالت : ربنا
الله وخالقنا وخالق كل شيء ، وأنت رسول الله ونبيه . وتكست عن كراسيها
ولم يبق منها صم صحيح ؛ وأرسل الله على قوم شعيب ريحا كادت تسفهم نسا
فأسرع الملك ومن معه إلى منازلهم ، وآمن بشعيب خلق كثير ؛ ثم أصبح الملك ومن
معه فخرجوا إلى سوقهم ، ونصبوا ما كان قد بقى عندهم من الأصنام ، وأمرهم
بالسجود لها ؛ فأتاهم شعيب ونهاهم وحذرهم فلم يرجعوا إليه ، وأمر الملك أصحابه
أن يقمعدوا لشعيب ولن معه كل مرصد ، ويؤذوهم أشد الأذى ؛ ثم قال الملك
وقومه : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾
إلى قوله : ﴿ رَبَّنَا اقْضِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاقِحِينَ ﴾ .

قال : وإذا برح قد هاجت عليهم فيها من الحز والكرب ما لا طاقة لهم به
حتى رموا أنفسهم في الآبار والسراديب ، واشتد الحز ودام عليهم مدة وهم
لا يزدادون إلا عزا وتعزدا ، وشعيب يدعوهم ويحذرهم العذاب ؛ فيقولون : لسا
نرى من عذاب ربك إلا هذا الحز ، ونحن نصبر عليه .

وأقاموا كذلك أعواما كثيرة وهم لا يؤمنون ؛ فأرسل الله عليهم الذباب
الأزرق ، فكان يلدهم كالسقارب ، وربما قتل أولادهم ؛ ثم تضاعف الحز عليهم

فتحوّلوا من مدين إلى الأيكة ، فتضاعف الحرّ عليهم ، وتقلّوا من الأودية إلى
الغياض والحرّ يشتدّ عليهم ، حتى أسوّقت وجوههم ، فأقبل إليهم شعيب ودعاهم
إلى الإيمان ، فلدّوه : يا شعيب ، إن كان ما نلقاه لكفرنا بك وبرك فزدنا منه
فإنّا لا نؤمن . فأوحى الله إليه أنّه مهلكهم ، فتحوّل عنهم .

ذكر خبر الظلّة

قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال : ولما كان من غد يوم مقاتلتهم ما قالوه لشعيب وهو يوم الأربعاء
وإذا بسحابة سوداء قد أرتفعت فأظلمت ، فاجتمعوا تحتها يستظلون بها من الحرّ
فأنطقت عليهم حتى لم يصر بعضهم بعضاً ، وأشدّت الحرّ ، ثم رمت بوجهها حرها
حتى أنفضت أبادهم وأحرقتهم وجميع ما كانت على وجه الأرض ، وشعيب
والمؤمنون ينظرون إلى ما نزل بهم ، ويتألمون مصارعهم ، ولم ينلهم من ذلك
مكره . قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْعَةَ ﴾ يعني صيحة جبريل ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴾ .

كان لم يفتوا فيها إلا بعداً للمدين كما عدت نمود ﴿ ثُمَّ أَقْبَلَ شُعَيْبُ وَالْمُؤْمِنُونَ يَنْظُرُونَ
إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ قَتَلُوا عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ
رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ معناها ، كيف أحن عليهم .
ثم قسم شعيب أموال الكفار على قومه ، وتزوج بإمرأة من أولاد المؤمنين ، ورزقه
الله رزقاً حسناً ، ولم يزل بأرض مدين حتى كفّ بصره ، وجاء موسى بن عمران من
أرض مصر ، وزوجه ابنته — على ما ذكره إن شاء الله تعالى — .

القسم الثالث من الفن الخامس

يشتمل على قصة موسى بن عمران عليه السلام وخبره مع فرعون ؛
 وخبر يوشع بن نون وإلياس واليسع وغيل واشمويل وداود وطالوت
 وجالوت وسليمان بن داود ويونس بن متى وحريص وبلوقيا وزكريا
 وعمران ومريم وعيسى ، عليهم السلام ، وأخبار الخواريين ؛
 وفيه ستة أبواب ؛ والله أعلم بالصواب

الباب الأول من القسم الثالث من الفن الخامس

في قصة موسى بن عمران وهارون — عليهما السلام — وخبر فرعون وإبتهاء
 أمره وغرقه ، وأخبار بني إسرائيل ، وخبر قارون ، وخروج موسى عليه السلام .
 ولنبداً بخبر فرعون وإبتهاء أمره ، وكيف توصل إلى الملك ، ثم نذكر قصة
 موسى عليه السلام معه ، ليكون الكلام في ذلك على سياقه .

فأما فرعون ، فهو الوليد بن مصعب .

قال وهب : كان مصعب بن ^(١)نسيم بمصر يرعى البقر لقومه ، وله امرأة يقال
 لها : راعونة ، وهما من المالقة ؛ فأتت عليه مائة وسبعون سنة لم يرزق ولداً ، فبينما
 هو في برية مصر إذا ببقرة قد ولدت عجلاً ؛ فطأوه وحسد البقرة ؛ فنادته : يا مصعب
 لا تسجل ، فسيولد لك ولد مشثوم يكون من أهل جهنم . فرجع وذكر ذلك
 لأمرأته ، وواقها فحملت بفرعون ، ومات أبوه قبل ولادتها ؛ ثم ولدت له أمته وسمته
 الوليد ، وأخذت في إرضاعه وتربيته حتى كبر ، فأسلمته إلى التجارين ؛ فأتقن
 صناعة التجارة ؛ ثم ولع بالقمار ، فعاتبته أمته ؛ فقال : كفى عني فأنا عون نفسي .

(١) كذا ورد هذا الاسم مضبوطاً بضم النون وضع السين في « ب » المنسوب خطها إلى المؤلف .

فلزمه هذا القلب ، فكان يُعرف بـ"نفسه" ، فقام في بعض الأيام ، فقمروه في قيصره ، وبقى في خلق لا يستره ؛ فاستحيا من الناس أن يروه كذلك ؛ فهرب حتى صار إلى قرية من قرى مصر ؛ فعرض نفسه على بقال ، فخدمه ، وكان يضرب المشترين ويؤذيهم حتى نفروا من البقال ؛ فطردوه فماد إلى مصر ؛ وكانوا يقولون : (قَرَّعُونَ) .

قال : ورجع إليها وهو لا يملك إلا درهما واحدا ، فاشترى به بقلًا وبطيخًا وقعد يبيعه ، فجاءه عربيف الطريق وطالبه بحق الطريق ؛ قال : وما هو ؟ قال : درهم . فلاحيا ؛ فترك فرعون رحله ومضى ، وجعل يسرق ويتقب ، فيهرب مرة ويؤخذ أخرى .

- ١٠ فاتفق أن رجلا من العالقة جمع به فرسه فججز عن ضبطه ، فوثب فرعون إلى الفرس وضبطه بلجامه ؛ فقال له المملوق : " أراك جلدا قويا . فأتخذه سائسا ؛ فجعل يخدمه حتى مات الرجل وليس له وارث ؛ فاحتوى فرعون على جميع ماله وحمله إلى أمه ، وأكل ذلك المال حتى فنى ، وضاق به الأمر ، فوقع في قلبه أن يجلس على باب مقابر مصر ويطلب أرباب الجنائز بشيء ، ويظهر أنه بإذن الملك ؛ ففعل ذلك مدة حتى أجمع له مال عظيم ؛ وأتخذ له أعوانا وحفدا^(١) يعينونه على ذلك ؛ وكان الملك بعد أن أهلك الله الريان بن الوليد ثوارته الفراعنة ؛ وأستقر في سنجاب بن الوليد ، وكان مكرا لبني إسرائيل ، وكانوا يعبدون الله علانية ويتلون الصحف جهرا .
- ١٥ قال : فمات أبنة للاك ؛ فحملت إلى المقبرة ، فتعلق بها أعوان فرعون على المادة لأخذ القطيعة ؛ فانصل الخبر بالملك ؛ فأمر بإحضاره وأراد قتله ؛ فقص

عليه قضته ، وفدى نفسه بما جمعه من المال ، فعظم عند الملك وأقره على عمله ؛
فقتل فرعون عند ذلك على جناز الملوك ألف درهم ، وعلى جناز الوزراء سبعمائة
والقواد خمسمائة ، ثم إلى المائة ، إلى الخمسين ، إلى عشرة ، إلى ثلاثة ، فأجتمع
الناس إلى الملك وحرفوا رأيه عن هذه الحيلة وقبحوها عليه ، فصرفه الملك عنها
وأبطلها ، وحمل إليه فرعون أموالا جمّة ، وقال له : أيها الملك ، إن جدى كان على
جيش أبيك ، فأجعل ذلك إلى .. فولاته الحرس وأمره أن يشدد فيه ، ويقتل كل
من لقيه بالليل كائنا من كان ؛ وجعل الملك معه عدّة من الرجال والأعوان ، فخرج
فرعون وأخذ لنفسه قبة في وسط البلد ، وكان يوجه أعوانه ، فن أتوه به في الليل
أمر يقتله ، فتقدم عند الملك بذلك ، لأتة أخاف أعداء الملك ، وأمر الملك جانيهم
بسيده ، وخافه الناس ، وجعل لنفسه حاجبا ، وتقدت كلمته .

ذكر خبر قتل الملك وأستيلاء فرعون على ملكه وما كان من أمره

قال : وأتفق مرض بعض وزراء الملك — وكان الملك يأنس إليه ويقضى
بأيه — فأحب أن يزوره بالليل ، فخرج منفردا وليس معه أحد من خدمه ، فأخذ
أعوان فرعون وأتوه به وهو يقول : ويلكم ، أنا الملك استجاب ، وهم يظنون أنه
يغدرهم بذلك ، حتى أتوا به إلى فرعون ، فأمر بقتله ، فقتل ؛ فبادر فرعون بمن
منه — فكان فيهم كثرة — ودخل القصر ، وكان لا يمنع منه ، فأستوى على سرير
الملك ووضع التاج على رأسه ، وفتح الخزان ، وأحضر الوزراء وفوق فيهم الأموال
فرضوا به ، وصاروا أولياء له .

قال : وأما إبليس ومحمد بن يديه ، وسماء المنا وربا ، ثم سمجد له هامان .
وكان غلاما مستجاب . ومحمد الوزراء والملوك والأعوان وغيرهم ، وبعث

إلى أسباط بني إسرائيل، فدعاهم إلى الطاعة والسجود له ؛ فسجدوا وقصدوا
بالسجود الله تعالى .

- ثم أقبل فرعون بعد ذلك على إبليس وقال : أيها الشيخ ، إنك كنت مباركا
وأنت أول من سجد لي، ثم جرى القوم بعدك على سنك، فن أنت؟ قال : أنا رجل
من أهل مصر أشير على الملوك بمصالحهم . ثم قال لفرعون : اتخذ لقومك أصناما
وأحملهم على عبادتها، واتخذ لك صنما آفرد به أنت، وأجعل له إلها ورباً . فوافقه
فرعون على ذلك، واتخذ له تورا من ذهب يعبد، وأمر الناس بعبادة الأصنام ؛
فعبدوها ؛ فكان فرعون يعبد الثور، والقبط يعبدون الأصنام، وبنو إسرائيل
يعبدون الله ؛ فبلغه ذلك ، فأحضر عبادهم وقال : قد بلغني أنكم مطيعون لي
في الظاهر، مخالفون لي في الباطن، فاسجدوا لي . فأبوا ذلك، وكان فيهم جماعة من
أولاد يوسف ويهوذا، فقتلهم، ثم قتل خلقا كثيرا، وتبعه الباقون وآمروا الإيمان؛
ثم إن فرعون استعبد الناس ووضع عليهم الخراج الكثير، وشق عليهم في الأعمال .
هكذا ما حكاه الكسائي - رحمه الله - في خبر فرعون وأبتداء أمره وسبب ملكه .
- وحكى أبو إسحاق التلبي - رحمه الله - في كتابه المترجم (بيواقيت البيان
في قصص القرآن) : أن فرعون موسى هو أبو العباس الوليد بن مصعب بن الريان
ابن أراشة بن ثروان بن عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه
السلام، وكناه بهذه الكنية .

- قال : وملك بعد أخيه قابوس بن مصعب ؛ وذلك أنه لما مات الريان بن
الوليد فرعون يوسف - عليه السلام - وذكر أنه قد آمن بيوسف ومات قبل
وفاة يوسف - عليه السلام - ملك بعده قابوس بن مصعب صاحب يوسف
٢٠

الثاني؛ فدعاه يوسف إلى الإسلام، فأبى، وكان جباراً، وقبض الله تعالى يوسف في ملكه، وطالت أيام ملكه، ثم هلك؛ وقام بالملك بعده أخوه أبو العباس الوليد ابن مصعب، ولم يذكر خلاف ذلك .

وقد قيل في اسمه ونسبه وسبب ملكه غير ذلك، وسيرد — إن شاء الله تعالى — في أخبار ملوك مصر المراجعة ما استقف عليه هناك — إن شاء الله تعالى — والله أعلم .

ذكر خبر آسية بنت مزاحم وزواج فرعون بها

- قال : وكانت آسية بنت مزاحم من الصديقات، وهي غنخ في نبوتها ولا خلاف أنها صديقة؛ وكانت بارعة الجمال؛ فبلغ فرعون خبرها وجمالها، فأرسل إلى أيها مزاحم (أن أبعث إلى آسية فإنها أمتي) . فدخل على فرعون وقال : إن ابنتي صغيرة لا تصلح . فكذب فرعون وقال : قد عرفت وقت ولادتها . فقال : أيها الملك، فأجعل لها مهراً . فغضب فرعون وقال : احملها إلى ، فإن رضى بها أكرمتها ، وإلا رددتها إليك . فقال له عمران : أيها الملك، لا تفضحنى في ابنة أختي، ولكن أكرمها بخلعة ومهر . فأجابه إلى ذلك؛ فانصرف مزاحم وأخبر آسية بذلك وقال : إن أمنت يكون ذلك هلاكى وهلاكك . قالت فكيف تكون مؤمنة عند كافر ؟ فلم يزل بها حتى أجابت على كره منها ؛ وحمل إليها فرعون عشرة آلاف أوقية من الذهب، ومثل ذلك من الفضة ، وجملة من أنواع الثياب والطرف؛ وحملت إلى فرعون، فلما الله منه حتى رضى منها بالنظر . وكان فرعون قد رأى قبل ذلك من الآيات ما دلّه على أن زوال ملكه يكون على يد قى من بنى إسرائيل ؛ فقال : استوى بمرمان لأنه كبير فيهم لأصطنع إليه وإلهم معروفا . فأبى به، فخلع عليه وتوجه، وجعله سيد وزرائه، حتى كان هامان وغيره يحسدونه .

⑥

ذكر شيء من الايات التي رآها فرعون قبل مولد موسى عليه السلام
فمن ذلك أنه هتفت به المواتف قهول : ويلك يا فرعون ، قد قرب زوال
ملكك على يد قتي من بنى اسرائيل .

ثم رأى الرؤى التي أزعجته وأفرعته ؛ فكان منها أنه رأى شابا وقد دخل عليه
وبيده عصا ، فضربه بها على رأسه وقال : ويلك يا فرعون ، ما أقل حياك من
خالق السموات ، كلما رأيت آية ازدددت كفرا . ونظر إلى آسية في المنام ولها
جناحان تطير بهما بين السماء والأرض حتى دخلت السماء ، ورأى الأرض قد
أفترجت وأدخلته في جوفها ؛ فأنتبه فزعا ، وقص رؤياه على أهل العبارة ، فقالوا :
إنها تدلّ على مولود يولد يسلبك ملكك ، ويزعم أنه رسول الله السماء والأرض
ويكون هلاكك وقومك على يديه .

وكان فرعون قبل ذلك إذا عبر عليهم رؤيا يقولون : هذه أضغاث أحلام
ويكتمونه ما تدلّ عليه .

ذكر خبر قتل الأطفال

قال : فاستشار فرعون وزرّاء وأهل مملكته ؛ فأشاروا عليه بقتل من يولد
من الذكور ؛ فقتل اثني عشرة ألف امرأة وسبعين ألف طفل ؛ وكان يمتدّب
الحوامل حتى يسقطن ، حتى نجت الملائكة إلى ربّها ؛ فأوحى الله إليهم بأن له أجلا
وبشرهم بموسى ؛ وكان فرعون قد منع وزرّاء وأهل مملكته من الاجتماع
بأهاليهم والخلوة بهم ، لأنه كان قد بلغه أن المولود يكون من أقرب الناس إليه ؛
وكان عمران ممن منع ؛ وكان فرعون إذا نام لا يبارقه حتى يستيقظ ؛ فبينما عمران ذات
ليلة على كرسيه عند رأس فرعون إذا هو بأمرأته وقد حملت إليه على جناح ملك من

الملائكة؛ فلما نظر عمران إليها فرح وقال : ما حاجتك ها هنا ؟ فسكتت ؛ فقال له الملك : إن الله يأمرك يا عمران أن تأتي زوجتك على فراش فرعون ليكون ذلك هوأنا له . فواقمها فحملت بموسى ؛ ثم أغتسلا في الحوض الذى فى دار فرعون ؛ ثم حملها الملك ورتبها إلى مترها ؛ وكان على باب فرعون ألف حاجب ، والأبواب مغلقة ، فلم يُنْز عنه ذلك ؛ ولما أصبح فرعون دخل عليه المنجمون وقالوا : إن الذى تحفاه قد حملت به أمه وقد طلع نجمه . فأمر فرعون القوابل والحواضن أن يدرن على نساء بنى إسرائيل ؛ ففعلن ذلك ، ولم يبرن بيت عمران لهماهنّ بملازمته لفرعون ليلا ونهارا ؛ فلما تمت أيامها جاءها الطلاق نصف الليل ، وليس عندها إلا أبتها ، فوضعت وجهه يتلأأ نورا .

١٠ ذكر خبر ميلاد موسى وما كان من أمره وإلقائه فى التابوت

قال : وأصبحت أم موسى وهى شديدة الفرح به والخوف عليه ؛ وسمع فرعون فى تلك الليلة هاتفا يقول : ولد موسى وهلك يا فرعون وتنكست الأصنام . فشدد فرعون فى طلب المولود ، فكانت أمه ترضعه ، وإذا خرجت فى حاجة ألقتة فى التور بمجده وغطته ؛ ففعلت ذلك فى بعض الأيام ، وكانت أخسه قد عجنّت وأرادت أن تحبز ، فسجرت التور وهى لا تعلم أن موسى فيه ؛ وجاء هامان والدايات فدخلا دار عمران فلم يجدوا شيئا ، ونظروا إلى التور والنار تملو منه ، فانصرفوا ؛ وجاءت أم موسى فرأت الأعوان والحرس قد خرجوا من مترها ، فكاد روحها يزهرق من الفرح ؛ فدخلت المنزل بسرعة نحو التور ، فرأت النار فيه ؛ فلطمت وجهها وقالت : ما تعنى الحذر ، أحرقت ولدى . وأنطلقت إلى التور فرأت موسى ولم تمسه النار ؛ فانخرجه ؛ ولما تم له أربعون يوما فزعت عليه ، فالتفت له تابوتا

١٠

١٥

٢٠

ووضعت فيه، وألقته في اليم؛ وكان أبوه قد مات قبل ذلك ودفن، فلذلك أشتد خوف أم موسى .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِنَّا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْنَاهُ فِي الْيَمِّ ﴾ .

- قال : فلما أتت به لتلقيه في النيل تصوّر لها إبليس في صورة حية سوداء وقال : إن ألقينته في اليم آبتلته . فسلمت أنه إبليس؛ فسمعت النداء : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قال : فطرحته في النيل . وقيل : إنه بقى في الماء أربعين ليلة .
وقيل : ثلاثا .

وقيل : ليلة واحدة .

ذكر دخول التابوت في دار فرعون ورجوع موسى إلى أمته

قال : وأصبح فرعون في اليوم الذي دخل فيه التابوت إلى قصره ، فصعد أعلى القصر وأشرف فرأى التابوت والموج يلعب به؛ وكان لفرعون سبع بنات من غير آسية ، بكل واحدة منهن نوع من البلاء والمرض ؛ وكان الأطباء قالوا له : إن دوامعن أن يقتلن في النيل . فصنع لمن نهر من النيل وأجره في وسط القصر ١٥ يصب في حوض عظيم؛ فكانت بناته يقتلن فيه؛ فأمر الله الريح أن تلقى التابوت في ذلك النهر وبنات فرعون فيه؛ فبادرت الكبرى وفتحته فإذا فيه موسى وله شمع ونور؛ فلما لمسته أذهب الله ما بها من البلاء والمرض؛ فلمسته بنات فرعون واحدة بعد أخرى، فذهب ما بهن من الأمراض؛ وأقبلن بالتابوت إلى آسية؛ فلما ٢٠ رآته قبلته ولم تعلم أنه ابن عمها؛ ثم أعادته إلى التابوت؛ وحلته جارية معها

ومضت به إلى فرعون ؛ فلما نظر إليه أرعد منه وقال : يا آسية ، إني أخاف أن يكون هذا عدوى ، ولا بد لي من قتله . فقالت له : قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَمِيَ أَنْ يَتَّخِذَنَا أَوْ يَتَّخِذَهُ وَلَدًا .

وحكى الثعلبي - أنها لما قالت : قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ، قال فرعون : قُرَّةُ عَيْنٍ لَكَ ، إنما أنا فلا حاجة لي فيه .

قال أبو إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” والذي يُخَلِّفُ بِهِ لَوْ أَقْرَ فِرْعَوْنَ أَنْ يَكُونَ لَهُ قُرَّةُ عَيْنٍ كَمَا أَقْرَتْ بِهِ لِهَدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا هَدَى بِهِ أَمْرَاتِهِ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَمَهُ ذَلِكَ “ .

قال الكسائي : ولم تزل تلتطف بفرعون حتى تركه ، وأحضرت له المراضع فلم يرضعهن . قال الله تعالى : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ) .

وأرسلت أم موسى آبتها^(١) كلم ، قال الله تعالى : (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) .

قال : فدخلت قصر فرعون فرأته في حجر آسية وقد امتنع أن يرضع ؛ فنفقت إليها ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون .

قال : ولم تعلم آسية أنها أبنه عمها لثلاثة ثيابها ، لأنها دخلت في حلبة المراضع ؛ فالتفت إليها فرعون وقال : مَنْ هؤلاء القوم الذين يكفلونه ؟ قالت : قوم من آل إبراهيم . قال : اذهبي وائتني بهم . فرجعت إلى أمها وأخبرتها ؛ فدخلت على فرعون وموسى بين يديه ، ففرقتها آسية وقالت : خذني هذا الصبي وأرضعيه . فلما أخذته ألتقم ثديها ورضع منه ، وفرعون لا يعلم أنها امرأة عمران ؛ فقالت لها

آسية : أحب أن تكونين عندى إلى أن يستغنى هذا الغلام عن الرضاع . فأقامت
 عند آسية ستين حتى قطمته وفارقه مستبشرة فرحة .
 وحكى الثعلبي أنها لم تُقم عند آسية ، بل أخذته وصارت إلى مقلها فأرضعته
 إلى أن تم رضاعه ، وأعادته إلى آسية ؛ والله أعلم .

ذكر شيء من عجائب موسى — عليه السلام — وآياته .
 قال : فلما صار موسى من أبناء ثلاث سنين ، استدعاه فرعون وأجلسه
 في حجره وجعل يلاعبه ؛ فقبض على لحيته فرعون ؛ فألم لذلك وقال : لا شك أن
 هذا عدوى . وهم بقتله ؛ فقالت له آسية : إن الصبيان لم يجرأوا ولعب من غير
 معرفة ولا عقل ، وأنا أريك أنه لا يسقل ؛ وأمرت بإحضار طست وطرحته فيه
 دقة وحجرة ، وقدمته إلى موسى ، فأراد أن يأخذ الدقة ؛ فصرف جبريل يده عنها
 إلى الجرة ، فأخذها ورفعها إلى فيه ، فأحرق لسانه ، فقتلها من فيه وبكى بكاء
 شديدا ؛ فقالت آسية لفرعون : علمت أنه لا يميز بين الدقة والجرة ؟ فسكن
 عند ذلك .

قال : فلما تم لموسى سبع سنين ، جلس في بعض الأيام مع فرعون على سريره
 فقرصه فرعون ، فنضب موسى وتزل عن السرير وضرب قوائمه برجله ، فكسر قائمتين
 منه ، فسقط فرعون عنه ، وأنشتم أخوه وسال الدم على لحيته ؛ فبادر موسى ودخل
 على آسية وأعلمها بالخبر ، وتبعه فرعون إليها وأراد قتله ؛ فقالت : ألا يسرك أن
 يكون لديك بهذه القوة يدفع أعدائك عنك ؟ ولا طفته حتى سكن غضبه .

ثم ظهر له من المعجزات والآيات ما لا يظهر إلا للأنبياء وفرعون يكرمه ؛

والله الموفق .

ذكر خبر القبطي وخروج موسى من مصر

قال : ولما كبر موسى صار يركب من مراكب فرعون ويلبس من ملابسه ؛ وكان يدعى : موسى بن فرعون ؛ فامتنع بسببه الظلم عن بني إسرائيل ، ولم يعلم إلا أن ذلك من قبل الرضاة ؛ وأتفق ركوب فرعون ، فركب موسى في أثره والمدينة منقلة الأسواق ، وليس بها أحد ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ فكان الذي من شيعته قتي من بني إسرائيل ، والذي من عدوه رجل من القبط ، وهو طباطخ لفرعون ، وقد أخذ حطباً للطعام ، وهو يريد الإسرائيلي على حمله وقد امتنع ؛ فلما مر بهما أستغاثه الإسرائيلي ؛ فقال للطباطخ : اتركه . فأمتنع من تركه ؛ فوكزه موسى في صدره فمات ؛ فندم موسى على قتله ؛ قال الله تعالى ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ الآيات .

قال : فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ .

وجاء القبط وشكوا إلى فرعون أن بني إسرائيل قتلوا رجلاً منهم ؛ فأمرهم أن يطوفوا على قاتله ؛ وخرج موسى في اليوم الثاني ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ عَلَى قَبْطِيٍّ آخَرَ ، والقبطي يقول : هذا الذي قتل ابن عمي بالأمس . فقال الإسرائيلي : أعني يا موسى على هذا ، فإنه يريد أن يحملني إلى دار فرعون قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ .

قال : ثم لم يجد موسى بداً من فُصرة الإسرائيلي ، فحضر عن ذراعيه ، ودنا من القبطي ؛ فظن الإسرائيلي أن موسى يريد أن يبطش به ، فقال ما أخبر الله به عنه :

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالِ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

فلما سمع القبطي - كلام الإسرائيلي - لموسى تحقق أن موسى قاتل ابن عمه ؛ فدخل إلى دار فرعون وأخبره أن موسى هو الذي قتل القبطي - ؛ قال : ومن أعلمك ؟
ففصّ عليه القصة ؛ فاذن فرعون لأولياء المقتول في قتل موسى حيث وجدوه ؛
فجاء حزقيل - وكان مؤمنا من آل فرعون - وأعلم موسى بالخبر .

قال الله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰ ذَٰلِكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

ومضى بنير زاد ولا راحلة ؛ فترابح في طريقه ، فاعطاه موسى ثيابه ، وأخذ جبة الراعي وكساه ، وسار فوصل إلى مدين في اليوم السابع وقد أجهده الجوع .
قال : وكانت موسى يسير بالليل ودليله النجم ، فإذا جاء الصبح جاءه أسدان يدلّانه على الطريق ؛ فكان هذا دأبه ومهما كذلك حتى ورد مدين ؛
والله الهادي .

ذكر خبر ورود موسى مدين وما كان بينه وبين شعيب وزواجه أبنته
قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَكُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ وكانت ابنتي شعيب عليه السلام .

قال : وكان الرعاء إذا سقوا غطوا البئر بصخرة لا يرفعها إلا جماعة ؛ فلما انصرفوا تقدم موسى إلى الصخرة فوكرها برجله ، فدحاها أربعين ذراعاً على ضعفه من الجوع وسقى غنمهما .

قال الله تعالى : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

قال : فغنى موسى في ذلك الوقت شبةً من خبر الشعير ؛ وأنصرفت المراتان إلى أبيهما وأخبرناه بالخبر ، فأرسل إحداهما إليه وقال : ائتني به . قال الله تعالى : ﴿ بَلَاءُ لَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

فقام موسى ، وكانت تمرين يديه فكشف الريحُ عن ساقيهما ؛ فقال لها : تأخري ورائي ودليني على الطريق . فتأخرت وكانت تقول : عن يمينك وعن شمالك . حتى دخلا مدين ؛ وجاء إلى شعيب — وهو شيخ كبير وقد كَفَّ بصره — فسلم عليه ؛ فردّ عليه ورحّب به وسأله عن خبره . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ثم دعا شعيب بالطعام فأكل ؛ فقالت أخته : يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ أرادت بالقوة رفع الحجر عن رأس البئر واستقامه بالدلو العظيمة ، وأما أنه أخرها إلى خلفه .

فرغب فيه وقال : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصّٰحِلِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا قَوْلُ وَكِيلٌ .

١١) قترج موسى صفورا — وهى الصغرى منهما — وطلب عصا؛ فقالت له :
ادخل بيت أبى الذى يأوى فيه تغذ عصاك . وكان فيه عصى كثيرة — فدخل
موسى البيت وأخذ من العصى عصا حمراء؛ فقال له شعيب : هذه من أشجار الجنة
أهداها الله إلى آدم ، ثم صارت إلى شيث وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم
وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وكلهم توكأوا عليها ، فلا تخرجنها من يدك .
ثم أوصاه وحذره من أهل مدين ، وقال : إنهم قوم حسدة ، وإذا رأوك
قد كفيقتى أمر غنى حسدوني عليك ، فدلوك على وادى كذا وكذا ، وهو كثير
المرعى ، وإنما فيه حية عظيمة تبتلع النعم ، فإن دلوك عليه فلا تتر به ، فأتى أخاف
عليك وعلى غنى .

١٠. نفرج موسى بالنعم — وكانت يومئذ أربعين رأساً — وقال فى نفسه : إن
من أعظم الجهاد قتل هذه الحية . وتوجه بالنعم إلى ذلك الوادى؛ فلما قاربها أقبلت
الحية إلى النعم ، فقتلها موسى ورعى غنمه إلى آخر النهار، وعاد إلى شعيب وأعلمه
الخبر؛ ففرح بقتلها ، وفرح أهل مدين وعظموا موسى وأجلوه؛ وقام موسى بنم
شعيب يرعاها ويسقيها ، حتى أقضت المدة التى بينهما ، وبلغت أربعائة رأس
وعزم موسى على المسير .

ذكر خبر خروج موسى — عليه السلام — من أرض مدين
ومناجاته ومبعثه إلى فرعون

قال : ولما أراد موسى الانصراف بكى شعيب وقال : يا موسى ، إني قد
كبرت وضمعت ، فلا تضيقني مع كبر سنّي وكثرة حسادى ، وترك غنى شاردة
لا راعى لها . قال موسى : إنهما لا تحتاج إلى راع ، وقد طالت غيبتى عن أمي
٢٠ (١) كذا ورد هذا الاسم فى التوراة وتاريخ السني .

وخالتي وهارون أختي . فقال شعيب : إني أكره أن أمنحك . وأوصاه بابتنه وأوصاها ألا تخالفه ؛ وسار موسى — عليه السلام — بأهله يريد أرض مصر حتى بلغ جانب وادي طوى في عشية شديدة البرد ؛ وجاء الليل وهبت الرياح وغيمت السماء ؛ فأنزل موسى أهله وضرب خيمته على شفير الوادي ، وأدخل أهله فيها ؛ وهطلت السماء بالمطر ؛ وكانت أمراته حوامل ، بغامها الطلق ، بجمع حطبها وقدرح الزناد فلم يور ، فرماه ونخرج من البيت ، فرأى نارا .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَصُورَةٍ مِنْ نَارٍ لَمَّا كُنْتُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَنهَا نُوْدِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَأْمُرْهُ إِلَىٰ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ولم يكن هناك نار بل نور .

قال التعلبي : واختلفوا في الشجرة ما كانت ، ف قيل : العوجبة . وقيل : العناب .

قال الكسائي : وأمر موسى بخلع نعليه ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنهَا نُوْدِيَ يَأْمُرْهُ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى * وَأَنَا آخِزْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى ﴾ قال حي عصى أتوكأ عليها وأهش بها على غنبي ولي فيها مآرب أخرى ﴾ .

قال : لأنه كان يركها في الأرض ويمسك عليها كساءه وإداوته ونعليه ، ويقال لها السباع ، ويستظل بها من الشمس .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَقَهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِنَّا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ على مثال

الشعبان العظيم .

١٠

١٥

٢٠

قال : فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْرِياً وَلَمْ يُعَقِّبْ .

فلما أمن في الحرب قال له جبريل : أنتهز من ربك وهو يكلمك ؟ قال :
ما فررت إلا من الموت . ورجع وهي مجلها ؛ قال الله تعالى : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ
سَتُعَلِّمُهَا مِيزَتَهَا الْأُولَى ﴾ .

- ٥ . فأدخل يده في فيها فلذا هي عصا ؛ ثم قال الله له : ﴿ وَأَخْضَمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ
تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ فذهب الخوف عن موسى ؛ ثم أمره الله
تعالى أن يذهب إلى فرعون ، فقال : ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ . قال
موسى : رَبِّ أَشْرِخْ لِي صَدْرِي • وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي • وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي •
يَقْضُوا قَوْلِي • وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي • هَارُونَ أَخِي • اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي •
وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي • كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا • وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا • إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا .
١٠ . قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ .

- قال : ثم تذكر موسى ما كان منه فقال : رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ
أَنْ يَقْتُلُونِ . فنودي : يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ . ثم
ذكره الله سبحانه عليه فقال : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ الآيات ؛ ثم قال الله
تعالى : ﴿ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى • فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى • قَالََا
رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى • قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى •
فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُضَيِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ
١٥ . مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَيْتُ الْمُدَى ﴾ .

قال : وكان الخطاب لموسى وحده ، والرسالة له ولهارون .

- ٢٠ . قال : وأما آية شيب فاشتد بها الطلق ، وسمع سكان الوادي من الجن أنيها ، فأثوها
وأوقدوا النار عندها ، وقيلوها ؛ وقضى الله تعالى لما من ردها إلى أبيها والله المعين .

ذكر خبر مسير موسى إلى مصر واجتماعه بأخيه هارون وأمه

قال الكسائي : وسار موسى من الطور حتى بلغ العمران ؛ وكان هارون يومئذ وزيراً لفرعون على عادة أبيه لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ؛ فبينما هو نائم إلى جنب سرير فرعون إذ أتاه آت في منامه ومعه شراب في كأس من الباقوت ، وقال : يا هارون اشرب هذه الشرية فهي إشارة بقدوم أخيك من أرض مدين ، وأنت شريكه في الرسالة إلى فرعون .

فانتبه هارون فزعاً وظنَّ ذلك من الشيطان ، وعاد إلى النوم ، فصادفه القائل ثلاث مرَّات ؛ ثم قال له : قم إلى أخيك — وكانت الأبواب مغلقة — فأحمله الملك إلى قاعة الطريق وقال له : امض واستقبل أخاك . ثم أتاه جبريل بوحى الله وبشَّره بالرسالة ، وحمله إلى شاطئ النيل ، وموسى إلى الجانب الآخر ؛ فكان يكلمه والرج يحمل كلامه إلى هارون ؛ ثم أذن الله لهما أن يلتقيا ؛ فجاء موسى إلى الجانب الآخر ، فالتقيا ؛ وبشَّره بشركته في الرسالة ؛ ثم أقبلا إلى أمتهما وجبريل معهما ، فطرق هارون الباب وأتمه في صلاتها ، فقامت من محرابها وقالت : من بالباب ؟ فقال موسى : أنا وللك موسى وأنى هارون . ففتحت الباب ، ووقعت منشياً عليها من الفرج ؛ ثم أفاقت ؛ وذكر لها موسى ما كان من أمره ؛ فسجدت لله تعالى ؛ ثم حل جبريل هارون وأعادته عند رأس فرعون ؛ وأقام موسى بقية ليلته عند أمته ، وخرج من القد متكرِّراً ، فنظر إلى ما أحدثه فرعون في أرض مصر ورجع حتى أقبلت الليلة الثانية ، فخرج وجاء إلى قصر فرعون وبه الحجاب والحرس والجنود ، فقرع الباب بعصاه ، فافتتح ودخل حتى بلغ القبة الأرجوانية ، فافتتحت وعبرها وفرعون نائم بها ، وهارون عند رأسه ؛ فقام إليه هارون وقال : لقد عجَّلْتَ يا أبنى . وأنحِرجه ؛ فأنصرف ، وغلقت الأبواب كما كانت .

فلما كان من الند جاء إلى فرعون فعرفه بعضهم، وأنكره البعض، وجاء بعض الوزراء إلى فرعون وأخبره به، فأرعدت فرائصه، وأمر هامان أن يخرج إليه؛ فخرج وسأله عن اسمه، فأخبره أنه موسى؛ فساد هامان إلى فرعون وأعلمه أنه هو؛ فنظر إلى هارون وقال : أيقدم أخوك ولم تملني به ؟ فقال : أردت ذلك وإنما خشيت غضبك .

ذكر خبر دخول موسى - عليه السلام -

إلى فرعون وما كان من أمره معه

- قال : وأمر فرعون أن يزین قصره، وجلس والتج على رأسه، ووقف الوزراء عن يمينه وشماله، وأحضر موسى؛ فلما رآه عرفه، ثم قال له : من أنت ؟ قال : ١٠ أنا عبد الله ورسوله وكليمه . قال : أنت عبد فرعون . قال : إن الله أعز من أن يكون له نذ . قال له فرعون : إلى من أرسلت ؟ قال : إليك وإلى جميع أهل مصر . قال : فيأذا ؟ قال : أن يقولوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأتى موسى عبده ورسوله . قال : فما سخطك ؟ فإن لكل مدع بينة . قال : إن أمنتك بينة تؤمن ؟ قال : نعم . قال موسى : يا هارون، انزل عن الكرسي وبلغ فرعون الرسالة . ١٥ فقل وقال : يا فرعون . إنا رسول ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعدبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من أتبع الهدى . فقال فرعون : قن ربك يا موسى * قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، الآيات .

- فغضب فرعون على هارون، وأمر هامان بترج ما عليه من اللباس؛ فزرعه حتى بقي بالسر اويل، فألبسه موسى مدرعة الصوف؛ فاقشعر جلده؛ فقل جبريل ٢٠ بقميص كونه الله تعالى فكان وألبسه إياه؛ فقال فرعون لهامان : احمل موسى

وأخذه إلى منزله ودارهما ، فإن أطاعاني مكتنهما من خزائني ، ولا أقطع أمرا دونهما . ففعل ذلك ؛ فقالا له : يا هامان اشتر نفسك من ربك . فضحك من قولها ، ثم أحضرهما من الغد إلى فرعون ؛ فأقبل على موسى وقال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَقَعَلْتَ لَنَا آلِي فَكُنْتَ وَآنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * ٧٦ ﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ؛ أَي عن النبوة ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفَكُمُ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ثم قال : تَذَبُّعُ ابْنَاهُمْ وَتَسْتَحْيِي نَسَائِهِمْ ، فَشَكَّوْكَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . وكان فرعون متكئا ، فاستوى جالسا وقال : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ . فألقت فرعون لمن حوله وقال : ﴿ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ . قال موسى : ﴿ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمُ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴾ . قال فرعون : ﴿ لَنْ أَعْتَدَتْ لَهَا غَيْرِي لِأَجْلَتِكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكِ بِبَنِي مُيِّنٍ . قَالَ فَأْتِي بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * ١٠ ﴾

ذكر خبر العصا حين صارت ثعبانا واليد البيضاء

- ١٥ قال : وبينما هما في المخاطبة وإذا بالعصا اضطربت في كف موسى ؛ فناداه جبريل : اطلقها يا بني الله . فالتفها موسى ﴿ فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ كأعظم ما يكون ؛ ثم تمثل مثال الجمل البختي وقام على رجله حتى أشرف برأسه على حيطان القصر وتنفس نارا ودخانا ، وعطف على قبة فرعون فضرها فططحطحها ، وجعلت لا تتر بشيء إلا ابتلعت ، وماجت كالجمل المقتلم ولها صوت كالرعد ؛ وأقبلت إلى قبة فرعون وهو فيها ، فوضعت لحياها الأسفل تحت القبة ، ولحياها الأعلى فوقها ، ورفعت القبة
- ٢٠

- ثمانين ذراعا في الهواء ، وقالت : يا فرعون ، وعزة ربى لو أئذنى لى لأبتلعك
 بقصورك وأموالك . فلما نظر فرعون إلى ذلك وثب عن سريره - وهو أمرج -
 وجعل يعدو ويقول : يا موسى بحق التربة والرضاع ، وبحق آسية كفها عنا .
 فناداها ، فأقبلت ، فادخل يده في فيها ، وقبض على لسانها فإذا هى عصا كما كانت ؛
 فناد فرعون إلى مكانه وقال : يا موسى ، لقد تعلمت بمدى سحرا عظيما . قال :
 يا فرعون ، ﴿ أَيْحَرُّ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّارُونَ ﴾ . قال فرعون : هل عندك سحر غير
 هذا ؟ قال : نعم ؛ فادخل يده في جيبه ، ثم أخرجها وعليها نور وشماع ؛ قال الله تعالى :
 ﴿ فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ونزع يده فإذا هى بيضاء للتأطرين . قَالَ لِللَّيْلِ
 حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ .
 قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّطَهَّرٍ .

- ذكر خبر السحرة واجتماعهم وما كان من أمرهم وإيمانهم
 قال : فأمر فرعون بجمع السحرة ؛ فاجتمع إليه سبعون ألف سحر ؛ فاختار
 منهم سبعين سحرا - وهم أحذق الخلق - .

- وحكى الثعلبي عن عطاء قال : كان رئيسا السحرة بأقصى مدائن الصعيد
 وكانا أخوين ؛ فلما جاءهما رسول فرعون قال لآتهما : دلينا على قبر أبينا . فدلتهما
 عليه ؛ فأتياه فصاحا بأسمه ؛ فأجابهما ؛ فقالا له : إن الملك قد وجه إلينا أن تقدم
 إليه ، لأنه أتاه رجلان ليس معهما رجال ولا سلاح ، ولهما عز ومنعة ، وقد ضاق
 الملك ذرعا بهما ، ومعهما عصا إذا ألقياها لا يقوم لها شيء حتى تجلج الحديد
 والخشب والحجارة . فأجابهما أبوهما : أنظرا إذا هما ناما ، فإن قدرتما أن تسلا العصا
 فسلأها ، فإن الساحر لا يعمل سحره وهو نائم ، فإن عملت العصا وهما نائمان فذلك

أمر ربّ العالمين فلا طاقة لكما به ولا لئلك ولا لجمع أهل الدنيا . فأتياهما خفية وهما نائمان ليأخذاهما ، فصلىتهما .

قال الكسائي : وبث فرعون إلى موسى فأحضره وقال ما أخبر الله تعالى به عنه : (قَالَ أَجَعْنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ مِثِّي) .

قال : ويوم الزينة هو أول يوم من السنة ؛ فلما كان في ذلك اليوم اجتمع الناس من أطراف أرض مصر في صعيد واحد ، فأخذ فرعون يقول للسحرة : اجتهدوا إن تغلبوا موسى . قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قال فرعون : نَمَّ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفَرِّقِينَ .

وأقبل موسى وهارون وقد أحدثت بهما الملائكة ، فرأى موسى الوادي وقد امتلأ من الجبال والمعصى ؛ فقال موسى : وَلَيْكُمُ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَاحَكُمْ يَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى .

قال : وكان في السحرة ساحران عظيمان — وهما رأس السحرة — فقالا : يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تَتَّبِعِيَ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . فهم موسى أتى يلي ، فنهه جبريل ، وأجرى الله على لسانه فقال : بَلْ أَلْقُوا ؛ فآلقوا وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسِحْرٍ عَظِيمٍ . قال الله تعالى : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَعَصِيتْ مُجِلٌ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنْهَا تَسْمَى) . فامتلا الوادي من الحيات ، وجعلت يركب بعضها بعضها ؛ وقالوا مِيزَةٌ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ؛ قال الله تعالى : (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا

صَنَعُوا كَيْدَ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿ فَعِنْدَهَا زَالٌ خَوْفُهُ وَقَالَ : مَا اجْتُمُّ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُظِلُّهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . ثُمَّ أَلْقَى عُصَاهُ فِي وَسْطِ الْوَادِي ، فَانْكَشَفَ سَحَرُ السَّحَرَةِ ، وَبَطَلَ مَا أَظْهَرُوهُ مِنَ التَّخِيلِ ، فَإِذَا هِيَ جِبَالٌ وَعِصَى ، وَصَارَتْ عُصَاهُ مُوسَى ثَعْبَانًا لَهُ سَبْعَةُ أُرْسُوسَ ، وَعَلَى ظَهْرِهِ مِثْلُ الْأَزْجَةِ ، فَأَبْتَلَتْ الْجِبَالُ وَالْعِصَى وَجَمِيعَ مَا كَانَ فِي الْوَادِي مِنَ الزَّيْنَةِ ؛ فَنَامَ فِرْعَوْنُ وَوُزَرَآؤُهُ فَوْقَهُ عَلَى تَلٍ يَنْظُرُونَ فَمَلَ الْحَيَّةُ وَهُمْ خَائِفُونَ ؛ ثُمَّ حَمَلَتْ عَلَى السَّبْعِينَ رَجُلًا فَوَلَّوْا هَارِبِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؛ ثُمَّ اجْتَمَعُوا بِأَجْمَعِهِمْ وَقَالُوا : مَا هَذَا بِسَحَرٍ ، وَنَحَرُوا سَحَابًا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ .

١٠ قال : فَأَعْتَمَ فِرْعَوْنُ لِنَاكَ وَقَالَ لِلْسَّحَرَةِ : ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وَأَمَرَ أَنْ يَفْعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ ؛ فَقَالُوا مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ تَعَالَى عَنْهُمْ : ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحَرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .
١٥ ثُمَّ صُلِبُوا عَلَى سَبْعِينَ جَذْعًا بَعْدَ أَنْ قَطَعَ فِرْعَوْنُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ .

ذَكَرَ خَيْرُ حَزْقِيلٍ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ

قد قيل : إن خير مؤمن آل فرعون كان قبل خير السحرة ، وسباق الآيات يدل على أن خطابه لفرعون كان بعد خبرهم ، وذلك أنه لما كان من أمر السحرة

(١) زاد الكشاف بعد هذه الكلمة : « والأسة » .

ما ذكرناه، قال الملا من قوم فرعون ما أخبر الله تعالى به عنهم؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْتَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنَقْتُلُنَ آبَاءَهُمْ وَإِنا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ۝ وَقَالَ اللَّهُ تعالى إخباراً عن فرعون : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۝ ٥

قال : فلما عزم فرعون على قتل موسى، أقبل حزقيل على القوم — وكان خازن فرعون وزوج ماشطة بناته — فقال ما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۝ ١٠

ففرزع فرعون من قوله وقال : مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ .

نفخونهم المؤمن وقال ما أخبر الله تعالى به عنه : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝ ١٥

فلما سمع فرعون كلامه غضب وقال : كأنك ممن اتبع موسى ، فأرجع عن ذلك وإلا عاقبتك بأنواع العذاب . فقال له حزقيل : يَا قَوْمِ أَتَعْبُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ

الرَّشَادِ ، الْآيَاتِ . ٢٠

- ثم قال : وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّبَاِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي
لَا أَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِ الْفَقَارِ * لَا جَرَمَ
أَعْمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ
الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَتَذَكُّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُصُّ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ؛ ولحق بموسى وهارون، وفارق فرعون وقومه ؛ قال الله تعالى :
﴿ فَوَقَّاهُ اللَّهُ سِتَّاتٍ مَا مَكَّرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ .

وحكى التعلوي أن فرعون قله مع السحرة صلياً ؛ ثم ذكر بعد ذلك أنه كان مع
موسى عليه السلام لما فرق الله له البحر؛ والله تعالى أعلم .

ذكر خبر بناء الصرح وما قيل فيه

- ١٠ قال : ولما أفضى أمر السحرة أقبل فرعون على هامان وقال : ﴿ يَا هَامَانُ
أَبْنِي لِي صَرْحًا لَعَلَّ أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ ۖ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطْلِعْ إِلَيَّ يَا مُوسَى وَإِنِّي
لَأَظُنُّكَ كَاذِبًا ﴾ .

- قال : فجمع هامان خمسين ألف صانع وصنع القرميد — وهو الآجر، وهامان
أول من صنعه — فكانوا يبنون فيه ليلاً ونهاراً لا يفترون؛ فلما تكامل الصرح
وأرتفع أرفطاعاً عظيماً ، أمر الله عز وجل جبريل فهدمه وجعل عاليه سافله
١٥ ومات كل من كان فيه على دين فرعون، والمؤمنون يزيدون ويحتمعون إلى موسى
عليه السلام .

- وحكى أبو إسحاق الثعلبي — رحمه الله — أن الصرح أجمع فيه لبنائه
خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ممن يطبخ الآجر والحصى ويحرق الخشب
والأبواب ويضرب المسامير ؛ فلم يزل يبنى ذلك الصرح ؛ ويسر الله تعالى له أمره
٢٠

استدراجاً منه ، فألقى الأمر فيه على ما يريد ، إلى أن فرغ في سبع سنين ، فارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بئناً أحد من الخلق منذ خلق الله السموات والأرض ، فشق ذلك على موسى ، فأوحى الله تعالى إليه : أن دعه وما يريد فألقى مستدرجه ومبطل كل ما عمله في ساعة واحدة .

قال : فلما تم بنيانه بعث الله عز وجل جبريل فضرب بجناحه الصرح ، فقتل به على عسكر فرعون ، فقتل منهم ألف رجل .

قالوا : ولم يبق أحد ممن عمل فيه إلا أصابه موت أو حريق أو عاهة .

قال : وكان تدمير الله تعالى الصرح فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

قال : فلما رأى فرعون ذلك من أمر الله ، وعلم أن حيلته لم تقن عنه شيئاً عزم على قتال موسى ومن معه ، وأمر أصحابه فنصبوا له الحرب ، فلما رأى الله تعالى ذلك من فعل فرعون وقومه ، وأنه حقت عليهم كلمة العذاب ، ابتلاهم الله تعالى بالعذاب والآيات .

ذكر خبر الآيات التسع

قال الكسائي : ثم أخذ الله تعالى قوم فرعون بالآيات التسع ، فكان أول ما جاءهم الطوفان ، فدام عليهم ثمانية أيام لا يرون فيها شمساً ، حتى امتلأت الأسواق والدور ، وأخذت في الخراب ، فالتجأوا إلى فرعون ، فقال : سأكشف ذلك عنكم . ودعا موسى وسأله أن يدعو برفع الطوفان ليؤمن به ، فقطع موسى في ذلك ، فسأل الله تعالى ، فرفع ذلك عنهم ، فأزادوا كفراً ، فبعث الله تعالى عليهم الجراد فأكل أشجارهم وزرعهم ، ودام ثمانية أيام ، ففزعوا إلى فرعون ، فوصلهم بصرفه عنهم وضمن لموسى إن صرفه عنهم آمن به ، فدعا ربّه ، فأرسل الله على الجراد ريحاً باردة

- ففتنته ، فلم يؤمنوا؛ فبعث الله عليهم القمل فاكل جميع ما في بيوتهم، وقرض ثيابهم وأبدانهم وشعورهم؛ فضجوا إلى فرعون ، فسأل موسى ووعده الإيمان؛ فسأل الله تعالى، فصرفه عنهم بعد ثمانية أيام وأماته، فازدادوا كفرا؛ فأرسل الله تعالى عليهم الضفادع، فكانت تدخل في طعامهم وشرايهم، وكانت لها رائحة متنتة فدامت ثمانية أيام؛ فسأل موسى؛ فلما كشفها الله عنهم لم يؤمنوا وأزدادوا كفرا؛
- فأمر الله تعالى موسى: أن أضرب بعصاك النيل. فصر به فتحوّل دما عيطا، فاشتد بهم العطش، فكان الإسرائيلي والفرعوني يأتیان إلى موضع واحد، فإذا أخذه الإسرائيلي يكون ماء، وإذا أخذه الفرعوني كان دما، فدام ذلك ثمانية أيام حتى أجهدهم العطش وأشرفوا على الهلاك؛ فلما كشفه الله عنهم بدعوة موسى أزدادوا كفرا .

١٠ ذكر خبر مسح قوم فرعون

- قال : ولما لم يؤمنوا بهذه الآيات ، قال موسى : رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ؛ وكان الدعاء من موسى ، والتأمين لمارون ؛ فأوحى الله إليهما : ﴿ قَدْ أَجَبْتَ دَعْوَتُكَمَا فَاسْتَقْبَا ۙ الْآيَةَ .
- قال : فطمس الله تعالى على كثير منهم ، حتى أصبح الرجال والنساء والصبيان والأموال كلها حجارة ، فلم يؤمنوا ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۙ .

قال عمر بن عبد العزيز في تفسيره : كان أول الآيات المصا ، واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والبحر حتى صار يئسا .

وحكى أبو إسحاق النخعي في قصصه عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقادة
ومحمد بن إسحاق وغيرهم من أصحاب الأخبار - دخل حديث بعضهم في حديث
بعض - قالوا : لما أمنت السحرة وصلبهم فرعون، وأنصرف موسى وهارون إلى
عسكر بني إسرائيل، أمر فرعون أن يكلفوا بني إسرائيل ما لا يطيقونه، فكان
الرجل من القبط يحيى إلى الرجل من بني إسرائيل فيقول له : انطلق معي فأكنس
حشيتي^(١) واعلف دوابي وأستقي لي . ويحيى القبطية إلى الكريمة من بني إسرائيل
فكلفتها ما لا تطيق، ولا يطعمونهم في ذلك كله خبزاً، وإذا انتصف النهار يقولون
لهم : اذهبوا فاكسبوا لأنفسكم . فشكوا ذلك إلى موسى ، فقال لهم : اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ
وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . قالوا :
يا موسى : أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، كنا نعلم إذا استعملونا
من قبل أن نجئنا ، فلما جئنا استعملونا ولا يطعمونا . فقال لهم موسى : عسى
ربكم أن يهلك عدوكم بني فرعون والقبط ، وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ .

قالوا : فلما أبى فرعون وقومه إلا الإقامة على الكفر، والتعادي في الشر
والظلم، دعا موسى ربه وقال : رب إن عبدك فرعون طغى في الأرض وبني وعنا
وإن قومه نقضوا عهدك وأخلفوا وعذك، رب اخذهم بقوبة تجعلها عليهم قومة
ولتقوى عظة ، ولما بعدهم من الأمم عبرة . فتابع الله عليهم الآيات المفصلات
بعضها في إثر بعض، فأخذهم بالسنين وتقص من الثمرات ، ثم بعث عليهم الطوفان
(وهو الماء) أرسل عليهم الماء حتى كادوا يهلكون، وبيوت بني إسرائيل وبيوت
القبط مشبكة مختلطة بعضها في بعض، فامتلاّت بيوت القبط حتى قاموا في الماء

(١) الحش : يكتى به عن بيت الخلاء؛ وهو مثل الحاء .

إلى تراقيهم، فن جلس منهم غرق، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل من الماء قطرة وقاض الماء على وجه أراضيهم كذلك، فلم يقدرُوا على أن يجرثوا ولا يعملوا شيئاً، ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت؛ فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء وتؤمن بك وترسل معك بني إسرائيل. فدعا موسى ربه فرفع عنهم الطوفان، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، وعادوا أشتر مما كانوا عليه.

وأختلف العلماء في الطوفان ما هو؛ فقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : هو الماء أرسله الله تعالى عليهم.

وقال مقاتل : هو الماء طغى فوق حروثهم فأهلكها.

وقال الضحاك : هو الفرق.

وقال مجاهد وعطاء : هو الموت التريج.

وقال وهب : هو الطاعون بلهة أهل اليمن، أرسل الله الطوفان على أبكار آل فرعون فقبضهن في ليلة واحدة، فلم يبقَ منهن واحدة ولا دابة.

وقال أبو قلابة : الطوفان هو الجُذرى، والله تعالى أعلم.

قالوا : وأثبت الله تعالى لهم في تلك السنة من الكلا والزرع ما لم يثبت قبل ذلك، فأعشت بلادهم وأخصبت، فقالوا : هذا ما كنا نتمناه، وما كان هذا الماء إلا نعمة لنا وخسبا. فاقاموا شهرا في عافية؛ ثم بُعث عليهم الجراد فأكل زرعهم وثمارهم وأوراق أشجارهم والزهر، حتى إن كان لا كل الأبواب والنياب والأمتعة وسقوف البيوت والخشب والمسامير حتى سقطت دورهم، والجراد لا يدخل بيوت بني إسرائيل ولا يصيبهم من ذلك شيء؛ فَعَجَوا وَهَجَوا، وقالوا :

يَا مُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْلَ نُؤْمِنَ لَكَ وَلْتَرْسِلْ
مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ۚ فَاعْطُوهُ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ۚ فَدَعَا مُوسَىٰ رَبَّهُ ۖ فَكَشَفَ اللَّهُ
تَعَالَىٰ عَنْهُمْ الْجِرَادَ بَعْدَ مَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ سَبْعَةَ أَيَّامٍ مِنَ السَّيِّئِ إِلَى السَّيِّئِ .

ويقال : إن موسى برز إلى القضاء ، فأشار إلى المشرق بالعصا فذهب الجراد
من حيث جاء كأن لم يكن قط .

قالوا : فأقاموا شهرا في عافية ۚ ثم بعث الله عليهم القمل ، وذلك أن موسى
أمر أن يمشي إلى كتيب أغبر بقرية من قرى مصر تدعى : (عين شمس) فمشى
موسى إلى ذلك الكتيب — وكان عظيما — فضربه بعصاه ، فأثالث عليهم القمل
فتتبع ما بقى من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله ولحس الأرض كلها ، وكان يدخل
بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه ، وكان يأكل أحدهم الطعام فيمتلئ قُملا ، حتى
إن أحدهم لبني الأسطوانة بالخص فيزلقها حتى لا يرتقي فوقها شيء ، ثم يرفع فوقها
طعامه ، فإذا صعد إليه لياكله وجده ملآن قُملا ، فما أصيبوا ببلاء كان أشد عليهم
من القمل ۚ وأخذ القمل شعورهم وأشفاق عيونهم وحواجهم ، ولصق يجلودهم
كالجدري ، ومنهم النوم والقرار ، ولم يستطيعوا له حيلة .

وقد اختلفوا في القمل ما هو ؟ فروى عن أبي طلحة أنه الذباب لا أجنحة له .
وروى معمر عن قتادة قال : القمل أولاد الجراد .

وعن عبد الرحمن بن أسلم قال : هو البراغيث .

وقال عطاء : هو القمل ۚ دليله قراءة الحسن : « والقمل » بفتح القاف
وسكون الميم .

وقال أبو عبيدة : هو الحمتان ، وهو ضرب من القردان .

- وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهم - : القمل ، هو
السوس الذى يخرج من الخنطة والجبوب ، فكان الرجل يخرج عشرة أقفزة فلا يرد
منها إلا ثلاثة أقفزة ؛ فلما رأوا ذلك شكوا إلى موسى وصاحوا وقالوا : يا أيها الساحر
أى آيةا العالم إنا نتوب إلى الله ولا نمود ، فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء .
فدعا موسى ربه ، ورفع الله تعالى عنهم القمل بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من
السبت إلى السبت ، ثم نكثوا العهد ، وعادوا إلى خبث أعمالهم ، وقالوا : ما كنا
قط أحق أن نسقين أن موسى ساحر إلا اليوم ، فيجمل الرمل والرماد دواب ، فعل
ماذا تؤمن به وترسل معه بنى إسرائيل ؟ فقد أهلك زرعنا وحرثنا ، وأذهب
أموالنا ، فما عسى أن يفعل أكثر مما فعل ، وعزة فرعون لا تصدقه أبدا ولا تنبئه .
فدعا عليهم موسى بعد ما أقاموا شهرا في عافية - وقيل أربعين يوما - فاوحى
الله تعالى إليه وأمره أن يقوم على ضفة النيل فيغرز عصاه فيه ، ويشير بالعصا إلى
أدناه وأقصاه وأعلى وأسفل ؛ ففعل موسى ذلك ، فداعت إليه الضفادع بالحق
من كل جانب حتى أعلم بعضها بعضا . وأسمع أدناها أقصاها ؛ ثم خرجت من النيل
مثل البحر تدب سراعا نحو باب المدينة ، فدخلت عليهم في بيوتهم بثة ، وأمتلأت
منها أفنتهم وأبنتهم وأطعمتهم ؛ وكان أحدهم لا يكشف ثوبا ولا إناء ولا طعاما
ولا شربا إلا وجد فيه ضفادع ؛ وكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، ويهم
أن يتكلم فينب الضفدع في فيه ؛ وكان أحدهم ينام على فراشه وسريه فيستيقظ
وقد ركبته الضفادع ذراعا بعضها فوق بعض ، وصارت عليه حتى لا يستطيع أن
ينصرف إلى شقه الآخر ؛ وكان أحدهم يفتح فاه لأكله قسابق الضفادع إلى فيه ؛
وكانوا لا يعجزون إلا أشدخت فيه ، ولا يطبخون إلا أمتلأت القدر بالضفادع ؛
وكانت تب في نيرانهم تطفئها ، وفي طعامهم تفسده ؛ فلقوا منها أذى شديدا .

وروى عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال : كانت الضفادع برية ، فلما أرسلها الله على فرعون سمعت وأطاعت ، ففعلت تحذف أنفسها في القدر وهي تغور ، وفي التناير وهي مسجورة ، فأتاها الله بحسن طاعتها برّد الماء .

- ٥ قال : فضجّوا إلى فرعون من أمر الضفادع ، وضاق عليهم أمرهم حتى كادوا يهلكون ، وصارت المدينة وطرقها مملوءة جيعاً من كثرة ما يطأونها بأقدامهم ، فلما رأوا ذلك بكوا وشكّوا ذلك إلى موسى ، وقالوا : اكشف عنا هذا البلاء فإننا نتوب هذه المرة ولا نمود . فأخذ بذلك عهودهم ومواثيقهم ، ثم دعا الله تعالى فكشف عنهم الضفادع ، فما كان منها حياً لحق بالنيل ؛ وأرسل الله تعالى ريحا على الميت منها فتحت عن مدينتهم بعد ما قامت عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ١٠ فأقاموا شهرا في عافية ؛ وقيل : أربعين يوما . ثم قضوا اليهود وعادوا إلى كفرهم وتكذيبهم ؛ فدعا عليهم موسى ، فأرسل الله تعالى عليهم الدم ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى أن يذهب إلى شاطئ النيل ويضربه بعصاه ؛ ففعل ذلك ، فسال النيل عليهم دما ، وصارت مياههم كلّها دما عيطا ، فإشربون من الأنهار والآبار ١٥ إلّا وجدوا دما أحمر عيطا ؛ فشكّوا ذلك إلى فرعون وقالوا : إنا قد آتينا بهذا الدم ، وليس لنا شراب . فقال : إنه قد سحركم . فكان يجمع بين الرجلين على الإماء : القبطي والإسرائيلي فيسقيان من ماء واحد ، فيخرج ماء القبطي دما ، وماء الإسرائيلي عذبا ؛ وكانا يقومان إلى الجزيرة فيها الماء ، فتخرج للإسرائيلي ماء وللقبطي دما ، حتى إن المرأة من آل فرعون كانت تأتي المرأة من بني إسرائيل حين جهّدهم العطش فتقول : اسقيني من مائتك . فتعرف لها من جرّتها ، وتصبّ لها من قربتها ، فيعود في الإماء دما ، حتى إن كانت المرأة تقول لها : اجعليه في فيك

ثم نجّيه في في . فأتخذ في فيها ماء ، فإذا تجّته في فيها صار دما ، والنيل على ذلك يسقى
الزروع والشجر ؛ فإذا ذهبوا ليستقوا من بين الزروع عاد الماء دما عيطا .

قالوا : وإت فرعون أعتراه العطش في تلك الأيام ، حتى إنه اضطّر إلى مضغ
الأشجار الرطبة ، فكان إذا مضغها يصير ماءؤها في فيه ملحا أجاجا ومرّا زعاقا ؛
فكثروا في ذلك سبعة أيام لا يأكلون ولا يشربون إلّا الدم ؛ فقالوا لموسى : ادع
لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فتؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا موسى
ربه فكشف عنهم ذلك ، وأمر أن يضرب بعصاه النيل ضربة أخرى ؛ ففعل
فتحوّل صافيا كما كان ، فلم يؤمنوا ولم يقوا بما عاهدوا عليه ، وذلك قوله تعالى :
(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ) .

وقال نَوْفُ الْبِكَالِيّ — وهو ابن امرأة كعب الأخبار — : مكث موسى
في آل فرعون عشرين سنة بعد ما غلب على السحرة يريمهم الآيات : الجراد والقُمَّل
والضفادع والدم .

وقال الضحاك : لما يئس موسى من إيمان فرعون وقومه ، ورأى أنهم
لا يزدادون إلّا الطغيان والكفر والتمادي ، دعا عليهم موسى وأمن هارون . ربّنا
إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا
أَطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .
فاجاب الله دعاءه . كما قال تعالى : (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقْبَا) الآية .

قال : وكان لفرعون وأصحابه من زهرة الدنيا وزينتها من الذهب والفضة
واليواقيت وأنواع الجواهر والحلى ما لا يحصىه إلّا الله تعالى ؛ وكان أصل ذلك
المال مما جمعه يوسف — عليه السلام — في زمانه أيام القحط ، فبقي ذلك

في أيدي الفيل، فأوحى الله تعالى إلى موسى : أتى مورث بنى إسرائيل ما في أيدي
آل فرعون من العروش والخلى ، وجاعله لم جهازا وعتادا إلى الأرض المقدسة
فأجعل لذلك عيدا تمتكف عليه أنت وقومك تشكرونى وتذكرونى فيه وتعظمونى
ذلك اليوم ، وتميدونى فيه لما أرىكم من الظفر ونجاة الأولياء وهلاك الأعداء
وأستمروا لبيدكم من آل فرعون الخلى وأنواع الزينة ، فإنهم لا يمتنعون عليكم للبلاء
الحال بهم في ذلك الوقت ، ولما قذفت لكم في قلوبهم من الرعب . ففعل موسى
ذلك كما أمره الله تعالى ، فأمر فرعون بزينة أهله وولده وما كان في خزائنه من
أنواع الخلى ، فأعيرت بنى إسرائيل لما أراد الله تعالى بذلك أن يئىء صل موسى
وقومه أفضل أموال أعدائه بغير قتال ولا إيحاف خيل ولا رجل ؛ فلما دعا موسى
عليهم مسخ الله تعالى الأموال التى بقيت في أيديهم حجارة حتى النخل والقيق .

وقال محمد بن كعب : سألنى عمر بن عبد العزيز عن الآيات التى أراهن الله
تعالى فرعون وقومه ؛ قلت : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا
واليد البيضاء والطمس وقلق البحر .

قال عمر : كيف يكون الفقه إلا هكذا . ثم دعا بخريطة فيها أشياء مما كان أصيب
لعبد العزيزين مروان لما كان على مصر من بقايا آل فرعون ، فأخرج البيضة
مقسومة نصفين كأنها الحجر ، والجوزة مشقوقة نصفين كأنها الحجر ، والحصى والعسدة .
وروى ابن إسحاق عن رجل من أهل الشام كان بمصر قال : ورأيت نخلة
مصروعة كأنها الحجر .

قال : ورأيت إنسانا وما شككت أنه إنسان وإنه لحجر ؛ وكان المسخ في أرقائهم
دون أحرارهم ، إذ العبيد من جملة أموالهم ؛ فلم يبق لهم مال إلا مسخه الله تعالى
ما خلا الذى في أيدي بنى إسرائيل من الخلى والجواهر وأنواع الزينة .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : أول الايات العصا ، وآخرها
الطمس ؛ وبلغنا أن الدنانير والدرهم صارت حجارة مقوشة كهيتها صحاها وأنصافا
وأثلاثا ، وجُعِلَ سكرهم حجارة ، وبعض المسخ من الآدميين باقى مشاهد إلى وقتنا
هذا ، وقد شاهدتُ أنا منه شخصا شكل خادم وهو جالس على كرسى بقرب البيت
الأخضر ببلاد الجزيرة ، وذلك في شهر سنة سبع عشرة وسبعائة ، ولعله من ذلك
المسخ ؛ والله أعلم .

ذكر خبر قتل الماشطة

قال : وكانت لبنات فرعون ماشطة - وهى امرأة جَزَقِيل المؤمن - فينما
هى تَمْشُط إحدى بناته إذ سقط المَشْط من يدها ، فقالت : تَبَس من كفر بالله .
فقالت لها أخته فرعون : إنما تريدن من كفر أبى . فقالت : إنما عَنَيْتُ من كفر
بإله موسى . فقامت إلى أبيها وأخبرته ؛ فغضب وأحضرها وقال : ما الذى بلغنى
عنك ؟ قالت : صدقوا ، أنا مؤمنة بإله موسى ، فَأَقِصْ مَا أَنْتَ قَاضٍ . فشدّها
إلى أوتاد من حديد ، وأحضر أولادها الثلاثة ، وعرض عليها أن تؤمن به ؛
فأبت ، فذبّحهم على صدرها وهى تَحْمَدُ الله تعالى ؛ ثم طرحها فى تنور من نحاس
وأحرقها فيه وأحرق أولادها .

(٨٧)

ذكر خبر قتل آسية بنت مزاحم امرأة فرعون

قال : لما قتل فرعون الماشطة ، سمعت آسية الملائكة تمدّها بالجنة ، فقامت
من مجلسها وهى تقول : يا إله موسى الصبر وأرزقنى الشهادة وآبِنِ لى عِنْدَكَ
بِتَأْتِى الْجَنَّةَ وَيُخْرِجُنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَيُخْرِجُنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وخرجت على
فرعون وهى حاسرة عن وجهها ، وقالت له : يا معلمون ، الى كم تقتل أولياء الله

وتأكل رزق الله وتكفر نعمته ولا تشكره، وترى آياته ولا تعتبرها؟ فقال لوزرائه:
قد أفسد على موسى حتى آسية؛ واستشارهم في أمرها؛ فأشاروا عليه بقتلها، فأمر
بترع ما عليها؛ وشدها إلى أوتاد في الأرض، وضرب وتدين في صدرها فماتت
— رضى الله عنها — .

ذكر خبر انقطاع النيل وكيف أجراه الله عز وجل لفرعون

قال الكسائي: ثم بعث الله تعالى الظلمة على أهل مصر ثلاثة أيام، فلم يعرفوا
الليل من النهار، وأقطع عنهم النيل حتى أضربهم العطش؛ فشكوا ذلك إلى فرعون
فأمر بجمع الجنود ونهرج ليُجريه؛ فلما قرب من مكانه انفرد عن القوم ونزل عن
فرسه وقال: إلهي إنك إله السماء والأرض لا إله إلا أنت، وحملك الذي يحملني
أن أسألك ما ليس لي بحق، والخالق خَلَقَك، وقد علمت ما هم فيه من العطش
وأنت المتكفل بأرزاقهم؛ اللهم أجر لهم النيل. فافرج من كلامه حتى أنصب
النيل، وركب فرسه والنيل يجري معه إن سار سار وإن وقف وقف، حتى
دخل مصر، فسجد القوم له. وازدادوا كفرا؛ وعجب موسى وهارون لذلك.

ذكر خبر غرق فرعون وقومه

قال الكسائي: ولما رجع فرعون يمينوده وقد أجرى لهم النيل برعهم، دخل
عليه جبريل في صورة آدمي حسن الهيئة، فقال له: من أنت؟ قال: عبد من
عبد الملك جئتكم مستعديا على عبد من عبيد مكنته من نعمتي، وأحسنْتُ إليه
كثيرا، فأستكبر وبني وبجذني حتى وتسمى بأسمى، وأدعى في جميع ما أنعمتُ
عليه به أنه له، وأنه لا منعم عليه به. قال فرعون: بشئ ذلك من العيد. قال
جبريل: فما جزاؤه عندك؟ قال: يُترَق في هذا البحر. فقال له جبريل: أسألك.

أَنْ تَكْتُبَ لِي خَطُّكَ بِذَلِكَ . فَكُتِبَ لَهُ فِرْعَوْنَ خَطًّا ، وَأَخَذَهُ جِيرِيلُ وَجَاءَ بِهِ إِلَى مُوسَى ، وَأَشْرَفَهُ عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْجِعَ بِقَوْمِهِ عَنْ مِصْرَ ، فَتَأَدَّى مُوسَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَمْرَهُمْ بِالرَّحِيلِ ، فَارْتَحَلُوا وَهُمْ يَوْمَئِذٍ سِتْمِائَةُ أَلْفَ .

قال الثعلبي : سِتْمِائَةُ أَلْفَ وَعِشْرُونَ أَلْفًا لَا يُعَدُّ فِيهِمْ أَبْنُ سَبْعِينَ سَنَةً وَلَا أَبْنُ عِشْرِينَ سَنَةً ؛ وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الْمُقَاتِلَةُ سِوَى الْقَرِيَةِ . وَأَهْلُ التَّوْرَةِ يَقُولُونَ : إِنَّهُ لَا يُعَدُّ فِيهِمْ أَبْنُ خَمْسِينَ سَنَةً وَلَا ابْنُ عِشْرِينَ سَنَةً ، لَا خِلَافَ عِنْدَهُمْ فِي هَذَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَصُّ التَّوْرَةِ .

قال الكسائي : فَلَمَّا سَمِعَ فِرْعَوْنَ بِارْتِحَالِهِمْ أَمَرَ بِاجْتِمَاعِ جُنُودِهِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَفَآئِظٌ كَثِيرُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِدُونَ ﴾ . فَاجْتَمَعُوا وَهُمْ لَا يُحْصَوْنَ كَثَّةً .
١٠ قيل : إِنَّ هَامَانَ كَانَ عَلَى مَقْدَمَةِ فِرْعَوْنَ بِأَلْفِ أَلْفٍ وَسِتْمِائَةِ أَلْفِ .
وقال الثعلبي : أَلْفِ أَلْفٍ وَسَبْعِائَةِ أَلْفِ رَجُلٍ عَلَى أَلْفِ أَلْفٍ وَسَبْعِائَةِ أَلْفِ حِصَانٍ .

قال : وَقَالَ ابْنُ جَرِيحٍ : أَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي أَرْضِ مُوسَى وَقَوْمِهِ أَلْفَ أَلْفٍ وَخَمْسِائَةِ أَلْفِ مَلِكٍ مَسُورٍ ، مَعَ كُلِّ مَلِكٍ أَلْفُ رَجُلٍ ؛ ثُمَّ نَجَّحَ فِرْعَوْنَ خَلْقَهُمْ فِي الدُّغَمِ ، وَكَانَ فِي عِصْكَه مِائَةُ أَلْفِ حِصَانٍ أَدَمَ سِوَى سَائِرِ الشَّيَاطِ ، وَذَلِكَ حِينَ طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَأَشْرَقَتْ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ .

قال الكسائي : وَسَارُوا حَتَّى قَرَّبُوا مِنْ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، فَقَالُوا : يَا مُوسَى ، قَدْ لَحَقْنَا فِرْعَوْنَ بِجُنُودِهِ ، وَالْبَحْرُ أَمَامَنَا وَالسَّيْفُ وَرَاءَنَا . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَيِّ رَبِّي سَيَهْدِينِ .
٢٠ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى : ﴿ أَنْ أَصْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ فَضَرَبَهُ (فَأَتَّحَقَّ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) . وَصَارَ فِيهِ اثْنَا عَشَرَ طَرِيقًا لِلْأَسْبَاطِ الْإِسْخَاشِيِّ عَشَرَ

(٨٧)

فجعلوا يسرون وموسى أمامهم وهارون وراهم ، وجعل الله بينهم فتحا ليرى بعضهم بعضا ، وجاء فرعون ومن معه إلى البحر ورأى تلك الطرق فيه ، فقال لهامان : هذه تفرقت من هيتي . وقصد الاقتحام فلم يطاوعه فرسه — وكان حصانا — وتمر من العبور ، فأناه جبريل على ومكة في صورة آدمي ، فدنا من فرعون وقال : ما يمنعك من العبور ؟ وتقدم إلى جنبه ، فأشتم فرس فرعون رائحة الرمكة فتبعها ودخل فرعون وجنوده وجبريل أمامهم وميكائيل يسوق الناس ، حتى لم يبق من جنود فرعون أحد على الساحل ، بغاء جبريل بخطه ؛ فلما رآه فرعون علم أنه هالك وأنضمت الطرق ، وأغرق الناس ، وفرعون ينظر إليهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ . فقال له جبريل : الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ .

ثم غرق فرعون وجميع من معه وبنو إسرائيل ينظرون إليهم ؛ ثم قال بنو إسرائيل : إن فرعون لم يفرق . فأمر الله تعالى البحر فالتقاء على الساحل . قال الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نَجْعَلُ يَدَيْكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾ .

قال : فلما عبر موسى البحر ببني إسرائيل إلى الطور ، إذا هم في طريقهم يقوم يعبدون الأصنام ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ثم قال آخِرُ اللَّهِ أَمَّا إِلَهُكُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَذَكِّرْهُمْ بِنِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ، وأمرهم بالتوبة والاستغفار ؛ ثم ساروا وفي قلوبهم حب الأصنام حتى قربوا من الطور .

ذكر خبر ذهاب موسى — عليه السلام — لميقات ربه
وطلبه الرؤية وخبر الصاعقة والإفاقة

حكى أبو إسحاق التطلي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاعْذَنَّا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً
وَأَعْمَيْنَاهَا بِمِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ .

قال : كان ذلك في شهر ذى القعدة وعشر من ذى الحجة .

قال : وذلك أن موسى — عليه السلام — كان قد وعد بنى إسرائيل وهو بمصر
إذا خرجوا منها وهلك عدوهم أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما يدرون ، فلما
أهلك الله تعالى فرعون وقومه وأسقط ذنوب بني إسرائيل من أيديهم ، وأقمنهم من
عدوهم ، ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة يتبنون إليها ، قالوا : يا موسى آتتنا بالكتاب
الذى وعدتنا به . فسأل موسى ربه تعالى ذلك ؛ فأمره أن يصوم ثلاثين ليلة ثم
يتطهر^(١) ويطهر ثيابه ويأتي طور سيناء ليكلّمه ويعطيه الكتاب ، فصام ثلاثين يوما ؛
فلما صعد الجبل أنكر خلوف فمه ، فأستاك بمود خرنوب .

وقال أبو العالية : أخذ من لحاء الشجر قصبه ؛ فقالت له الملائكة : كأنّكم
من فلك رائحة المسك فأفصدته بالسواك . فأوحى الله تعالى إليه أن صم عشرة أيام
أخر ، وقال له : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح
المسك ؟

قال : وكانت فتنة بنى إسرائيل في العشرين لىالى التى زادها الله تعالى ؛ فلما مضت
أربعون ليلة تطهر موسى ويطهر ثيابه لميقات ربه ؛ فلما أتى طور سيناء كلّمه ربه
وناجاه ، وقربه وأدناه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ .

قال وهب : كان بين الله تعالى وبين موسى سبعون حجاباً ، فرضها كلها
إلا حجاباً واحداً ، فسمع موسى كلام الله تعالى واشتاق إلى رؤيته وطمع فيها ، فقال
ما أخبر الله — عز وجل — به عنه في كتابه ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى
لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ . فقال الله تعالى له : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾
وليس يطيق البشر النظر إلى في الدنيا ، من نظر إلى مات . قال : إلمى سمعت
كلامك فاشتقت إلى النظر إليك ، ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إلي من أن
أعيش ولا أراك . فقال له تعالى : ﴿ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ وهو أعظم جبل يقال
له : (الزبير) .

قال : وذلك أن الجبال لما علمت أن الله تعالى يريد أن يتجلى لجبل منها
تعاظمت وتسامحت رجاء أن يتجلى الله تعالى لها ، وجعل الزبير يتواضع من بينها
فلما رأى الله تعالى تواضعه رفعه من بينها ، وخصه بالتجلي ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ
انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ . فتجلى الله تعالى للجبل .

قال : واختلف العلماء في معنى التجلي ،

قال ابن عباس : ظهر نوره للجبل .

وقال الضحاك : أظهر الله تعالى من نور المحجب مثل منخر الثور .

وقال عبد الله بن سلام وكعب : ما تجلى من عظمة الله تعالى للجبل إلا مثل
سم الخياط حتى صار دكا .

وقال السدي : ما تجلى منه إلا قدر الخنصر .

وقال الحسن : أوحى الله تعالى إلى الجبل فقال : هل تطيق رؤيتي ؟ فزار

الجبل وساخ في الأرض وموسى ينظر إليه حتى ذهب أجمع .

قال أبو إسحاق : قال أبو بكر محمد بن عمر الوزاق : حُكي لي عن سهل بن سعد الساعديّ أنّ الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورا قدر درهم ، فجعل الجبل دكا .

قال أبو بكر : فعُذِبَ إذ ذاك كلُّ ماء ، وأفاق كلُّ مجنون ، وبرأ كلُّ مريض وزال الشوك عن الأشجار ، وأخضرت الأرض وأهترت ، ونملت نيران المجوس ونحرت الأصنام لوجوها .

وقال السديّ : ما تجلّى للجبل إلا مقبلار جناح بموضة ، قصار الجبل دكا .
قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : ترابا .

وقال سفيان : ساخ حتى وقع في البحر .

وقال عطية الموقّ : صار رملا هائلا .

وقال الكلبيّ : (جَعَلَهُ دَكًا) ، أى كُسِّرَ جبالا صفارا .

وعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًا) قال : صار بعظمة الله سنة أجبل ، فوقعت

ثلاثة بالمدينة : أحد ، وورقان ، ورَضوى . ووقعت ثلاثة بمكة : ثور ، وثبير

وحِراء . (وَنَحَرُ مُوسَى صَعِقًا) . قال ابن عباس — رضى الله عنهما — :

مفشيّا عليه .

وقال قتادة : ميتا .

وقال الكلبيّ : نحر موسى صعقا : يوم الخميس يوم عرفة ، وأعطى التوراة

يوم الجمعة يوم النحر .

(١) في الأصل : « وقانا » ؛ وهو تحريف صوابه ما أثبتنا .

(٢) في الأصل : « وروضا » ؛ وهو تحريف .

قال الواقدي : لما خر موسى صمعا قالت الملائكة : ما لأبن عمران وسؤال الرؤية .

- قال وهب : لما سأل موسى الرؤية أرسل الله تعالى الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق فأحاطت بالجبل الذي عليه موسى ، وأمر الله تعالى ملائكة السموات أن يمرضوا على موسى أربعة فرائخ من كل ناحية ، فزرت ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر ، فتابع أنفأهم القديس والتسيح بصوت عظيم كصوت الرعد الشديد ؛ ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية : أن أهبطوا على موسى . فهبطوا عليه مثل أسد لم نجب بالتسيح والتقديس ؛ ففرع موسى بما رأى وسمع وأقشعز جلده ، ثم قال : نعمتُ على مسألتي ، فهل يجيني من مكافئ الذي أنا فيه شيء ؟ فقال له حبر الملائكة ورأسهم : يا موسى أصبر لما رأيت ، فليل من كثير رأيت . ثم هبطت ملائكة السماء الثالثة كأثال النور ، لم قصف ورجف بالتسيح والتهايل والتقديس بحلب الجيش العظيم وكلهب النار ؛ ثم هبطت عليه ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شيء من الذين مروا به قبلهم ، ألوانهم كلهب النار ، وسائر خلقهم كالثلج الأبيض ، أصواتهم عالية بالتسيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به قبلهم ؛ ثم هبطت عليه ملائكة السماء الخامسة في سبعة ألوان ، فلم يستطع موسى أن يُنمهم الطُرف ، لم يرمثلهم ولا سمع مثل أصواتهم ، وأمثلاً جوف موسى فرعاً ، وأشدت حزنه وكثر بكؤه ؛ ثم قال له حبر الملائكة ورأسهم : يآبن عمران ، مكانك حتى ترى ما لا تصبر عليه ؛ ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء السادسة أن أهبطوا على عبدي الذي أراد أن يراني ؛ فمرضوا عليه وفي يد كل منهم حربة مثل النخلة الطويلة ، نأرها أشد ضوءاً من الشمس ، ولباسهم كلهب النيران ، إذا مبحوا وقدموا جاوبهم من كل قبلهم

من ملائكة السموات ، كلهم يقولون بشدة أصواتهم : سُبَّوح قُدُّوس رَبُّ الْعِزَّةِ
أَبَدًا لَا يَمُوت . وفي رأس كل ملك منهم أربعة أوجه ؛ فلَمَّا رَأَاهُمْ رَفَعَ صَوْتَهُ يَسْبِّحُ
مَعَهُمْ وَيَبْكِي وَيَقُولُ : رَبِّ أَذْكُرُنِي وَلَا تَنْسَ عَبْدَكَ ، لَا أَدْرِي هَلْ أَتَخَلَّصُ بِمَا
أَنَا فِيهِ أَمْ لَا ، إِنْ خَرَجْتُ أَحْتَرَقْتُ وَإِنْ مَكَثْتُ مِتُّ . فقال له كبير الملائكة
ورئيسهم : قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتد خوفك ويغلق قلبك . فاصبر للذي
سألت .

ثم أمر الله تعالى أن يُجَلَّ عَرْشُهُ فِي مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فقال : أَرُوهُ إِيَّاهُ .
فلَمَّا بَدَأَ نُورُ الْعَرْشِ أَفْجَرَاجَ الْجَبَلِ مِنْ عِظَمَةِ رَبِّ الْعِزَّةِ ، وَرَدَّدَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَوَاتِ
أَصْوَاتَهُمْ جَمِيعًا ؛ فَأَرْجَحَ الْجَبَلُ ، وَأَذْكَتْ كُلُّ شَجَرَةٍ كَانَتْ فِيهِ ، وَتَرَمَّوْهُ صَوِّعًا
لَيْسَ مَعَهُ رُوحُهُ ؛ فَغَلَبَ اللَّهُ تَعَالَى الْجَبْرَ الَّذِي كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ وَجَعَلَهُ كَهَيْئَةِ الْقَبَةِ
لثَلَا يَحْتَرِقَ مُوسَى ؛ وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَ الْحَيَاةِ بِرَحْمَتِهِ ؛ فَهَامَ مُوسَى يَسْبِّحُ اللَّهَ تَعَالَى
وَيَقُولُ : آمَنْتُ أَنَّكَ رَبِّي وَصَدَّقْتُ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ أَحَدٌ ، فَتَجَنَّبِي ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَى
مَلَائِكَتِكَ أَنْخَلَ قَلْبُهُ ، فَمَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ مَلَائِكَتَكَ ! أَنْتَ رَبُّ الْأَرْبَابِ وَإِلَهُ
الْأَلْهَةِ وَمَلِكُ الْمُلُوكِ ، لَا يَدْبُكَ شَيْءٌ ، وَلَا يَقُومُ لَكَ شَيْءٌ ، تَبَّتَ إِلَيْكَ ، الْحَمْدُ لَكَ
لَا شَرِيكَ لَكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

ذكر خبر الألواح ونزول التوراة والعشر كلمات

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَتَرَمَّوْهُ صَوِّعًا فَلَمَّا أَفَاقَ
قَالَ سُبْحَانَكَ تُبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى
النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلامِي نَخَذُ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَاهُ فِي الْأَلْوَابِ
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ نَخَذْنَاهُ بِقُوَّةٍ) .

قال التلمبى : ثم بعث الله جبريل — عليه السلام — إلى الجنة عدن فقطع منها شجرة ، فأتخذ منها تسعة الألواح ، طول كل لوح عشرين ذراعاً ، وبذراع موسى ، وكذلك عرضه ، وكانت الشجرة من زمرد أخضر ؛ ثم أمر الله تعالى جبريل أن يأتيه بسبعة أغصان من سدرة المنتهى ؛ فجاء بها ، فصارت جميعها نورا ، وصار النور قلماً طاف فيما بين السماء والأرض فكتب التوراة ، وموسى يسمع صرير القلم ؛ فكتب الله تعالى له ﴿ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وذلك يوم الجمعة ، فأنشرفت الأرض بالنور ؛ ثم أمر الله تعالى موسى أن يأخذها بقوة ويقربها قومه ؛ فوضعت الألواح على السماء فلم يطق حملها لنقل اليهود والمواثيق ؛ فقالت : يا رب كيف أطيق حمل كتابك الكريم الثقيل المبارك ؟ وهل خلقت خلقاً يطيق حمل ذلك ؟ فبعث الله تعالى جبريل وأمره أن يحمل الألواح فيلها موسى ، فلم يطق حملها . فقال : يا رب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها من النور والبيان واليهود ؟ وهل خلقت خلقاً يطيق حملها ؟ فأمدّه الله تعالى بملائكة يحملونها بعد كل حرف من التوراة ؛ فحملوها حتى بلغوها موسى ؛ فعرضوا له الألواح على الجبل ، فأنصعد الجبل وخشع ، وقال : يا رب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها ؟ فلما وضعها الملائكة على الجبل بين يدي موسى — وذلك عند صلاة العصر — قبض موسى عليها فلم يطق حملها ، فلم يزل يدعو حتى هبّ الله تعالى له حملها ؛ فحملها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

قال : وأما المشركلات التي كتبها الله تعالى لنبيه موسى في الألواح — وهي معظم التوراة ، وعليها مدار كل شريعة — فهي : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، هذا

(١) إلى هنا انتهى ما لدينا من النسخة المتداولة بحرف (ب) .

- كَتَابٍ مِنْ أَفْهِمِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ الْعَزِيزِ الْقَهَّارِ لِعَبِيدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ، سَبَّحْنِي
وَقَدَّسْنِي ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي وَلَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ، وَأَشْكُرْ لِي وَلَوْلَا دِيكَ إِلَى
الْمَصِيرِ ، أَحْيَيْتَ حَيَاةَ طَيِّبَةٍ ؛ وَلَا تَقْتُلُ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَتَضِيقُ طَلِيكَ
السَّمَاءُ بِأَقْطَارِهَا وَالْأَرْضُ بِرُجْحِهَا ؛ وَلَا تَخْلِفُ بِأَسْمِي كَاذِبًا فَإِنِّي لَا أَطْهَرُ وَلَا أَزْكِي
مَنْ لَمْ يَعْظَمْ أَسْمِي ؛ وَلَا تَشْهَدْ بِمَا لَا يَبِى سَمْعُكَ وَلَا تَنْظُرَ عَيْنُكَ وَلَمْ يَقِفْ قَلْبُكَ عَلَيْهِ .
فَإِنِّي أَقْفُ أَهْلَ الشَّهَادَاتِ عَلَى شَهَادَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَسْأَلُهُمْ عَنْهَا ؛ وَلَا تَحْسُدِ
النَّاسَ عَلَى مَا آتَيْتَهُمْ مِنْ فَضْلِي وَرِزْقِي ، فَإِنَّ الْحَاسِدَ عَذَابُ لَعْنَتِي ، سَاخِطُ لِقِسْمَتِي ؛
وَلَا تُزِنْ وَلَا تَسْرِقْ فَاحْبَبْ عَنْكَ وَجْهِي ، وَأَغْلِقْ دُونَ دَعْوَتِكَ أَبْوَابَ السَّمَوَاتِ ؛
وَلَا تَذِجْ لِفَيْرِي ، فَإِنَّهُ لَا يَصْعَدُ إِلَى مَنْ قُرْبَانَ الْأَرْضِ إِلَّا مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ أَسْمِي ؛
وَلَا تَعْدِرْ بِحِيلَةٍ جَارِكَ فَإِنَّهُ أَكْبَرُ مَقْنَا عِنْدِي ؛ وَأَحَبُّ لِلنَّاسِ مَا تَحَبُّ لِنَفْسِكَ .
فهذه العشر كلمات ؛ وقد أنزل الله — عز وجل — على نبينا محمد — صلى الله
عليه وسلم — مثلها في ثمانى عشرة آية ، وهى قوله تعالى فى سورة بنى إسرائيل :
(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَنْفُخَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ
أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَأَخْفِضْ
لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا
فِي قُلُوبِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ نَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أَوْصَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا
فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِيسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ
فَتَقْعَدَ مُلُودًا مَحْشُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ
خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ

خَطَا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ
فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا
بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ
السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ
مَكْرُوهًا * ذَلِكَ يَمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَتُخْلَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿١﴾ ثم جمعها في آيتين من سورة الأنعام ، وهي قوله
تعالى : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْثِفُوا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٠﴾

وقد روى أبو إسحاق النخعي - رحمه الله - عن ابن عباس - رضي الله
عنهما - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أعطى الله موسى الألواح
نظر فيها وقال : يا رب لقد أكرمتني بكرامة لم تكرم بها أحدا قبلي . (قَالَ يَا مُوسَى
إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي خُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴿١﴾

وأخرج الحفاظ : تموت على حبِّ محمد عليه السلام . قال موسى : ياربِّ وما محمد؟ قال : أحمد الذي أثبتَّ اسمه على عرشى من قبل أن أخلق السموات والأرض بالنفى عام ، وإنه لنبىِّ وحبيبى وخيرتى من خلقى ، هو أحبُّ إلىَّ من جميع خلقى ومن جميع ملائكتى . قال : ياربِّ إن كان محمد أحبَّ إليك من جميع خلقك فهل خلقت أمة أكرم عليك من أمتى . ؟ قال الله تعالى : إنَّ فضل أمة محمد — عليه السلام — على سائر الأمم كفضله على سائر الخلق . قال : ياربِّ ليتنى رأيتهم . قال : إنك لن تراهم . ولو أردت أن تسمع كلامهم اسمعت . قال : ياربِّ فأنى أريد أن أسمع كلامهم . قال : يا أمة محمد . فأجبنا كلنا من أصلاب آياتنا وأرحام أمهاتنا : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَيْكَ لا شريك لك . قال الله تعالى : يا أمة محمد . إنَّ رحمتى سبقت غضبى ، وعفوى عقابى . قد أعطيتكم من قبل أن تسألونى . وقد أجبتكم من قبل أن تدعونى ، وقد غفرت لكم من قبل أن تصوبونى . من جاء يوم القيامة يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله دخل الجنة ولو كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر . وهذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُ بِمُحَاجِبِ النَّبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

وروى الثعلبى أيضا بسند رفعه إلى (كعب الأحبار) أنه رأى حبرا من أحبار اليهوديكي، فقال له : ما يبكيك . ؟ فقال له : ذكرتُ بعض الأمر . فقال كعب : أنشدك الله إن أخبرتك بما أبالك أن تصدقنى ؟ قال : نعم . قال : أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنزل أن موسى نظر فى التوراة فقال : إني أجد أمة هى خير أمة أخرجت للناس يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ، يؤمنون بالكتاب الأول

١٠ (١) فى الأصول « وأخذ » : وهو تصحيف لا يستقيم معناه مع بقية الكلام . ولعل موايه

وبالكتاب الآخر، ويقاطون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال . فقال موسى : يا رب أجعلهم أمتي . قال : هي أمة أحمد يا موسى . فقال له الخبر : نعم . قال كعب : أنشدك بالله هل تجد في كتاب الله المتزل أن موسى نظر في التوراة فقال : إني أجد أمة هم الحاملون ، الرعاة للشمس المحكون ، إذا أرادوا أمرا قالوا : " ففعله إن شاء الله تعالى " فاجعلهم أمتي . قال : هي أمة أحمد يا موسى . قال له الخبر : نعم . قال : أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المتزل أن موسى نظر في التوراة فقال : رب إني أجد أمة يا كلون كفاراتهم وصدقاتهم .

قال : « وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار ، غير أن موسى كان يجمع صدقات بني إسرائيل فلا يجد عبدا مملوكا ولا أمة إلا اشتراه ثم أعطاه من تلك الصدقة وما فضل حفر له حفرة عميقة وألقاه فيها ، ثم دفنه كيلا يرجعوا فيه » وهم المسبحون والمسيح لهم ، وهم الشافسون والمشقق لهم . قال موسى : يا رب أجعلهم أمتي . قال : هم أمة أحمد يا موسى . قال الخبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله أنجد في التوراة أن موسى نظر في التوراة فقال : إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله تعالى ، وإذا هبط واديا حمد الله تعالى ؛ الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد حيثما كانوا ، يتطهرون من الجنابة ، طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حين لا يجدون الماء ؛ غر محجلون من آثار الوضوء ، فأجعلهم أمتي . قال : هي أمة أحمد يا موسى . قال الخبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله

هل تجد في كتاب الله المتزل أن موسى نظر في التوراة فقال : يا رب إني أجد أمة إذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها تكتب له ، فإن عملها ضوعت عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بسية ولم يعملها لم تكتب عليه ، وإن عملها تكتب عليه

(١) يريد بالشمس بضم الشين : الأعزاء . الذين لا يفقدون لقلة ويشمون ، أي يتنزهون بإبرون .

سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا . فَأَجْلَعْلَهُمْ أُمَّتِي . قَالَ : هِيَ أُمَّةُ أَحْمَدَ يَا مُوسَى . قَالَ الْحَبَرُ : نَعَمْ .
 قَالَ كُتُبٌ : أَنْشَدَكَ اللَّهُ أَتَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمَزْلُ أَنَّ مُوسَى نَظَرَ فِي التَّوْرَةِ فَقَالَ :
 رَبِّ إِنِّي أَجِدُ أُمَّةَ مَرْحُومَةِ ضَعْفَاءَ ^(١) «يُرْتَوْنَ الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا» (فَقَتْنَهُمْ ظَالِمٌ
 لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) فَلَا أَجِدُ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا مَرْحُومًا
 فَأَجْلَعْلَهُمْ أُمَّتِي . قَالَ : هِيَ أُمَّةُ أَحْمَدَ يَا مُوسَى . قَالَ الْحَبَرُ : نَعَمْ . قَالَ كُتُبٌ :
 أَنْشَدَكَ اللَّهُ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمَزْلُ أَنَّ مُوسَى نَظَرَ فِي التَّوْرَةِ فَقَالَ : يَا رَبِّ إِنِّي
 أَجِدُ أُمَّةَ مَرْحُومَةٍ ، مَصَاحِفُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ، يَلْبَسُونَ الْوَانِ ثِيَابَ أَهْلِ الْجَنَّةِ
 يُصَفُّونَ فِي صَلَاتِهِمْ صُفُوفًا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ ، أَصْوَاتُهُمْ فِي مَسَاجِدِهِمْ كَصَوْتِ
 النُّحْلِ ، لَا يَدْخُلُ النَّارُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا مِنَ الْحَسَابِ مِثْلَ مَا يُرْمَى الْحَجَرُ مِنَ وَرَاءِ
 الشَّجَرِ . فَأَجْلَعْلَهُمْ أُمَّتِي . قَالَ : هِيَ أُمَّةُ أَحْمَدَ يَا مُوسَى . قَالَ الْحَبَرُ : نَعَمْ . قَالَ :
 فَمَجَّبَ مُوسَى مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ عَهْدًا وَاقْتَسَمَهُ ، وَقَالَ : يَا ابْنَتِي مِنْ أَصْحَابِ
 عَهْدٍ . فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ثَلَاثَ آيَاتٍ يَرْضِيهِ بِهِنَّ : يَا مُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى
 النَّاسِ رِسَالَتِي وَبِكَلاَمِي (إِلَى قَوْلِهِ : (دَارَ الْقَاسِقِينَ) (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ
 يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) .

قَالَ : فَرَضَى مُوسَى كُلَّ الرِّضَا .

وَلِنَصِلَ هَذَا الْفَصْلَ بِمَا وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (سَارِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ)
 وَقَوْلِهِ : (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) .

قَالَ التَّلْمِيذِيُّ : قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي : هَذَا كَقَوْلِ الْقَائِلِ لِمَنْ يَخَاطَبُهُ : «سَارِيكَ
 غَدًا إِلَى مَا تَصِيرُ إِلَيْهِ حَالٌ مِنْ يَخَالِفِ أُخْرَى» عَلَى وَجْهِ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ .

(١) كَذَا وَرَدَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ الَّتِي بَيْنَ هَاتَيْنِ الْعَلَامَتَيْنِ فِي الْأُمُورِ . وَبِلَا حِظٍّ أَنْ قَوْلَهُ تَعَالَى «الَّذِينَ»
 غَيْرُ وَاضِحٍ مَوْضِعُهَا مِنَ الْإِعْرَابِ فِيهَا بِخِلَافِ مَوْضِعِهَا مِنَ الْآيَةِ الْمُتَنَبِّئَةِ بِهَا وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : «ثُمَّ أَوْرَثْنَا
 الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا» .

وقال مجاهد : سَارِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ - يعنى مصيرهم فى الآخرة .

وقال الحسن : جهنم .

وقال قتادة وغيره : سادخلكم الشام فأريكم منازل الكافرين الذين هم سكناها من الجبابة والمهاقة .

وقال عطية الموقى : معناه ساريتكم دار فرعون وقومه ، وهى مصر .

قال أبو العالية : رفعت مصر لموسى حتى نظر إليها .

وقال السدى : دار الفاسقين : مصارع الفاسقين . ١٠ ما يمزون عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكوا .

وقال ابن كيسان : دار الفاسقين - يعنى إلى ما يصير قرارهم فى الأرض .

وقيل : النار المهلكة - وجمعه أدوار ؛ وذلك أن الله تعالى لما أغرق فرعون ١٠

وقومه أمر البحر أن يقذف أجسادهم إلى الساحل ؛ ففعل - فنظر إليهم بنو إسرائيل ، فأراهم هلاك الفاسقين .

وقال يمان : يعنى مسكن فرعون .

وأما ما ورد فى تفسير قوله تعالى : (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ ١٠ يَسْتَدِلُّونَ) .

قوله تعالى : (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى) - يعنى بنى إسرائيل (أُمَّةٌ) جماعة (يَهْدُونَ بِالْحَقِّ) أى يرشدون إلى الحق .

وقيل : معناه يهتدون ويستقيمون عليه ويعملون به (وَبِهِ يَسْتَدِلُّونَ) أى ينصفون من أنفسهم لا يحورون .

قال السدي : هم قوم بينكم وبينهم نهر من شُهد .

وقال ابن جرير : بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا — وكانوا
أخني عشر سبطا — تبرأ سبط منهم ؛ واعتذروا وسألوا الله تعالى أن يفرق بينهم
وبينهم . ففتح الله تعالى لهم ممقا في الأرض ، فصاروا فيه سنة ونصفا حتى خرجوا
من وراء الصين ؛ فهم هناك حقاء مسامون مستقبلون قبلتنا .

قال الكلبي : وبيع والضحاك وعطاء : هم قوم من المغرب خلف الصين على
نهر يحوى الرمل يسمى نهر أوران ، وليس لأحدهم مال دون صاحبه ؛ يُطَرون^(١)
بالليل ، ويصَحون بالنهار ويزرعون ، لا يصل إليهم مئ أحد ولا منهم إلينا
وهم على الحق .

- ١٠ قال : وذكر عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أن جبريل ذهب به ليلة
أسرى به إليهم ؛ فكلهم ؛ فقال لم جبريل : هل تعرفون من تكلمون ؟ قالوا : لا .
قال : هذا عهد النبي الأُمي . فأمثوا به وقالوا : يا رسول الله ، إن موسى أوصانا
وقال : من أدرك منكم أحمد فليقرأ مئ عليه السلام . فرد رسول الله — صلى الله
عليه وسلم — على موسى وعليهم السلام ؛ ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة
ولم تكن نزلت فريضة موى الصلاة والزكاة ، فأمرهم بالصلاة والزكاة ، وأمرهم
أن يقيموا مكانهم ، وكانوا يسيئون ، فأمرهم أن يُجِّعوا ويتركوا البيت .

حكاه أبو إسحاق التلمي في تفسيره .

رجع إلى تمة أخبار موسى — عليه السلام — .

(١) كذا في (ج) . والفي في (١) «بحرى الرمل» .

(٢) كذا في (١) . والفي في (ج) «أرداف» مضبوطة بالقلم بفتح الحزة وسكون الراء .

ذكر خبر السامري وأخذ العجل وافتنان بنى إسرائيل به
قال الكسائي والعلمي وغيرهما من أهل السير ما يختصره ومعناه : إن موسى
— عليه السلام — لما توجه إلى البقعة المباركة التي كلمه الله تعالى فيها لميقات
ربه، استخلف أخاه هارون على بنى إسرائيل، وكان السامري فيهم .

وأخلف فيه، فقال قتادة والسدي : كان السامري من عظماء بنى إسرائيل من
قبيلة يافا لما : (سامرة) ولكنه عدو لله منافق .

وقال سعيد : كان السامري من (كرمان) .

وقال غيرهم : كان رجلا صالحا من أهل باجرما . واسمه ميخا .

وقال ابن عباس — رضي الله عنهما — : اسمه موسى بن ظقر، وكان رجلا منافقا
وقد أظهر الإسلام ؛ وكان من قورم يبدون البقر، فدخل قلبه حب البقر، فلما
ذهب موسى — عليه السلام — لميقات ربه — وكان قد واعد قومه ثلاثين ليلة فأتمها
الله بعشر، كما أخبر الله عز وجل — فعذب بنو إسرائيل ثلاثين، فلما لم يرجع إليهم
موسى أقفنتوا وقالوا : إن موسى أخلفنا الوعد ؛ فأغتنمها السامري ففعل ما فعل .

وقال قوم : إنهم عدوا الليلة يوما واليوم يوما ، وكان موسى قد واعدهم
أربعين ، فلما مضت عشرين يوما أقفنتوا . فأنام السامري وقال : إن موسى قد
أحبس عنكم، فيبني لكم أن تخذوا الماء، فإن موسى ليس يرجع إليكم ، وقد تم
الميقات . وإنما طمع فيهم السامري لأنهم في اليوم الذي أنجاهم الله من فرعون
وطلسوا من البحر، كان من أمرهم ما أخبر الله تعالى عنهم في قوله : (وَجَاوَزْنَا
بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا

إِلَهُمَا كَمَا لَمْ إِلَهَةٌ قَالَتْ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ ﴿١﴾ فطعم السامريُّ فيهم وأغتمها ، فلما تأخر موسى عن الميقات - وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلْيَ آل فرعون كما قُتِمْنَا ؛ فلما فصل موسى قال هارون لبني إسرائيل : إنا حلْيَ القبط الذي استعتموه غنيمة ، وإنه لا يحلُّ لكم ؛ فأجمعوه فأحفروا له حفيرة وأدفنوه حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه . ففعلوا ذلك ، وجامع السامريُّ ومعه القبضة التي قبضها من أثر حافر فرس جبريل - عليه السلام - .

قالوا : وكانت لجبريل - عليه السلام - فرس أنثى بقاءً يقال لها : « فرس الحياة » لا تصيب شيئاً إلا حيي ؛ فلما رأى السامريُّ جبريلَ على تلك الفرس عرفه وقال : إن لهذا الفرس لثانا . وأخذ قبضة من تراب حافرها حين عبر جبريلُ البحر .

قالوا : وإنما عرف السامريُّ خبر الفرس دون غيره من بني إسرائيل ، لأن فرعون لما أمر بذيخ أولاد بني إسرائيل جمعت المرأة إذا ولدت الغلام أنطلقت به سرّاً في جوف الليل إلى صحراء أو واد أو غار في جبل فأخفته ؛ فقبض الله تعالى له ملكاً من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى لا يختلط بالناس . وكان الذي ولي كنفالة السامريُّ جبريل عليه السلام ، بفعل يمض من إحدى إبهاميه سمناً ، ومن الأخرى عسلاً . فحين تمَّ عرفه ، ومن ثمَّ الصبي إذا جامع إبهامه فيروى من المص .

نرجع إلى خبر بني إسرائيل مع السامريِّ .

قال : فلما أسرم هارون بجمع الحلْيِ وجمعه ، جاء السامريُّ بالقبضة فقال لهارون : يا نبيَّ الله ، أأقذنها فيه ؟ فظنَّ هارون أنها من الحلْيِ ، وأنه يريد بها ما يريد أصحابه ، فقال له : أقذف . فقذفها في الحفرة على الحلْيِ ، فصار عجلاً جسداً له خوار .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : أوقد هارون نارا وأمرهم أن
يقذفوا الحلى فيها؛ فحذف السامري تلك القبضة فيها وقال : « كن عجلا جسدا
له خوار » . فكان كذلك للبلاء والفتنة .

ويقال : إن الذى قال لى إسرائيل : « إن النعمة لا تحمل لكم » هو
السامري ، فصلى قومه وجمعوها ، فدفعوها إليه فصاغ منها عجلا فى ثلاثة أيام
ثم قذف فيه القبضة ، فجنا وخار خورة ثم لم يعد .

وقال السدى : كان ينجور ويمشى ، فلما أخرج السامرى العجل وكان من
ذهب مرصع بالجمارة كأحسن ما يكون ، قال هذا الحكم وإله موسى . فنبه
السامري على أوغاد بنى إسرائيل وجها لهم حتى أضلهم وقال لهم : إن موسى قد
أخطأ ربّه فاناكم ربّه أراد أن يريكم أنه قادر على أن يدعوكم إلى نفسه بنفسه ، وأنه
لم يبعث موسى لحاجة منه إليه ، وأنه قد أظهر لكم العجل ليحكمكم من وسطه كما
كلم موسى من الشجرة .

قالوا : فلما رأوا العجل وسمعوا قول السامري ، افتتنوا غير أنى عشر ألفا
وكان مع هارون ستمائة ألف ، فكفوا عليه يعبدونه من دون الله تعالى ، وأحبوه
حبا ما أحبوا مثله شيئا قط ؛ فقال لهم هارون : يا بنى إسرائيل إنما قُتِلَ بِهِ
وَأَنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى
يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى .

فأقام هارون بمن معه من المسلمين ، وأقام من يعبد العجل على عبادته ؛ وخشى
هارون إن سار بمن معه من المسلمين إلى المفتتين الضالين أن يقول له موسى :
فرقت بين نبي إسرائيل .

قال راشد بن سعد : لما واعد الله تعالى موسى أربعين يوما قال الله تعالى : يا موسى ، إن قومك قد آفقتوا من بعدك . قال : يا رب كيف يفتنون وقد نجيتهم من فرعون ومن البحر ، وأنعمت عليهم ؟ قال : إنهم آخذوا العجل إلها من دوني وهو عجل جسد له خوار . قال : يا رب من نخع فيه الروح ؟ قال : أنا . قال : أنت — وعزتك — فتنتهم ، إن هي إلا فتنتك ففضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاعف لنا وأرحمنا وأنت خير القافرين .

قال : فلما رجع موسى من الميقات الى قومه وقرب منهم ، سمع اللغظ حول العجل وكانوا يرقصون حوله ، ولم يخبر موسى أصحابه السبعين بما أخبره به ربه تعالى من حديث العجل ، فقالوا : هذا قتال في المحلة . قال موسى لهم : لا ولكنها أصوات الفتنة ، افتن القوم بعدنا بعبادة غير الله تعالى .

ذكر خبر رجوع موسى إلى قومه وما كان من أمرهم
قال الله عز وجل : (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَفَعِلُمْ أَمْرًا رَبِّكُمْ) وذلك أنه لما رآهم حول العجل وما يصنعون فيه ألقي الألواح من يده فتكسرت ، فصعد عاقمة الكلام الذي فيها ، ولم يبق إلا سلسها ، ثم أعيدت له في لوحين .

رُوي عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : ليس المؤمن كالخبر ، قال الله تعالى لموسى : إن القوم قد آفقتوا فلم يلق الألواح ، فلما عين ألقي الألواح فكسرها .

قالوا : فلما رأى موسى ما صنع قومه بعده من عبادة العجل ، أخذ شعر رأس أخيه هارون بيمينه ، ولحيته بشماله وقال له : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا

أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ، هَلَّا قَاتَلْتَهُمْ إِذْ عَلِمْتَ أَنِّي لَو كُنْتُ فِيهَا مِنْهُمْ لَقَاتَلْتُهُمْ
على كفرهم ؟ فقال هارون : يَا بَنَ أُمِّ قَلْبَس ! قَالَ الْمَفْسُورُونَ : كَانَ هَارُونَ أَخَا مُوسَى
لَأَبِيهِ وَاتَمَّهُ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ بِقَوْلِهِ : يَا بَنَ أُمِّ قَلْبَسِهِ وَأَسْتَعِظَافِهِ عَلَيْهِ ، لَا تَأْخُذْ
بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ ، إِنَّ أَقْطَعَهُمْ أَنْ يَصْبِرُوا حَزِينَ يَهْتَلُ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا ، فَتَقُولُ : فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ، وَلَمْ تَحْفَظْ وَصِيَّتِي
حِينَ قُلْتَ لَكَ : اخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ . وَقَالَ :
إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشِمْتُ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . فَقَالَ مُوسَى : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

قال : ثم أقبل موسى على السامري فقال له : ما خطبك يا سامري ، أرى
ما أمرُك وشأنُك ؟ فقال السامري : بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً
مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ، أَيْ أَخَذْتُ تَرَابًا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ فَنَبَذْتُهَا وَطَرَحْتُهَا فِي السَّبِيلِ
وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ، أَيْ زَيْتٌ .

قال : فلما علم بنو إسرائيل أنهم قد أخطأوا وضلوا في عبادتهم العجل ، تنموا
على ذلك واستغفروا ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ
قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ؛ فقال لهم
موسى : يَا قَوْمِ إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ السَّبِيلَ قُودُوا إِلَى بَارِئِكُمْ .
قالوا : كيف تتوب ؟ قال : فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، أَيْ يَقْتُلِ الْبَرِيءُ الْمَجْرَمَ ، ذَلِكَ يَمْنَى
الْقَتْلُ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : أبى الله أن يقبل توبة بنى إسرائيل إلا بالخال الذى كرهوا أن يقاتلوه حين عبدوا السجل .

⑤

وقال قتادة : جعل الله توبة عبدة السجل القتل لأنهم آرتنوا ، والكفر .
مسيح للقم .

- وقال الكسائي : لما قال موسى لبنى إسرائيل : يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ السَّجَلِ ، سألوه أن يتوب الله تعالى عليهم ؛ فقال الله تعالى ، فأوحى الله تعالى إليه أنه لا توبة لهم ، لأن في قلوبهم حب السجل ، فاجمع رماد السجل وألقه في الماء ، وأمرهم أن يشربوا منه فإنه يظهر ما في قلوبهم على وجوههم . فضل ذلك ؛ فلما شربوا لم يبق أحد مما في قلبه مرض إلا أصفر وجهه ولونه وورم بطنه ، ودام ذلك بهم ، فقالوا : يا موسى ، هل شيء غير التوبة الخالصة وقد أخلصنا في توبتنا حتى لو أمرتنا بقتل أنفسنا فعلنا ؟ فأوحى الله إليه : يا موسى قد رضيت بحكمهم على أنفسهم ، فقل لهم : بقتلوا أنفسهم إن كانوا صادقين في توبتهم . فقال لهم موسى ما أمرهم الله به : ﴿ قَتُّوْا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ قَتَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ . فقالوا : كيف قتل أنفسنا ؟ قال : يقوم من لم يعبد السجل إلى من عبده فيقتله . فقاموا بالسيوف والخناجر إلى الذين عبدوه وأرسل الله عليهم ظلمة فلم يصب بعضهم بعضا ، حتى كان الرجل يأتي إلى أخيه وأبيه وأبن عمه وقرابته فيقتله وهو لا يعرفه ، ولم يعمل السلاح فيمن لم يعبد السجل حتى خاضوا في الدماء . وصاح النساء والصبيان إلى موسى : « العفو يا نبي الله » فدعا موسى الله بالعفو عنهم ؛ فلم يعمل السلاح فيهم بعد ذلك ، وقبل الله تعالى توبتهم ، وأرفعت الظلمة عنهم .

قالوا : ثم هم موسى بقتل السامري ، فأوحى الله تعالى إليه : لا تقتله فإنه
 نبي ، ولكن أخرجه عن قومك . فلعنه موسى وقال له ما أخبر الله تعالى به عنه :
 ﴿ قَالَ فَأَذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ يُخْلَفَهُ ﴾
 أى لعذابك في القيامة . ﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ
 ثُمَّ لَنَنْبِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ .

قال : وأمر موسى بنى إسرائيل ألا يغالطوا السامري ولا يقاربوه ، فصار
 السامري وحشياً لا يألف ولا يؤلف ولا يدنو من الناس ولا يمس أحدا منهم
 فمن مَسَهُ قُورِضَ ذلك الموضع بالمقراض ، فكان ذلك دأبه حتى هلك .

ذكر خبر امتناع بنى إسرائيل من قبول أحكام التوراة

ورفع الجبل عليهم وإيمانهم

قال الكسائي : ثم أقبل موسى على بنى إسرائيل بالتوراة وقال : هذا كتاب
 ربكم فيه الحلال والحرام والأحكام والسنن والفرائض ورجم الزاني والزانية المحصنين
 وقطع يد السارق ، والقصاص في كل ذنب يكون منكم . فضجوا من ذلك وقالوا :
 لا حاجة لنا في هذه الأحكام ، وما كنا فيه من عبادة العجل كان أرفق بنا من هذا .

قال : فلما آمنتموا من قبول أحكام الله عز وجل قال موسى : يا رب قد
 علمت أنهم ردوا كتابك وكذبوا بآياتك . فأمر الله تعالى جبريل أن يرفع عليهم
 جبل طور سيناء في الهواء ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ تَقَرَّبْنَا إِلَيْهِمْ فَقَوْمَهُمْ كَانَتْ ظُلَّةً
 وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ (١) واسمعوا ^(١) قالوا سمعنا وعصينا ؛
 (١) يلاحظ أن قوله تعالى : « واسمعوا » الخ ليس من جهة الآية السابقة ، بل هو من جهة آية
 أخرى في سورة البقرة ، وهي قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَضْنَا فَرَقَكُمْ لِلْمَعْرِفَةِ مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
 واسمعوا » الخ .

يفعل الجبل يدنو منهم حتى ظنوا أنه يسقط عليهم؛ فأمّنوا ونفروا مجتهدا على أنصاف وجوههم وهم ينظرون إلى الجبل بالنصف الآخر؛ فلاجل ذلك مجبود اليهود كذلك . وردّ الجبل عنهم .

ذكر خبر الحجر الذي وضع موسى — عليه السلام — ثيابه عليه

- قال : وكانوا إذا اغتسلوا لا يسترون عوراتهم ، وإذا اغتسل موسى يستتر
فظنوا أن في بدنه عيبا ، فكلّموا بذلك ، وكان موسى — عليه السلام — إذا
أغتسل وضع ثوبه على حجر وقرعه بعصاه فيتفجر الماء منه ، فيغتسل ثم يلبس
ثوبه ؛ ففعل ذلك في بعض الأيام ، فلما أراد أن يلبس ثوبه ألقع الحجر من موضعه
وسر على وجه الأرض وعليه ثوب موسى ؛ فعلم موسى خلقه وهو يقول : « ثوبي
يا حجر ثوبي يا حجر » ولم يزل يدعو حتى وقف على بنى إسرائيل ، فنظروا إلى موسى
ولا عيب فيه ، فسندموا على ما كان منهم ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَبَرَأُكُمْ عَنْهَا قَالُوا
وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبَاءٌ ۝ ﴾ .

ذكر خبر طلب بنى إسرائيل رؤية الله تعالى وهلاكهم

بالصاعقة ، وكيف أحياهم الله — عزّ وجلّ — وبعثهم من بعد موتهم

- قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ إِلَهُكَ جَهَنَّمَ ۚ فَآخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ ﴾ .

وذلك أن الله تعالى أمر موسى — عليه السلام — أن يأتيه في ناس من

بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ؛ فاختر موسى — عليه السلام —

سبعين رجلا من قومه من خيارهم ، وكان قد آختر من كلّ سبط سبعة نفر ، فصاروا

- أثنين وسبعين ، فقال : إنما أمرت بسبعين ، فليخلف منكم رجلان . فقاشحوا على

ذلك ، فقال موسى : إن لمن قعد مثل أبر من خرج . قعد يوشع بن نون وكالب
أبن يوقنا ، فقال موسى للبعين : صوموا واطهروا واطهروا ثيابكم . ففعلوا ذلك
تفرج بهم موسى عليه السلام إلى طور سيناء لملاقات ربه ؛ فلما بلغتوا ذلك الموضع
قالوا لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا . فقال : أفصل . فلما دنا موسى من
الجل وقع عمود النعام عليه وتفتى الجبل كله ، فدخل في النعام وقال للقوم : أدنوا .
وكان موسى عليه السلام إذا كلمه ربه عز وجل — وقع على وجهه نور ساطع
لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ؛ فضرب دونه الحجاب ، ودنا القوم حتى
دخلوا في النعام وخزوا متجيدا ، وسموه وهو يكلم موسى بأمره ونهاه ؛ فاسمهم
الله تعالى : إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو الملك ، أنخرجكم من أرض مصر فاعبدوني
ولا تعبدوا غيري . فلما فرغ موسى وأنكشف النعام أقبل إليهم فقالوا : لَنْ نؤمنَ
لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ، أَيْ لَنْ نَصْدَقَكَ ، فَأَخَفَّتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ، وَهِيَ نَارُ جَامَتِ
مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَتْهُمْ جَمِيعًا .

وقال وهب بن منبه : أرسل الله عليهم جنلا من السماء ، فلما سمعوا حسها
ماتوا في يوم وليلة .

فلما هلكوا جعل موسى — عليه السلام — يبكى ويتضرع ويقول : يا رب
ما ذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ، ولو شئت أهلكتهم
من قبل وإيأى أهلكا بما فعل السفهاء منا ، فلم يزل يتأشده ربه حتى أحياهم
الله — عز وجل — رجلا بعد رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون . حكاه
التعلي في تفسيره .

وقال الكسائي في هذه القصة : أقبل بنو إسرائيل على موسى وقالوا : أرنا الله جهرة . فأوحى الله تعالى إليه : أكلهم يريد ذلك ؟ — وهو أعلم — فقال الصالحون منهم : إن الله أجل من أن نراه في الدنيا .

وقال الباقون : إنما أمتنع هؤلاء لضعف قلوبهم . فأوحى الله تعالى إليه : أن

- اختر منهم سبعين رجلا وسرهم إلى جبل الطور ، فسارهم ، ووقع الغمام على الجبل حتى أظلمه ، وأتاه موسى وهم معه ، فأمر الله تعالى الملائكة أن تهبط إلى الجبل بزيتها وصورها ، فلما نظر بنو إسرائيل إليهم أخذتهم الرعدة والخوف ، وندموا على ما كان منهم ، ونودوا من قبل السماء : يا بني إسرائيل . فصعقوا كلهم وماتوا . وساق نحو ما تقدم .

- ١٠ قال : ورجعوا إلى قومهم وخبروهم بما رأوا .

ذكر خبر قارون

قال المفسرون : إن قارون كان ابن عم موسى ، لأنه قارون بن يصر ابن قاهت .

وقال ابن إسحاق : هو عم موسى ، لأن يصر بن قاهت تزوج شمش^(١)

- ١٠ بنت ماويب بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم ، فولدت له عمران بن يصر وقارون ابن يصر .

فعل هذا القول يكون عم موسى ، وعلى قول الآخرين يكون ابن عمه ، وعليه عاقبة أصحاب التواريخ ، وعليه أهل الكتاب ، لا خلاف عندهم في ذلك .

(١) كذا في تاريخ العيني ورقة ٣٠٠ من الجزء الثاني قسم ثان . والقي في الأصول : سميت بنت

ماويب بن توكيا بن يشان .

قالوا : وكان قارون أعلم بنى إسرائيل بمد موسى وهارون وأفضلهم وأجلهم .
 قال قتادة : وكان يسمى المشور ^(١) لحسن صورته ، ولم يكن في بنى إسرائيل أقرأ
 للثروة منه ، ولـكـنّ عدوّ الله نافق كما نافق السامري ، فبنى على قومه ، كما قال
 تعالى : (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَنَى عَلَيْهِمْ) .

قال الطبري : واختلفوا في معنى هذا البنى ما هو ، قال ابن عباس — رضى
 الله عنهما — : كان فرعون قد ملّك قارون على بنى إسرائيل ، وكان يبني عليهم
 ويظلمهم .

وقال عطاء الخراساني وشهر بن حوشب : زاد عليهم في الثياب شبرا .

وقال شيان عن قتادة : بنى عليهم بالكبر والبذخ .

وقال سعيد عنه : بكثرة المال . وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم ، كما قال
 تعالى : (وَأَيُّنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ) أى تنقل وتميل بهم
 إذا حملوها لثقلها .

وأختلف المفسرون في عدد العصبة ، فقال مجاهد : ما بين العشرة إلى الخمسة .

وقال قتادة : ما بين العشرة إلى الأربعين .

وقال عكرمة : منهم من يقول : سبعين .

وقال الضحاك : ما بين الثلاثة إلى العشرة .

وقيل : هم ستون .

وروى جرير عن منصور عن خيشمة قال : وجدت في الإنجيل أن مفاتيح

خزائن قارون كانت وقرستين ^(٢) بفلاغرا محجلة ما يزيد منها مفتاح على أصبع
 لكل مفتاح منها أكثر .

(١) في الأصل «المشور» ؛ وهو منحرف .

ويقال : إن قارون كان أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه — وكانت من حديد — فلما قتلت عليه جعلها من الخشب ، فقتلت عليه ، فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع ، فحمل معه على أربعين بنتا .

وقال بعضهم : أراد بالمفاتيح الخزائن . وإليه ذهب أبو صالح .

وقال أبو رزين : لو كان مفتاح واحد لأهل الكوفة كان كافيا .

وآختلفوا في سبب اجتماع تلك الأموال لقارون ؛ ف قيل : كان عنده علم الكيمياء .

قال سعيد بن المسيب : كان موسى يعلم الكيمياء ، فلم يوشع ثلث العلم ، وعلم كالب ثلثه ، وعلم قارون ثلثه ؛ فخدعهما قارون حتى أضافا عليهما إلى علمه .

وحكى الكسائي : كان قارون من قراء بنى إسرائيل ، فأوحى الله إلى موسى أن يحلّ تابوت التوراة بالذهب ، وعلمه صنعة الكيمياء ؛ فباء قارون إلى أم كلمم أخت موسى — وقد قيل : إنها كانت زوجته — فسالها : من أين لموسى هذا الذهب ؟ فقالت : إن الله تعالى قد علمه صنعة الكيمياء . وكان موسى قد علمها الصنعة ، فتعلمها قارون منها .

قالوا : فكان ذلك سبب أمواله ، فذلك قوله كما أخبر الله تعالى عنه : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ ﴾ .

وقيل : معناه على علم عندي بالتصرف في التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب .

وقيل في سبب جمعه تلك الأموال ما رواه الثعلبي بسنده عن أبي سليمان الداراني

أنه قال : تبدى إبليس لقارون وكان قارون قد أقام في جبل أربعين سنة حتى

غلب بنى إسرائيل في العبادة، فبعث إبليس إليه شياطينه فلم يقدروا عليه؛ فأنه وجعل يتعبد معه، وجعل قارون يتعبد وإبليس يقوره في العبادة ويخوقه؛ فغضب له قارون؛ فقال له إبليس : يا قارون ، قد رضىنا بهذا الذى نحن فيه ، لا نشهد لبنى إسرائيل جماعة، ولا نعود مريضاً، ولا نشهد جنازة ؟

قال : فأحدره من الجبل إلى البعثة، فكانا يؤتيان بالطعام، فقال له إبليس : يا قارون، قد رضىنا أن نكون هكذا كلاً على بنى إسرائيل ؟ فقال له قارون : فأى رأى عندك ؟ قال : نكسب يوم الجمعة، ونتعبد بقية الجمعة .

قال : فكسبوا يوم الجمعة وتعبدوا بقيتها؛ فقال إبليس : قد رضىنا أن نكون هكذا؟ قال قارون : فأى رأى عندك ؟ قال : نكسب يوماً وتعبد يوماً فتصدق وتعطى .

قال : فلما كسبوا يوماً وتعبدوا يوماً خَسَّ إبليس وتركه، ففُتحت على قارون أبواب الدنيا، فبلغ ماله — على ما رواه الثعلبى — بسنده إلى المسيب بن شريك قال : مَا إِنَّ مَفَاحَهُ لَتَنُوءَ بِالْمُصْبَةِ، وَكَانَتْ أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفٍ أَلْفٍ فِي أَرْبَعِينَ جَرَاباً .

قال : فبغى وطنى حين أسفنى، فكان أول طغيانه وعصيانته أنه تكبر وأستطال على الناس بكثرة الأموال، وكان يخرج في زيته .

قال مجاهد : خرج على براذين بيض طليها سروج الأرجوان وعليه المصفرات .

وقال ابن أسلم : خرج في سبعين ألفاً عليهم المصفرات .

قال : وذلك أول يوم ظهرت فيه المصفرات في الأرض .

وقال مقاتل : خرج على بضلة شبهاء على سرج من الذهب طليها الأرجوان ومعه ألف فارس عليهم الديباج وعلى دوابهم الأرجوان؛ ومعه ستمائة جارية بيض طليهن الحلى والياب الحمراء، وهن على البقال الشهب .

وحكى الكسائي أن قارون أخذ صريرا من الذهب يصعد إليه بمراق ، وعليه أنواع من فُرُش الديباج ، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالجوهر .

- قالوا : فلما خرج في بعض الأيام في زينة عظيمة ، تنحى أهل الجهالة والخسارة مثل الذي أوتيته ، وقالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَأْلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَكُنْوَ حَظَّ عَظِيمٍ ﴾ فانكر عليهم أهل العلم بالله تعالى ، وقالوا لهم : اتقوا الله وأعملوا ما أمركم به ، وآتوها عما نهاكم الله عنه ، فإن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا من لذات الدنيا وشهواتها ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يُلْقَاهَا ﴾ ، أى لا يوفق لهذه الكلمة ﴿ إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ، أى على طاعة الله وعن زينة الحياة الدنيا .

- قالوا : ثم أوحى الله تعالى إلى نبيه موسى — عليه السلام — أن يأمر قومه أن يسلقوا في آذانهم خيوطا أربعة ، في كل طرف خيط أخضر كلون السماء فقال موسى : يارب لم أمرت بنى إسرائيل بتطبيق هذه الخيوط الخضراء في آذانهم ؟ فقال تعالى : إن بنى إسرائيل في غفلة ، وقد أردت أن أجعل لهم علما في ثيابهم ليدذكروني به إذا نظروا إلى السماء ، وعلموا أنى منزل منها كلامي . فقال موسى : يارب أفلا تأمرهم أن يجعلوا آذانهم كلها خضراء ، فإن بنى إسرائيل تحقر هذه الخيوط ؟ فقال له : يا موسى ، إن الصغير من أمرى ليس بصغير ، وإن لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير .

﴿٣٦﴾

قال : فدعا موسى بنى إسرائيل وأعلمهم بأمر الله تعالى ؛ ففعلوا ذلك وأستكبر قارون فلم يطمع ، وقال : إنما يفعل هذا الأرياب بسيدهم لكي يتميزوا من غيرهم . فكان هذا أيضا من بغيه وعصيانه .

قالوا : ولما قطع موسى البحر بنى إسرائيل جُملت الحُبورة — وهى رأسه المذبح وبَيْت القربان — لهارون عليه السلام ؛ وكان بنو إسرائيل يأتون بهمهم فيدفعونه إلى هارون، فيضعه على المذبح، فتترل نار من السماء فتأكله، فوجد قارونُ في نفسه من ذلك ، وأتى موسى وقال له : يا موسى ، لك الرسالة ، ولهارون الحُبورة، وليس لى من ذلك شىء، وأنا أقرأ للتوراة منكما، لا صبر لى على هذا .
فقال موسى : والله ما أنا جلتها فى هارون . بل الله جعلها له . فقال قارون : والله لا أصتقك فى ذلك حتى ترينى يَتَنَة .

قال : بجمع موسى رؤساء بنى إسرائيل وقال : هاتوا عصيكم . فجمعوا بها فخرمها وألقاها فى قَبْتِه التى كان يعبد الله تعالى فيها ؛ وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا ، فأصبحت عصا هارون قد آهتر لها ورق أخضر، وكانت من شجر اللوز .
فقال موسى : يا قارون ، أترى هذا من فعلى ؟ قال قارون : والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر . وذهب قارون مناضيا . وأعتزل موسى بأتباعه ؛ وجعل موسى يناديه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه فى كل وقت ، ولا يزداد كل يوم إلا عتوا وتجبرا ومخالفة .

ويقال : إنه بنى دارا وجعل بابها من الذهب . وضرب على جدرانها صفائح الذهب ، وكان المساء من بنى إسرائيل يفتدون عليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويصاحكونه .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — : ثم أنزل الله تعالى الزكاة على موسى ؛ فلما وجبت الزكاة على بنى إسرائيل أتى قارون موسى فصالحه عن كل ألف دينار على دينار، وعن كل ألف درهم على درهم، وعن كل ألف شاة على شاة، وعن كل ألف

- شيء، شيئا، ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده كثيرا، فلم تسمع بذلك نفسه، فجمع بني إسرائيل وقال لهم: يا قوم، إن موسى قد أمركم بكل شيء فاطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم. فقالوا له: أنت كبيرنا وسيدنا فما شئت. فقال: أمركم أن تبيعوا بعلانة البني فتجعل لما جُعلا على أن تحذف موسى بنفسها، فإذا فعلت ذلك نخرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فاسترحنا منه. فأثوابها، فعل لها قارون ألف درهم. وقيل: ألف دينار. وقيل: طلتنا من ذهب. وقيل: حكمها؛ وقال لها: إني أمؤلك وأخطئك بنسائي على أن تحذف موسى غدا إذا كان بنو إسرائيل متجمعين. فلما كان الغد جمع قارون بني إسرائيل، ثم أتى موسى فقال: إن بني إسرائيل قد اجتمعوا ينظرون خروجك لتأمرهم وتهاجم وتبين لهم أعلام دينهم وأحكامهم وأحكام شرعهم. تخرج إليهم موسى وهم في برّاح من الأرض، فقام فيهم خطيبا ووعظهم، وقال فيما قال: يا بني إسرائيل، من سرق قُطعت يده، ومن أفتى جلدناه ثمانين جلدة، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة. وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت. فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا. قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك بغرت بعلانة. قال موسى: أنا؟ قال: نعم. قال: أدعها فإن قالت فهو كما قالت. فدُعيت؛ فلما جاءت قال لها موسى: يا بعلانة، أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء؟ وعظم عليها وسالها بالذي فاتك البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلّا صدقت. فلما ناشدها موسى تداركها الله تعالى بالتوفيق وقالت: لأن أحدث اليوم توبة أفضل من أودى رسول الله. وقالت: لا والله بل كذبوا، ولكن جعل لي قارون جُعلا على أن أقذفك بنفسى. فلما تكلمت بهذا الكلام سُقط في يد قارون وتكسر رأسه، وسكت الملاء.
- وعرف قارون أنه قد وقع في مهلكة، ونثر موسى ساجدا لله تعالى.

وقال الكسائي في قصة هذه المرأة : إن قارون بعث إلى امرأة فاسقة كان موسى قد نفاها من عسكره ، فقال لها : إني أريد أن أتزوج بك وأتخذك من هذا الفقر إن عملت ما أقول . قالت : وما هو ؟ قال : إذا اجتمع بنو إسرائيل عندي فأحضري وقولي : إن موسى دعاني إلى نفسه فلم أطاوعه ، فأخرجني من عسكره فانصرفت ودخلت على قارون من الندم — وقد أجمع بنو إسرائيل عنده — فقالت : يا بني إسرائيل ، هذا مالم يألوا من الأشرار ، اعلما أن قارون دعاني بالأسس وقال لي كذا وكذا ، وأمرني أن أكذب على نبي الله موسى ؛ وكذب قارون إنما أخرجنى موسى من عسكره لفساده ، وقد تبث إلى الله تعالى من ذلك . فلما سمع قارون ذلك ندم ، ولامه بنو إسرائيل ، وبلغ موسى الخبر فغضب ودعا على قارون .

قالوا : وجعل موسى يبكي ويقول : يارب إن عدوك هذا قد آذاني وأراد فضيحتي ، اللهم إن كنت رسولك فأغضب لي وسلطني عليه . فأوحى الله تعالى إليه : ارفع رأسك وأمر الأرض بما شئت تطلعك . فقال موسى : يا بني إسرائيل إن الله قد بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون ، فمن كان معه فليتب مكانه ومن كان معي فليستل عنه . فأعزل بنو إسرائيل قارون ولم يبق منهم إلا رجلان ثم قال موسى : يا أرض خذهم . فأخذتهم إلى كعابهم . ثم قال : يا أرض خذهم . فأخذتهم إلى ركبتهم . ثم قال : يا أرض خذهم . فأخذتهم إلى حقيبتهم . ثم قال : يا أرض خذهم . فأخذتهم إلى أعناقهم ؛ وقارون وصاحبه في كل ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشدونه ؛ حتى روي في بعض الأخبار : أنه ناشده سبعين مرة وموسى في جميع ذلك لا يلتفت إليه ، لشدة غضبه عليه . ثم قال : يا أرض خذهم . فأطبقت عليهم الأرض ؛ فأوحى الله إلى موسى : استأفوا بك سبعين

مرة فلم ترحمهم ولم تنهم، أما عزرتي وجلالي لو إياي دعوا لوجدوني قريبا مجيا .
قال قتادة : ذكر لنا أن الله تعالى يخسف بهم في كل يوم قامة ، وأنه يتخلخل فيها
لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة .

- قالوا : فلما خسف الله تعالى بقارون وصاحبيه أصبحت بنو إسرائيل يتناجون
فيما بينهم : إن موسى دعا على قارون ليستبد بداره وكنوزه وأمواله . فدعا موسى
حتى خسف الله تعالى بدار قارون وأمواله الأرض ، وأوحى الله تعالى إلى موسى :
أَنْى لَا أَبْعِدُ الْأَرْضَ لِأَحَدٍ بَعْدَكَ أَبَدًا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خَفَسْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ
الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُثْبِتِينَ ﴾ .

- قال : فلما حلت نعمة الله تعالى بقارون حمد المؤمنون الله تعالى ، وندم الذين
كانوا يمتنون ماله وسالاه ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ وَأَصْحَابُ الَّذِينَ تَمَنَّوْا
مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا
أَنْ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ . والله الفعّال .

ذكر خبر موسى والخضر — عليهما السلام —

- وهذا الخبر إنما رجعت فيه وأعتمدت على ماورد في الحديث الصحيح النبوى
مما أخرجه البخارى — رحمه الله تعالى — في صحيحه ، ورويناه بسندنا عنه بسنده عن
آبن عباس عن أبى بن كعب — رضى الله عنهم — عن النبي صلى الله عليه وسلم :
أن موسى ^(١) — عليه السلام — قام خطيبا في بنى إسرائيل ، فمثل : أى الناس

(١) يتخلخل ويتقلب .

(٢) يلاحظ أن في رواية هذا الحديث هنا اختلافا سيرا عما ورد في البخارى في كتاب تفسير القرآن

أعلم ؟ قال : أنا . فغضب الله تعالى عليه إذ لم يرذ العلم إليه ؛ فقال : بلى ، عبد يجمع البحرين هو أعلم منك .

وورد في الحديث الآخر من رواية البخاري : بلى عبدنا خضر . قال : أي رب ومن لي به ؟ قال سفيان من روايته : أي رب وكيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتا فتجعله في مكمل فحينما فسدت الحوت فهو تم . وربما قال : فهو ثمة . فأخذ حوتا فجعله في مكمل ، ثم أنطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رموسهما ؛ فرقد موسى طيه السلام . وأضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر : ﴿ فَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ مَرًّا ﴾ ؛ فامسك الله عن الحوت حرية الماء فصار مثل الطاق ؛ فأنطلقا يمشيان بقية يومهما وليتهما ، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه : ﴿ آتَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ مَفَرٍ هَذَا نَصَبًا ﴾ ؛ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله تعالى ؛ قال له فتاه : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ ؛ فكان للحوت ممرًا ولها عجا .

قال له موسى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ .

فرجعا يقصان آثارهما حتى أتيا إلى الصخرة . فإذا رجل مسجى بثوب ، فسلم موسى ، فردّ عليه فقال : وأنى بأرضك السلام . قال : أنا موسى . قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا . قال : يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . ﴿ قَالَ هَلْ أُتِمُّكَ ﴾ . ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ * وكيف

٢٠ (١) في البخاري : « صار عليه مثل الطاق » .

تَصِيرُ عَلَى مَالٍ مُحِيطٍ بِهِ خُبْرًا) . إلى قوله : (أَمْرًا) ؛ فَأَنْطَلَقَا بِمَشْيَانٍ عَلَى سَاحِلِ
الْبَحْرِ ، فَزَتَ بَهُمَا مَفِينَةٌ فَكَلَّمَهُمْ أَنْ يَحْلُومَ ، فَعَرَفُوا الْخَيْضَرَ فَعَمِلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ ؛
فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عَصْفُورٌ ^(١) فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَفَرَّقَ فِي الْبَحْرِ قِرَّةً أَوْ قَرَّتَيْنِ ^(٢)
فَقَالَ لَهُ الْخَيْضَرُ : يَا مُوسَى ، مَا نَقَصَ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا
العصفور بمقتاره من البحر . « فَأَخَذَ الْفَاسَ فَتَرَعَ لَوْحًا » .

- قال : فلم يضجأ موسى إلا وقد قلع لوحا بالقدم ؛ فقال له موسى : ما صنعت ؟
قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفيتهم غرقتها (لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا *
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ
أَمْرِي عُسْرًا) . وكانت الأولى من موسى نسيانا . فلما خرجا من البحر مرأى بئلام
يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخيضر رأسه بقلمه بيده هكذا — وأومأ سفيان بأطراف
أصابعه كأنه يقطف شيئا — قال له موسى : (وَأَقْنَلْتَ نَفْسًا رَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ
جِئْتَ شَيْئًا نَكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ
عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ ذَلِكَ تَصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُدْرًا * فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ
قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ مَالًا ،
(فَأَقَامَهُ) — أومأ بيده هكذا وأشار سفيان كأنه يسمح شيئا إلى فوق — قال :
قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيّفونا عمدت إلى حائطهم ، (لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ
عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَبَّحْ بِمَا نَزَّلْتَنَا وَأَوَّلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) .

(١) وردت قصة العصفور هذه في البخاري مؤثرة عن هذا الموضع بقليل ، أي بعد ذكر خرق السفينة .

(٢) لم يرد في البخاري قوله : « أَوْ قَرَّتَيْنِ » انظر الفسطلاني ج ٧ ص ٢٦١ .

(٣) هذه العبارة تأتي بين طائفتين اللامعنين لم ترد في البخاري أثناء هذا الحديث الوارد في كتاب تفسير القرآن .

(٤) عبارة البخاري : « لم يضجأ إلا والخيضر قد قلع لوحا » الخ .

قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « وِدِدْنَا أَنْ مُوسَى كَانَ صَبْرَ فَقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ خَيْرِهَا » .

قال سفيان : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « بِرَحْمَةِ اللَّهِ مُوسَى لَوْ كَانَ صَبْرَ لَقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهَا » .

وقرأ ابن عباس - رضي الله عنهما - : « أَمَّا هُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضَبًا * وَأَمَّا الْفُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ » .
ثم قال لي سفيان : سمعته منه مرتين وحفظته منه .

هذا حديث البخاري عن علي بن عبد الله عن سفيان عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب ؛ وقصتهما في كتاب الله تعالى :
(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَسْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْسَلْنَا عَنْهُمْ غَضَبًا * وَأَمَّا الْفُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَغَضَبْنَا لَهُمَا أَنْ يَفْقَهُمَا هُدًى * وَكَفَرُوا) الآيات . إلى قوله : (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) .

وحكى أبو إسحاق الثعلبي - رحمه الله - في قصصه أن الخضر - عليه السلام - اسمه بليلى بن ملكان بن قالح بن عابر بن شالح بن أرتقشذ بن سام بن نوح عليه السلام .

وروى حديثا عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، وإذ هي تهترت تحت خضره .

(١) لم يرد اسم علي بن عبد الله في هذا الحديث الوارد في البخاري ج ٥ ص ٢١١ طبع بولاق سنة ١٢٩٦ هـ وإني أرواه الحميدي من سفيان .

(٢) كما ورد هذا الاسم في تاريخ البني مضبوطا بالعبارة .

وروى عن مجاهد قال : إنما سُمِّيَ الخضر لأنه حينما صَلَّى أَخْضَرَ ما حوله .
قال الثعلبي : وكان الخضر في أيام أفريدون الملك على قول عامة أهل الكتب الأول .

قال : وقيل إنه كان على مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان في أيام إبراهيم — عليه السلام — وذلك في أيام مسيره في البلاد ، وأنه بلغ مع ذي القرنين —
نهر الحياة وشرب من مائه وهو لا يعلم ولا يعلم ذو القرنين ، فغُلِدَ ، وهو حتى إلى الآن ، والله أعلم .

وسنذكر — إن شاء الله تعالى — في السفر الذي يلي هذا السفر خبره في ظفروه
بماء الحياة في أخبار ذي القرنين .

١٠ ذكر خبر البقرة وقتل عاميل

قال أبو إسحاق الثعلبي — رحمه الله تعالى — في تفسيره عن السدي وغيره : إن رجلاً كان في بني إسرائيل كان باذاً بابيه ، وبلغ من برّه به أن رجلاً أتاه بلؤلؤة فأتاعها منه بخمسين ألفاً ، وكان فيها فضل ورجح ؛ فقال له البائع : أعطني الثمن . فقال : إن أبي ناثم ، ومفتاح الصندوق تحت رأسه ، فأمهلي حتى يستيقظ فأعطيك الثمن . فقال له البائع : أيقظ أباك وأعطني المال . قال : ما كنت لأفعل ولكن أزيدك عشرة آلاف وأنظرنى حتى يتنبه . فقال الرجل : أنا أعطيك عشرة آلاف إن أيقظت أباك وعجلت النقد . فقال : أنا أزيدك عشرين ألفاً إن أنتظرت آتياه . ففعل ولم يوقظ أباه ؛ فلما استيقظ أبوه أخبره بذلك ، فدعا له وجزاه خيراً ، وقال له : أحسنت يا بني ، وهذه البقرة لك بما صنعت . وكانت بقية بقرة كانت لهم .

قال : وقال ابن عباس وهبٌ وغيرهما : كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابن طفل ، وكان له عجلة ، فأتى بها إلى غِيضة وقال : اللهم إني أستودعك هذه العجلة لأبني حتى يكبر . ومات الرجل ، فشَبَّت العجلة في الغِيضة وصارت عَوانا وكانت تَهْرُب من كلِّ من رامها ؛ فلما كبر الابن — وكان بَرًا بوالده ، وكان يقسم الليلَ ثلاثة أثلاث : يصلي ثلثا ، وينام ثلثا ، ويحس عند رأس أمه ثلثا ؛ فإذا أصبح أنطلق وأحطب على ظهره . ويأتي به السوق فيبيعه بما شاء الله ، ثم يتصدق بثلثه ، ويبا كل ثلثه ، ويعطي والده ثلثه .

وحكى الكسائي عن وهب قال : كان في بني إسرائيل عبد صالح . فات وترك أمراته حاملا . فولدت غلاما . فسمته ميثي . فكبر . وكان يحطب من المواضع المباحة . وينفق على نفسه وأمه . وكان كثير العبادة ، فلم يزل كذلك حتى كبر وضعف وعجز عن الاحتطاب .

قالوا : فقالت له أمه : إن أباك وترك عجلة وذهب بها إلى غِيضة كذا وأستودعها الله — عز وجل — فاضلِّق إليها وأدع الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يردها عليك ، وإن من علامتها أنك إذا نظرت إليها ينزل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدتها — وكانت تسمى المَدْعبة لحسنها وصُفرتها وصفاء لونها — فأتى الفتى إلى الغِيضة . فرآها ترى ، فصاح بها وقال : أعزم عليك بالله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب . فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه . فقبض على عقمها وقادها ، فتكلمت بإذن الله — عز وجل — وقالت : أيها الفتى الباز بوالدته ، إركبني فإن ذلك أهون عليك . فقال : إن أمي لم تأمرني بذلك ، ولكن قالت : خذ بنتها . فقالت البقرة : وإله بني إسرائيل لو ركبتني ما كنت تهدر

- على أبدا ، فانطلق فلأنك لو أمرت الجبل أن ينقطع من أصله وينطلق معك
لفعل، إرتك بوالدتك . فسار الفتى بها ، فاستقبله عدو الله إبليس في صورة راع
فقال : أيها الفتى ، إني رجل من رعاة البقر ، اشتقتُ إلى أهل فاختتُ ثورا
من ثيراني ، فحملتُ عليه زادى ومتاعى ، حتى إذا بلغتُ شطر الطريق ذهبت
لأقضى حاجتى ، ففدا الثورُ وسط الجبل وما قدرتُ عليه ، وإني أخشى على نفعي
• المهلكة ، فلأن رأيتَ أن تحملنى على بقرتك . فلم يفعل الفتى وقال له : اذهب
فنوكل على الله — عز وجل — فلو علم الله منك الصدق لبلنك بلا زاد ولا راحلة .
فقال له إبليس : إن شئتُ فبعينها بحمك ، وإن شئتُ فاحملنى عليها وأعطيك
عشرا مثله . فقال الفتى : إن آمى لم تأمرنى بذلك . فبينا الفتى كذلك إذ طار
طائر من بين يديه ، ففترت البقرة هاربة في الفلاة ، وغاب الراعى ، فدعا الفتى باسم
• ١٠ لله إبراهيم ، فرجعت إليه وقالت : أيها الفتى البار بوالدته ، ألم ترمى الطائر الذى
طار ، إنه إبليس عدو الله آخلىنى . أما إنه لو ركنى ما قدرتُ على أبدا ، فلبثا
دعوتُ بالله إبراهيم جاء ملكٌ وأنترعنى من يد إبليس وردنى إليك ليرتك بأهلك
وطاعتك لها . بخاء بها الفتى إلى أمه . فقالت له أمه : إنك فقير لا مال لك
ويشقى عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل . فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها
• ١٥ قال : بكم أبيهما ؟ قالت : بثلاثة دنانير . ولا تبعها بغير رضاى ومشورتي .
فكان ثمن البقرة في ذلك الوقت ثلاثة دنانير . فانطلق بها الفتى إلى السوق
فبعث الله — عز وجل — ملكا ليرى في خلقه قدرته ، وليخبر الفتى كيف بره
بوالدته . وكان الله تعالى به خيرا ، فقال له الملك : بكم تباع هذه البقرة ؟ قال :
• ٢٠ بثلاثة دنانير ، واشترط عليك رضا والدتى . فقال له الملك : فانا أعطيك ستة دنانير
ولا تستأمر أمك . فقال الفتى : لو أعطيتى وزنها ذهباً لم أخذه إلا برضا أمى .

فردّها إلى أمّه ، وأخبرها الخبر . فقالت : ارجع فبعها بستة دنانير على رصّاء متى .
 فاطلاق بها إلى السوق ، وأتى الملك ، فقال : استأمرّت والدتك ؟ فقال الفتى :
 إنها أمرتني ألا أقصّها عن ستة دنانير على أن استأمرها . فقال الملك : فإني
 أعطيك اثني عشر ديناراً على ألا تستأمرها . فإني ورجع إلى أمّه فأخبرها بذلك ،
 فقالت : إن ذلك الرجل الذي يأتيك هو ملك من الملائكة يأتيك في صورة
 آدمي ليختبرك ، فإذا أنكأ فقل له : أأأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ؟ ففعل
 الفتى ذلك ، فقال له الملك : اذهب إلى أمك فقل لها : أمسيكي هذه البقرة . فإن
 موسى بن عمران يشترها منكم لقتيل يُقتل من بني إسرائيل ، فلا تبيعوها إلا
 بمئة مسكها دنانير . فأمسكوا البقرة ، وقدر الله على بني إسرائيل ذبح تلك البقرة
 بعينها مكافأة له على برّه بآته ، وذلك أنه وُجد قتيل في بني إسرائيل اسمه (عاميل)
 ولم يُدر قاتله .

وأختلفوا في قاتله والسبب في قتله ، فقال عطاء والسدي : كان في بني إسرائيل
 رجل كثير المال ، وله ابن عم مسكين لا وارث له غيره . فلما أبطأ عليه موته
 قتله ليرثه .

قال : وقال بعضهم : كان تحت عاميل بنت عم له تُضرب مثلاً في بني إسرائيل
 بالحسن والجمال . فقتله ابن عمها لينكحها .

وقال الكلبي : قتله ابن أخيه لينكح أخته . فلما قتله حمله من قريته إلى قرية
 أخرى وألقاه هناك .

وقيل : ألقاه بين قريتين .

وقال عكرمة : كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر باباً . لكل سبط منهم
 باب ، فوُجد قتيل على باب سبط ، وجرّ إلى باب سبط آخر ، فأخضم السبطان فيه .

وقال ابن سيرين : قتله القاتل ثم أحتمله فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يطلب بثاره ودمه ويدعيه عليه .

قالوا : بقاء أولياء القتل إلى موسى — عليه السلام — وأتوه بأناس وأدعوا عليهم القتل . وسأله القصاص ؛ فسألم موسى عن ذلك ، فخلصوا ، فاشتبه أمر القتل على موسى — عليه السلام — ووقع بينهم خلاف .

قال الكلبي : وذلك قبل نزول القسامة في التوراة . فسألوا موسى — عليه السلام — أن يدعو الله ليبين لهم ذلك ؛ فسأل موسى — عليه السلام — ربه عز وجل ؛ فأمرهم بذبح بقرة ؛ فقال لهم موسى ما أخبر الله تعالى به في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَجِدْنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، أى تستهزئ بنا حين نسالك عن القتل . وتأمرنا بذبح البقرة ؛ وإنما قالوا ذلك لتباعد ما بين الأمرين في الظاهر ، ولم يدروا ما الحكمة فيه . قال موسى : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ، أى من المستهزئين بالمؤمنين ؛ فلما علم القوم أن ذبح البقرة عز من الله عز وجل ، سأله الوصف . فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ .

قال : ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم . ولكن شتدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ؛ وإنما كان تشديدهم تقديرا من الله — عز وجل — وحكمة . قال : ومعنى ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ، أى سل ؛ وهكذا في مصحف عبد الله : « سل لنا ربك يبين لنا ما هي وما سنها » . قال موسى : إنه — معنى الله عز وجل — يقول : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ظَرِئُ وَلَا بَكْرٌ ﴾ : لا كبيرة ولا صغيرة ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أى تصف بين السنين .

وقال الأخفش: العوان التي تُحِثُّ مرارا، وجمعه عُون. ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾: من ذبح البقرة، ولا تكررُوا القول. ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ﴾. قال ابن عباس: شديدة الصفرة.

وقال قتادة وأبو المالية والربيع: صاف.

وقال سعيد بن جبير: صفراء القرنين والظلف.

وقال الحسن: سوداء. والعرب تسمى الأسود أصفر.

وقال العتي: غلط من قال: الصفراء هاهنا السوداء، لأن هذا غلط في نعوت البقر، وإنما هو من نعوت الإبل، وذلك أن السود من الإبل يشوب سوادها صفرة. وقال آخر: إنه لو أراد السواد لما أكدّه بالفتوح. لأن الفاقع: البالغ في الصفرة، كما يقال: أبيض يقق، وأسود حالك، وأحمر قاني، وأخضر ناضر. ﴿تَسُرُّ النَّاطِرِينَ﴾ إليها، ويحبهم حسننها وصفاء لونها، لأن العين تسر وتولع بالنظر إلى الشيء الحسن.

وقال علي: — رضى الله عنه —: من لبس نعلا صفراء قلَّ حمه. لأن الله تعالى يقول: ﴿رِصْفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ﴾. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴿أَسَأَمْتَ أَمْ غَامِلَةٌ﴾ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنِ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿أَيُّ إِلَى وَصْفِهَا﴾.

قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —: «وَأَيُّمُ اللَّهِ لَوْلِمَ يُسْتَفْتَى لِمَا بَيَّنَّتْ لَهُمْ آخِرُ الْأَبَدِ». ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ﴾. أى مذلة للعمل. ﴿تُسِيرُ الْأَرْضَ﴾، أى تقلبها للزراعة ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً﴾ أى بريئة من العيوب.

وقال الحسن : مسألة القوائم ، ليس فيها أثر العمل . (لَا شَيْءَ فِيهَا) ، قال
عطاء : لا عيب فيها .

وقال قتادة : لا بياض فيها أصلا .

وقال مجاهد : لا بياض فيها ولا سواد .

- وقال محمد بن كعب : لا لون فيها يخالف معظم لونها . فلما قال هذا (قَالُوا الْآنَ
جِئْتَ بِالْحَقِّ) ، أى بالوصف البين التام ؛ فطلبوها فلم يجدوا كمال وصفها إلا عند
الفتى البازي والدته ؛ فأشتروها منه بملء مَسْكِيهَا ذهباً .

وقال السدي : اشتروها بوزنها عشر مرات ذهباً .

وقيل : اشتروها بوزنها مرة ؛ قاله أبو عبيد .

- ١٠ . وقيل : بوزنها مرتين .

وقال الكسائي : إنهم أتوا إلى مِيشَى في بيع البقرة فقال : لا أبيعها إلا بحضرة
موسى . فرضوا بذلك ، وأخرج البقرة إلى موسى ، قال : بكم تبيعها ؟ قال : المساومة
بينى وبينك لا خير فيها ، لا أبيعها إلا بملء جليدها ذهباً . فقال موسى لبنى إسرائيل :
ذلك لتشد يدكم على أنفسكم فتشدد الله عليكم . فضعنوا له ذلك ، قال الله تعالى :
(فَلْيَجْهَرُوا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) من غلاء تمنها .

١٥

وقال محمد بن كعب : وما كادوا يجدونها بأجتماع أوصافها .

وقال الكسائي : بوفاء المال ؛ قال الله تعالى : (وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذَارُكُمْ فِيهَا
وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) ، يعنى عاميل . (فَاذَارُكُمْ) : اختلغم ، قاله ابن
عبّاس ومجاهد .

٢٠

وقال الضحاك : اختصمتم .

وقال عبد العزيز بن يحيى : شككتهم .

وقال الريح بن أنس : تدافعت . وأصل الدَّرء : الدفع ، يعنى ألقى هذا على هذا وهذا على ذاك ، فدافع كل واحد عن نفسه لقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ ، أى يدفعون . قال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ يعنى القتيل ببعض البقرة .

وآخلفوا فى هذا البعض ما هو .

فقال ابن عباس : ضربه بالمعظم الذى على الضروف ، وهو المقتل .
وقال الضحاك : بلسانها .

قال الحسين بن الفضل : وهذا أولى الأحوال . لأن المراد كان من إحياء القتل كلامه ، واللسان آله . ١٠

وقال سعيد بن جبير : يَجِم ذَنبُهَا .

قال يمان بن زرياب : وهو أولى التأويلات الصواب ، لأن العَصَصُ أساس البدن الذى رُكِبَ عليه الخلق ، وأنه أول ما يُخْتَق ، وآخر ما يَبْلَى .
وقال مجاهد : بَذَنبُهَا .

وقال عكرمة والكلبي : بفضحتها الأيمن . ١٥

وقال السدي : بِالْبَضْعَةِ الَّتِي بَيْنَ كَتِفَيْهَا .

وقيل : بأذنها . ففعلوا ذلك ، فقام القتل — بإذن الله عز وجل — وأوداجه تَسْحَبُ دُمًا ، وقال : قتلى فلان . ثم مات وسقط مكانه ؛ قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال الكلبي : ثم قالوا بعد ذلك : « لم تقتله نحن » وأنكروا ، فلم يكونوا قط أقسى قلبا ولا أشد تكذبا منهم لنبيهم عند ذلك ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ تَمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ .

قال الكلبي : يست وأشدت .

وقال أبو عبيدة : جفت من الشدة فلم تين .

وقيل : غلظت .

وقيل : اشدت .

وقال الزجاج : تأويل القسوة ذهاب ألين والرحمة والخشوع والخضوع .

قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ ، أى من بعد ظهور الدلالات ، فهى فى غلظتها وشدتها (كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) ، أى بل أشد قسوة .

ثم عدّد الله تعالى الحجارة وفضلها على القلب القاسى ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَحْجَارِهَا مَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا مَا يَسْقَى فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَبْسُطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ ، أى يترى من أعلى الجبل إلى أسفل (وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) .

- ١٥ ذكر بناء بيت المقدس وخبر القربان والتابوت والسكينة وصفة النار وهذا البيت ليس هو البيت المقدس الموجود الآن ، وإنما هو الذى تسميه اليهود : « قبة الزمان » ويزعمون أن ذلك نص التوراة ، وكان من خبر هذه القصة ما رواه الثعلبي بإسناده عن وهب بن منبه قال : أوحى الله تعالى إلى موسى — عليه السلام — أن يتخذ مسجدا لجماعتهم ، وبيتا قدس للتوراة ، وتابوتا للسكينة وقيابا للقربان ، وأن يجعل لتلك المسجد مرادفات باطنها وظاهرها من الجلود
- ٢٠

الملبسة عليها، وأن تكون تلك الجلود من جلود ذبائح القربان، وحبالها من أصواف تلك الذبائح؛ وعهد إليه ألا تنزل تلك الحبال حاض، ولا يدبغ تلك الجلود جنب؛ وأمره أن ينصب تلك المرافقات على عمد من نحاس. طول كل عمود منها أربعون ذراعا، ويحمل فيها اثني عشر قميا مشرجا^(١)، إذا تقيضت صارت اثني عشر جزءا يحمل كل جزء بما فيه من العمود سبط من الأسياط من بني إسرائيل؛ وأمره أن يجعل سعة ذلك المرافق سبعة أذرع، وأن ينصب فيه سبع قباب، ست قباب منها مشبكة بقضبان الذهب والفضة، كل واحدة منهن منصوبة على عمود من فضة طول كل عمود منها أربعون ذراعا، وعليها أربعة دسوت ثياب، الباطن منها سندس أخضر، والثاني أرجوان أحمر، والثالث ديباج أصفر، والرابع من جلود القربان وقاية لها من المطر والغبار، وحبالها التي تمتد بها من صوف القربان، وأن يجعل سعتها أربعين ذراعا، وأن ينصب في جوفها مواك من فضة مربعة مربعة يوضع عليها القربان، سعة كل مائدة منها أربع أذرع، كل مائدة منها على أربع قوائم من فضة، طول كل قائمة ثلاث أذرع، لا ينال الرجل منها إلا قائما؛ وأمره أن ينصب بيت المقدس على عمود من ذهب، طوله سبعون ذراعا، وأن يضعه على سبكة من ذهب أحمر طولها تسعون ذراعا، مربعة بالوان الجواهر، وأن يجعل أسفله مشبكا بقضبان الذهب والفضة، وأن يجعل حباله التي يمتد بها من صوف القربان مصبوعة بالوان من أحمر وأصفر وأخضر؛ وأن يليه سبعة من الحلل، الباطن منها سندس أخضر، والثاني أرجوان أحمر، والثالث ديباج أصفر، والرابع من الحرير الأبيض، وسائرهما من الديباج والوشى؛ والظاهر غاشية له من جلود القربان وقاية له من الأذى والندى؛ وأمره أن يجعل سعته سبعين ذراعا، وأن يفرش القباب

(١) مشرجا، أي دخل بين عراه وضم بعضها إلى بعض.

- بالقز الأحمر؛ وأمره أن ينصب فيه تابوتا من ذهب كتابوت الميثاق، مرصعا بأنواع
الجواهر والياقوت والزمرد الأخضر، وقوائمه من الذهب، وأن يجعل سبعة
سبع أذرع في أربع أذرع، وعلوه قامة موسى عليه السلام، وأن يجعل له أربعة
أبواب: باب تدخل منه الملائكة، وباب يدخل منه موسى، وباب يدخل
منه هارون، وباب يدخل منه أولاد هارون، وهم سدة ذلك البيت وخزان
التابوت، وأمر الله نبيه موسى أن يأخذ من كل محلم من بني إسرائيل مثقالا
من الذهب فينقعه على هذا البيت، وأن يجعل باقى المال الذى يحتاج إليه
فى ذلك من الحل والحلل التى ورثها موسى وأصحابه من فرعون وأصحابه؛ ففعل
موسى ذلك، فبلغ عدد رجال بني إسرائيل ستمائة ألف وسبعمائة وخمسين رجلا
فأخذ منهم ذلك المال.

١٠

- وأوحى الله تعالى إليه أنى منزل عليكم من السماء نارا لا دخان لها ولا محرق
شيئا، ولا تنطفئ أبدا، لتأكل القرابين المقبلة، وتُسرج منها القناديل التى فى بيت
المقدس. وكانت من ذهب معلقة بسلاسل من ذهب، منظومة بالياقوت واللؤلؤ
 وأنواع الجواهر؛ وأمره أن يضع فى وسط البيت صخرة عظيمة من الرخام، وينقر
 فيها نقرَةً تكون كأنون تلك النار التى يُتَزَل بها من السماء؛ فدعا موسى أخاه هارون
 وقال له: إن الله تعالى قد أصفقانى بنار يُتَزَل بها من السماء لتأكل القرابين المقبولة
 وتُسرج منها القناديل، وأوصانى بها، وإنى قد أصفقتك لها وأوصيتك بها. فدعا
 هارون أبنيه وقال لهما: إن الله تعالى قد أصفقنى موسى بأمر وأوصاه به، وإنه
 قد أصفقانى له وأوصانى به، وإنى قد أصفقتكما وأوصيتكما به. وكان أولاد
 هارون هم الذين يلون سِدانة بيت المقدس وأمر القربان والنيان؛ فشربا ذات
 ليلة ثم حَمَلَا، ثم دخلا البيت وأسرجا القناديل من هذه النار التى فى الدنيا، فنضب

٢٠

الله عليهما، وسلط عليهما تلك النار حتى أحرقتهما، وموسى وهارون يدفنان عنهما النار فلم يَنْبِئَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا؛ فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: هكذا أفضل بن عصافى ممن يعرفى، فكيف أفضل بن لا يعرفى، والله أعلم.

ذكر ما أنعم الله تعالى به على بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال أبو إسحاق الثعلبي: اختلفوا فى معنى الملوك؛ فروى عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وأمرأة فهو ملك".

وقال أبو عبد الرحمن الحُبْلِي: سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاص — وماله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ — فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال: وإنت لى خادما. قال: فأنت من الملوك.

وقال الضبَّاح: كانت منازلهم واسعة. فيها مياه جارية، فمن كان مسكنه واسعا وفيه ماء جارٍ فهو ملك.

وقال قتادة: وكانوا أول من ملك الخدم، وأول من تُخَّر لهم الخدم من بنى آدم. وقال السدى: يعنى وجعلكم أحرارا تملكون أنفسكم بعد ما كنتم فى أيدى القبط بمتلة أهل الجزية. فأخرجكم الله تعالى من ذلك النذل.

﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾، يعنى من عالم زمانكم.

وقال مجاهد: يعنى المَن والسلوى والنجى والعمى.

قال : ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أن يسير ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة ويجاهد الجبارين؛ فأخرجهم موسى — عليه السلام — لذلك، فقال : (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ) .

قال الثعلبي : اختلفوا في الأرض المقدسة ما هي .

فقال مجاهد : هي الطور وما حوله .

وقال الضحاك : هي إيلياء وبيت المقدس .

وقال عكرمة والسدي وآبن يزيد : هي أريحا .

وقال الكلبي : دمشق وفلسطين وبعض الأردن .

وقال قتادة : الشام كله .

- ١٠ قال الكسائي : فلما أخبرهم موسى بذلك قالوا : يا موسى إنك قلت لنا حين أخرجتنا من مصر : إن الله تعالى بعثك لتتقذنا من عذاب فرعون، والآب فإنك تحملنا على ما هو أشق منه ، وبيننا وبين الأرض المقدسة المفاوز والقفار، وكيف ندخلها ولا زاد معنا ولا ماء ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى، قل لهم : إني منزل عليهم المن والسلوى ، وقد أمرت الحجر أن يتفجر لهم بالماء العذب ، وأمرت النعام أن يظلمهم ويسير معهم حيث ساروا ؛ وألا تنقب خفافهم ونعالهم ؛ وأمرت ثيابهم أن يلبسها صغيرهم وكبيرهم .

فلما سمعوا ذلك طابت نفوسهم ، وساروا نحو الأرض المقدسة والنعام يظلمهم في مسيرهم ، والماء تمطر عليهم بالمن، والريح بالسلوى، ويمجدون كل ما يحتاجون إليه ، ويضيء لهم بالليل عمود من النور، وتهب الريح على السلوى فتعطف ريشها فيطبخونها بنير تعب؛ ويقرع موسى — عليه السلام — الحجر فتفجر لهم اثنتا عشرة

عينا، تجرى كل عين إلى سبط من الأسباط، وثياهم جدد بيض لا تخلق، وهم في خضض ودعة.

وقال أبو إسحاق التلمی، كان ما أنعم الله تعالى به عليهم أنهم قالوا لموسى في آتیه: أهلكتنا وأخرجتنا من العمران إلى مفاوز لا ظل فيها. فأنزل الله تعالى عليهم غمامة بيضاء رقيقة ليست بغمام المطر أرق وأطيب وأبرد، فأظلمهم وكانت تسير معهم إذا ساروا، وتدور عليهم من فوقهم إذا داروا، وجعل لهم عمودا من نور يضيء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء القمر، فقالوا: هذا الظل والنور قد حصلنا، فأنزل الله عليهم المن.

واختلفوا فيه؛ فقال مجاهد: هو شيء كالصمغ يقع على الأشجار، وطعمه كالشهد.

وقال الضحاك^(١): هو الطرميجين.

وقال وهب: الخبز الرقاق.

وقال السدي: عسل كان يقع في السحر من الليل فياكلون منه.

وقال عكرمة: أنزل الله — عز وجل — عليهم مثل الزيت الغليظ.

وقيل: هو الزنجبيل.

وقال الزجاج: بحلة المن: ما عيّن الله عز وجل به تما لا تعب فيه ولا نصب.

فكان ينزل عليهم كل ليلة ويقع على أشجارهم مثل الثلج، لكل إنسان منهم صاع كل ليلة؛ فقالوا: يا موسى، قتلنا هذا المن بجلاوته، فأدع لنا ربك أن يطعمنا الخبز. ففدنا موسى عليه السلام، فأنزل الله — عز وجل — عليهم السلوى.

(١) كذا في تاريخ النبي؛ والقرى في كلا الأصلين: «مجاهد»؛ وهو تبديل من الناسخ، فان مجاهدا هو صاحب القول السابق.

قالوا : وأخلفوا فيه ؛ فقال ابن عباس — رضى الله عنهما — وأكثر المفسرين : هو طائر يشبه السماق .

وقال أبو العالية ومقاتل : بعث الله — عز وجل — السحابة فطرت السماق في عرض ميل وقدر طول ربح في السماء بعضه على بعض .
وقال عكرمة : طير يكون بالهند أكبر من المصغور .

فكان يأخذ كل واحد منهم ما يكفيه يوما وليلة من المن والسلوى ، فإذا كان يوم الجمعة أخذوا ما يكفيهم عن يومين ، لأنه لم يكن يزل عليهم يوم السبت ، فذلك قوله تعالى : (وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ولا تذخروا لند . فبخوا لند فقطع الله ذلك عنهم ، ودود وفسد ما آذنروا ، فذلك قوله تعالى : (وَمَا ظَلَمُونَا) معناه وما ضررنا بالمعصية (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) روى عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : لولا بنو إسرائيل لم يمتثر الطعام ، ولم ينجث اللحم ، ولولا حواء لم تنج أئمة زوجها . ثم قالوا : يا موسى ، من أين لنا الشراب ؟ قاستسقى لهم موسى ؛ فأوحى الله تعالى إليه : أن أضرب بعصاك الحجر .

قال الكلبي : وأخلف العلماء في الحجر ؛ فقال وهب : كان موسى — عليه السلام — يقرع لهم أقرب حجر من عرض المجارة فينتجر عيونا ، لكل سبط عين ، وكانوا آتني عشر سبطا ، ثم تسيل كل عين في جدول إلى سبط ؛ فقالوا : إن فقد موسى عصاه ميتا عطشا . فأوحى الله تعالى إليه : لا تفرعن المجارة بالعصا ولكن كلمها تطلع لعلهم يعتبرون . فكانت يفعل ذلك . فقالوا : كيف بنا لو مضينا إلى الرمل وإلى الأرض التي ليس فيها مجارة ؟ فأمر موسى فحمل معه حجرا ، فحينما نزل ألقاه .

وقال آخرون : كان حجرا غصوصا بينه ، والدليل عليه قوله : « الحجر »
فادخل الألف واللام للتعريف والتخصيص ؛ وأمر أن يحمله ، فكان موسى عليه
السلام يضعه في غلته ، وإذا أحتاجوا إلى الماء أخرجه وضربه بمصاه وسقام .
وقال أبو روق : كان الحجر من المضار . وكان فيه اثنتا عشرة حفرة ينبع من
كل حفرة ماء عذب ، فيأخذونه ، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بمصاه ؛
فيذهب الماء ؛ فكان كل يوم يستقي منه ستمائة ألف .

وقال سعيد بن جبير : هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه لنفسه ففرز
شوبه ، فلما وقف أتاه جبريل فقال : يا موسى - إن الله تعالى يقول لك : ارفع
هذا الحجر فإن لي فيه قدرة ، ولك فيه معجزة .
وقد تقدم ذكر خبر الحجر .

وورد أيضا في صحيح البخاري نحو ما تقدم .

قال أبو إسحاق الثعلبي : وكان مما أنعم الله تعالى به على بني إسرائيل أنهم
قالوا لموسى عليه السلام : من أين لنا اللباس ؟ ففعل الله تعالى نياهم التي عليهم حتى
إنها لا تزيد على الأيام ومروها إلا جنة وطراوة ، ولا تحلق ولا تتلى ، وتعو على
صبيانهم كما يخون .

قال : ثم سم بنو إسرائيل المن والسلوى ، فقالوا ما أخبر الله تعالى به عنهم :
﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تَنْتِفُ
الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَاقِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ﴾ .

وأختلف في الفوم ما هو ؟ فقال ابن عباس : هو الخبز ، تقول العرب :
« فُومُوا لنا » ، أى أخرجوا .

وقال عطاء وأبو مالك : هو الحنطة ، وهي لغة قديمة .

وقال النبي : هو الحبوب كلها .

وقال الكلبي والنضر بن شميل والكسائي والمؤرج : هو الثوم .

فقال لهم موسى عند ذلك : ﴿ أَتَسْتَبِيلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ يَٰلَٰئِذَا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَكْتُمُونَ ﴾ .

قالوا : مصر من الأمصار ، ولذلك توتنه ؛ ولو أراد مصر بعينها لقال : « مصر » ولم يصرفه ، كقوله تعالى : ﴿ أَذْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ أَمِينٌ ﴾ .

وقال الضحاك : هي مصر فرعون .

واليهود يزعمون أن موسى — عليه السلام — وبني إسرائيل حُرِّمَ عليهم بنص التوراة الدخول إلى مصر حين خرجوا منها عند اتباع فرعون لهم وغرقه ، وأنهم لم يدخلوها بعد ذلك . والله أعلم .

ولنرجع إلى أخبار النجباء وقتال الجبارين .

ذكر خبر النجباء ومسيرهم إلى أريحا ، وقصة عوج بن عُوق وخبر التيه قال الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ .

قال التلمذي : وذلك أن الله تعالى وعد موسى — عليه السلام — أن يورثه وقومه الأرض المقدسة ، وهي الشام . وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون ووعدهم أن يهلكهم ويعمل أرض الشام مسكن بني إسرائيل ؛ فلما استقرت بني إسرائيل النار بمصر أمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا .

(١) هكذا في القاموس وشرحه . وفي الأصل : « عتي » بالنون .

”هكذا قال الرب“ : بمصر^(١).

واليهود تذكر ذلك ، ويقولون : إن نص التوراة عندهم أن الله تعالى لما أغرق فرعون وقومه ونجى موسى وبني إسرائيل ، تنقلوا من مكان إلى آخر . ويدكرون أسماء الأماكن بالعبرانية — وليست تصرف الآن — وكان في خلال مسيرهم خبر التيه ، وكل ما تقدم ذكره من الأخبار يزعمون أنه في التيه ، والله أعلم .

نعود إلى سياق التعليل .

قال : فأمرهم الله تعالى بالمسير إلى أريحا وأرض الشام ، وهي الأرض المقدسة وقال : يا موسى ، إنى قد كتبته لكم دارا وقرارا ، فأخرج إليها وجهك من فيها من الصدق ، فإنى ناصركم عليهم ، وخذ من قومك اثني عشر تقيا ، من كل سبط تقيا يكون كفيلا على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به .

فاختار موسى — عليه السلام — التقاء .

قال : وهذه أسماءهم ؛ « من سبط روبيل شامل بن زكور . ومن سبط شمعون سافاط بن حري . ومن سبط يهوذا كالب بن يوفنا . ومن سبط أيسن حامل بن بكر

(١) نشر هذه العبارة التي بين هاتين الملاحظتين بأن قوله « بمصر » محل نظر . (٢) في تفسير الألويسي عند تفسير قوله تعالى : « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل » الخ : « فإمروا به » .

(٣) وردت أسماء هذه التقاء في التوراة صفحة ٢١٤ هكذا : « من راوبين أليصور بن شديبور ومن شمعون شلومييل بن صورشقاي ، ومن يهوذا نحشون بن عينا داب ، ومن يساكر فتايسيل بن صوهر ومن زبولون ألياب بن حيلون ، ومن بني يوسف من أفرايم اليشاماع بن عميود ، ومن منسى هكليل ابن دهبصور ، ومن بنيامين أنيدان بن جدعوني ، ومن دان أجيماز بن عيشقاي ، ومن أشير بنجيل بن عكران ، ومن جاد أليسايف بن دعوثيل ، ومن نفتالي أجيرع بن عيان » . وهي مخالفة كل المخالفة لما هنا كما ترى . وقد أورد النبي في تاريخه هذه الأسماء هكذا : « من سبط روبيل شامل بن زكور ومن سبط شمعون سافاط بن حوري ، ومن سبط يهوذا كالب بن يوفنا ، ومن سبط يساكر شال بن ماعون ومن سبط دان ججهد بن عيشدي ، ومن سبط جاد حاييل بن يوسف ، ومن سبط زبولون حوا بن سودا ، ومن سبط أشير شانون بن ليكا ، ومن سبط نفتالي حولا بن ليكا ، ومن سبط يوسف عليه السلام وهما سبطان سبط أفرايم وسبط منسى ، فاختار من سبط أفرايم يوشع بن نون ، ومن سبط منسى جدي بن سوشي ، ومن سبط بنيامين بلعم بن راغون » .

١٥
٢٠
٢٥

ابن سورا . ومن سبط يوسف وهو سبط افرام يوشع بن نون . ومن سبط بنيامين قلعلم بن رقوق . ومن سبط زبولون خدى بن سوري . ومن سبط يوسف وهو سبط منشى بن يوسف جدى بن سوشى . ومن سبط آشير شيانون بن ملكيل . ومن سبط نفتالى حنا بن وقشى . ومن سبط دان بجلائيل بن حمل . ومن سبط لاوى حولى بن مليكا .

(١٢١)

قال : فسار موسى بنى اسرائيل حتى اذا دنوا من ارض كنعان — وهى اريحا — بعث هؤلاء الثبَاءَ اليها يَحْتَسِبُونَ له الاخبار ويصلون عليها ؛ فلقبهم رجل من الجبارين يقال له : عُوْج بن عُوْج ، وكان طوله ثلاثة آلاف وعشرين ألف ذراع وتلاثمائة ذراع وتلاثين ذراعا .

- ١٠ قال ابن عمر — رضى الله عنهما — : وكان عُوْج يحتجز بالسحاب ويشرب منه ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بين الشمس يرفعه اليها ، ثم يأكله . وروى أنه أتى نوحا — عليه السلام — يوم الطوفان فقال له : احملى معك فى السفينة . فقال له : اذهب يا عدو الله فإنى لم أؤمر بك ؛ وطبق الماء ما على وجه الأرض من سهل وجبل فاجاوز ركنى عُوْج .

- ١٥ وعاش عُوْج ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يدى موسى .

- قال : وكان لموسى عسكر فرمخ فى فرمخ ، بغشاء عُوْج حتى نظر اليهم ، ثم جاء الى الجبل وقور منه صخرة على قدر العسكر ، ثم حلها ليُطَبَّقها على العسكر ، فبعث الله عليه المهدد ومعه الطيور ، وجعلت تنقر بمنقيرها حتى قورت الصخرة وأنتفتحت حتى وقعت فى عنق عُوْج . فطوّقته وصرعته ، فاقبل موسى وطوله عشر أذرع وطول عصاه عشر أذرع ، وترا فى السماء عشر أذرع ، فاصاب لآ كعبه وهو مصروع بالأرض ، فقتله .

قالوا : وأقبلت جماعة كثيرة ومعهم الخناجر حتى حزوا رأسه ، فلما قُتل وقع على نيل مصر فسكره سنة .

قالوا : وكانت أم عوج يقال لها : عناق ، وهي إحدى بنات آدم لصلبه .
ويقال : إنها كانت أول من بنت على وجه الأرض ، وكان كل أصبع من أصابعها ثلاث أذرع في ذراعين ، في كل أصبع طُفْران حاذان مثل المتبجين ، وكان موضع مقعدتها جريب من الأرض ، فلما بنت بعث الله تعالى إليها أسودا كالقيلة وذئبا كالإبل ، ونسورا كالحمر ، وسلطها عليها فقتلوها وأكلوها .

قالوا : فلما لقي عوج النقاء لقيهم وعلى رأسه حُرمة حطب ، فأخذهم وجعلهم في حُرْمته ، وأطلق بهم إلى أمراءه ، وقال : انظروا إلى هؤلاء الذين يريدون قتالنا . فطرحهم بين يديها وقال : ألا أطلعنهم رجلى ؟ قالت أمراءه : لا ، بل خل عنهم حتى يُخبروا قومهم بما رأوا . ففعل ؛ وجعلوا يتزفون أحوالهم .
وكان لا يحمل عقودَ عنهم إلا خمسة أنفس بينهم في خبشة ، ويدخل في قشر شطر الرقانة إذا تُرِعَ حبها خمسة أنفس .

قال : فلما خرج النقاء قال بعضهم لبعض : يا قوم إنكم إن أخبرتم بنى إسرائيل خبر القوم آرتدوا عن نبي الله ، ولكن آكتنموا وأخبروا موسى وهارون فيكونا هما يران رأيهما . فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك ؛ ثم أنصرفوا إلى موسى — عليه السلام — وجاعوا بحجة من عندهم وقر رجل ، ثم انهم نكتوا المهد ، وجعل كل واحد منهم يئى سبطه عن قتالهم ، ويخبرهم بما رأى . إلا يوشع وكآب .

قال : فلما سمع القوم ذلك من النقاء رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا : ياليتنا متنا في أرض مصر ، وليتنا نموت في هذه البرية ولا يدخلنا الله أرضهم ، فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمة لهم .

وجعل الرجل يقول لأصحابه : تمالؤا نجعل علينا رأسا وتنصرف إلى مصر؛ فذلك قوله تعالى إخبارا عنهم : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُدْخِلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ .

فلما قالوا ذلك وهبوا بالانصراف إلى مصر ، نحر موسى وهارون — عليهما السلام — سجدا ، ونحر يوشع وكالب ثيابهما ، وهما اللذان أخبر الله تعالى عنهما بقوله : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَمْرَ اللَّهِ عَلَيْهِمَا ﴾ ، أى يخافون الله .
وقرأ سعيد بن جبير (يخافون) بضم الياء .

قال : كانا من الجبارين ، فأسلما وأتبعما موسى . ﴿ أَمْرَ اللَّهِ عَلَيْهِمَا أَدْخِلُوا عَلَيْهِمُ أَبَابًا إِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ ، لأن الله تعالى متعز وعده ، وإنا أتيناهم فكانت أجسامهم عظيمة قوية ، وقلوبهم ضعيفة ، فلا تحشوم ، وعلى الله فتوكّلوا .
﴿ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ . فأراد بنو إسرائيل أن يرجعوهما بالحجارة . وقالوا : يَا مُوسَى إِنَّا لَنَنُدْخِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ .

فلما قالوا ذلك غضب موسى وقال : رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . وكانت عجلة عجلها موسى — عليه السلام — فظهر الغم على قية الزمان ، وأوحى الله تعالى إلى موسى : إلى متى يعصيني هذا الشعب ، وإلى متى لا يصعدون بالآيات ؟ لاقتنهم جميعا ، ولأجعلن بدلهم شعبا أشد وأكثر منهم .

قال موسى : إلهي لو أنك قتلت هذا الشعب كله كرجل واحد قالت الأمم الذين سمعوا : إنما قتل هذا الشعب من أجل أنه لم يستطع أن يدخلهم الأرض المقدسة ، فقتلهم في البرية ، وإك طويّل صبرك . كثيرة نِعْمُكَ . وأنت تغفر الذنوب ، وتحفظ الآباء على الأبناء ، وأبناء الأبناء ، فأغفر لهم ولا توبخهم .

قال الله تعالى : قد ضرت لم بكلمتك ، ولكن بعد ما سميتهم فاسقين ودعوت عليهم ، لأحزمَن عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدى يوشع وكآب ولايتهم في هذه البرية أربعين سنة ، ولتقين جفهم في هذه الففار ، وأما بنوهم الذين لم يعملوا الخير والشر فانهم يدخلون الأرض المقدسة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ في سنة فرائح ، يسعون كل يوم جادين ، حتى إذا سموا وأمسوا ، فإذا هم في الموضع الذي أرتحلوا منه وكانوا ستمائة ألف مقاتل ، مات النقاء العشرة الذين أفسدوا الجربة بنة ، وكل من دخل التيه من جاوز عشرين سنة مات في التيه غير يوشع وكآب ، ولم يدخل أريحا أحد ممن قال : إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا .

فلما هلكوا وأقضت أربعون سنة ، ونشأت النواشئ من ذرارهم . ساروا إلى حرب الجبارين ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ والله المعين .

ذكر مسير موسى — عليه السلام — وبني إسرائيل

لحرب الجبارين ودخولهم القرية

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ مُغْتَابًا وَقُولُوا هَٰذَا لَكُمْ حِطَّةٌ تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

اختلف المفسرون في القرية :

قال ابن عباس : هي أريحا ، وهي قرية الجبارين ، وكان فيها بقية من عاد

يقال لهم : العالقة .

وقيل : هي بلقاء .

وقال ابن كيسان : هي الشام .

وقال الضحاك : الرملة والأردن وفلسطين وتدمر .

وقال مجاهد : بيت المقدس .

وقال مقاتل : لإيلاء . وقوله : رَعَدًا ، أى موسما عليكم .

والباب : باب من أبواب القرية ، وكان لها سبعة أبواب .

وقال مجاهد : هو باب في بيت المقدس يُعرف إلى اليوم بباب حطة .

وقيل : هو باب القبة التي كان موسى يصلّي إليها .

وعن مجاهد أيضا : أنه باب في الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى كالقُرصة .

وقوله : مُجَدًّا ، أى متحين متواضعين .

- ١ . وقال وهب : قيل لهم : ادخلوا الباب فإذا دخلتموه فأعجبوا شكرا لله عز وجل ، وذلك أن موسى — عليه السلام — لما أنقضت مدة النبيه سار بالأنباء إلى القرية ودخلها ، ودخل المؤمنون سجدا كما أمرهم الله تعالى . وقوله : ﴿ وَقُولُوا حُطَّةٌ ﴾ ، قال قتادة : حُطَّتْ عَنَّْا خطايانا ، أمروا بالاستغفار .

قال ابن عباس : يعني لا إله إلا الله ، لأنها تحط الذنوب .

- ١٥ ﴿ قَبِلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ .

قال مجاهد : طُوطِيْ لَهُمُ الباب ليخفصوا رءوسهم ، فلم يخفصوا ولم يركعوا ولم يسجدوا ، ودخلوا يزحفون على أستاههم ، وقالوا قولا غير الذي قيل لهم ، وذلك أنهم أسروا أن يقولوا : حطة ؛ فقالوا : (هطلا سماتنا) ، ينون حطة سمراء استخفافا بأمر الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ

- ٢ . بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ . وذلك أن الله تعالى أرسل عليهم ظلما وطاعونا ، فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفا .

قال الكسائي : وطلب موسى على مدينة أريحا ، وهرب من كان بها من الجبارين .

وقيل : إنما دخل موسى الآن أرض كنعان ، وإن مدينة أريحا فتحها يوشع ابن نون بعد وفاة موسى — عليه السلام — على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار يوشع .

ذكر خبر مدينة بلقاء وخبر بلعم بن باعورا وما يتصل بذلك قالوا : ولما دخل موسى بني إسرائيل أرض كنعان ، سار منها يريد مدينة بلقاء .

قال مقاتل : سميت بلقاء لأن ملكها كان يقال له : بالق ، وكان بها بلعم بن باعورا ، وهو الذي أنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا قَاتِبَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ الآيات .

وقيل : نزلت الآيات في غيره — على ما نذكره إن شاء الله تعالى آخر القصة — .

وآخلف أيضا في اسمه ونسبه .

فقال ابن عباس — رضي الله عنهما — : هو بلعم بن باعورا .

وقال ابن مسعود — رضي الله عنه — : بلعم بن ابر .

وقال مجاهد : بلعام بن باعر .

وقال الثعلبي : قال أكثر المفسرين : هو بلعام بن باعورا بن أيدن بن مآرب ابن لوط ، وكان من الكنعانيين .

وقال عطية عن ابن عباس : هو من بني إسرائيل .

وقال علي بن أبي طلحة عنه : هو من الكتائبين من مدينة الجبارين .

وقال مقاتل : هو من مدينة بقاء .

- قالوا : فلما أقبل موسى بنى إسرائيل إلى مدينة بقاء، كان أهلها يعبدون الأصنام، فلما بلغ الملك مسير موسى — عليه السلام — إليه استشار أكابر دولته، فقالوا له : إن فرعون لم يطقه مع كثرة جنوده، فأتى أولى آلًا تطيقه، غير أن هاهنا رجل لا يعرف ببلعام مجاب الدعوة، التمس منه أن يدعو عليهم ليكفيك ربك أمر موسى . فبعث الملك إليه وأحضره وتحدث معه في أمر موسى ؛ فقال : حتى أستاذن ربي . ودخل بلم مصلاه وأستاذن في الخروج ، فأوحى إليه أن هذا السكران بنو إسرائيل . وعليهم موسى رسول . ولا تخرج إليهم . فقال بلم لرسول الملك : إن ربي قد منعني من ذلك، فأنصرفوا وعرفوا الملك .

- وكان بلم امرأة، فأهدى لها الملك هدية نفيسة، وسألها أن تكلم زوجها في التوجه مع الملك ؛ فسأته ؛ فقال : قد أستاذنت ربي فنهاني . فلم تزل به حتى أستاذن الله ثانيًا ؛ فأوحى الله إليه : أنى نيتك عن ذلك . والآن قد جعلت الأمر إليك . فطابت نفسه بالخروج مع الملك . حكاه الكسائي .

- وقال التلمبي في تفسيره، وعزاه إلى ابن عباس وابن إسحاق والسدي وغيرهم : إن موسى — عليه السلام — لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض كنعان من أرض الشام . أتى قوم بَلْعَام — وكان عنده اسم الله الأعظم — فقالوا : إن موسى رجلٌ حديد، ومعه جنود كثيرة . وإنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل . وإنا قومك وبنو عمك ، وليس لنا متزل . وأنت رجل مجاب الدعوة فأخرج وأدع الله أن يرّد عنا موسى وقومه . فقال : ويلكم، هو نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون، كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! وإني إن فعلت ذلك ذهب

- دنيائى وآخرى . فراجعوه فى ذلك ، فقال : حتى أوامر ربى . — وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به فى المنام — فأمر فى الدعاء عليهم ، فقبل له فى المنام : لا تدعُ عليهم . فقال لقومه : إني قد نهيته عن الدعاء عليهم . فاهدؤا إليه هدية قبلها ، ثم راجعوه فى الدعاء عليهم ، فقال : حتى أوامر . فأمر فلم يحر إليه شئ . فقال : قد أمرت فلم يحر إلى شئ . فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك فى المرة الأولى . فلم يزالوا به يرفقونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتن ، فركب أتاناً له متوجها إلى جبل يطلمه على عسكر بنى إسرائيل يقال له : (حَبَّان) ؛ فلما سار عليها غير كثير رُبِضَتْ ، فترل عنها فضربها ، حتى إذا ألما قامت ، فركبها فلم تسر به كثيرا حتى رُبِضَتْ ، فترل عنها وضربها حتى إذا ألما أُذِنَ لما بالكلام ، فتكلمت حجة طيه ، فقالت : ويحك يا بلعم ، أين تذهب ؟ ألا ترى الملائكة أمامى يرتدونى عن وجهى هذا ؟ تذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم يرتع عنها ؛ فغسل الله سيلها ، فانطلقت حتى إذا أشرفت به على جبل (حَبَّان) جعل يدعو عليهم ، فلا يدعو بشئ إلا صُرف به لسانه إلى قومه ؛ ولا يدعو لقومه بخير إلا صُرف لسانه إلى بنى إسرائيل ؛ فقال قومه : يا بلعم أنتدرى ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا . قال : فهذا مالا أملك . وأتدلع لسانه فوقع على صدره ، فقال لهم : قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسامركم وأحتال ، جعلوا النساء وزينوهن وأعطوهن السِّلَع ، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعن فيه ، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها ؛ فإنهم إن زنى منهم رجل واحد كفيتهم . ففعلوا ؛ فلما دخل النساء العسكر أمرت ١٥ امرأة من الكنعانيين أسمها كُتتى بنت صموئيل بن عطاء بنى إسرائيل يقال له :

(١) كذا ضبط هذا الاسم فى تاريخ العتيق فى الأجزاء المكتوبة بخط المؤلف ضبطا باقلم .

(١٥٥)

زمرى بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - طعيم السلام - فقام إليها فاخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل حتى وقف على موسى فقال له : إني أظنك ستقول : هذه حرام عليك . قال موسى : أجل ، هي حرام عليك ، لا تقربها . قال : فواقة لا تطيعك في هذا . ثم دخل بها فبته فوقع عليها

فأرسل الله تعالى الطاعون على بني إسرائيل في الوقت ؛ وكان فنحاص بن العيزار ابن هارون صاحب أمر موسى رجلا قد أعطى بسطة في الخلق وقوة في البطش وكان غلبا حين صنع زمرى بن شلوم ماصنع ، بغشاء والطاعون يمحوس في بني إسرائيل فأخبر الخبر ، فاخذ حربته ، وكانت كلها من حديد ، ثم دخل عليها القبة وهما مضطجعا فتظلهما بحربته ، ثم خرج بهما رافعا حربته إلى

السماء قد أخذها بذراعه ، واعتمد بمرفقه على خاصرته ، وأسند الحربة إلى لحيته ١٠ - وكان يكر العيزار - وجعل يقول : اللهم هكنا تفعل بمن يعصيك ؛ ورفع الطاعون ، فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون - فبين أن أصاب المرأة إلى أن قتله فنحاص - فوجدوه قد أهلك منهم سبعين ألفا في ساعة واحدة من النهار . قال : فمن هناك يعطى بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها لخالصة^(١١)

والذراع والليقة ، لاعتماده بالحربة على خاصرته ، وأخذة إياها بذراعه ، وإسناده إياها إلى لحيته ، واليكر من كل أموالهم وأنفسهم ، لأنه كان يكر العيزار بن هارون .

قال الشعبي أيضا : وقال مقاتل : إن ملك البقاء قال لبهام : ادع الله على موسى . فقال : إنه من أهل ديني فلا ادعوا عليه . فتحت الملك خشبة ليصلبه فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعوا عليه ، فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان

٢٠ (١) كما في كتاب الطي المقول عنه هذا الكلام من ١٨٧ طبع المطبعة البية - والقى في كلا الأملين : « القبة » وهو يتبدل من التامع اذ لا يناسب معناه سياق ما هنا .

وقد وقفت، فضربها، فقالت : لم تضربني وأنا مأمورة؟ فلا تظلمني، وهذه ناز
أماي قد منعتني أن أمشي . فرجع فأخبر الملك؛ فقال : لتدعون عليه أو لأصلبكم .
فدعا على موسى باسم الله الأعظم ألا يدخل المدينة، فاستجيب له، ووقع موسى
في التيه بلعائه، فقال موسى : يارب بأي ذنب وقعنا في التيه . فقال : بدعاء بلعام .
قال : رب بما سمعت دعاءه علي فاسمع دعائي عليه . فدعا موسى أن يترع منه
الامم الأعظم والإيمان . فسلخه الله مما كان عليه، ونزع منه المعرفة، فخرجت
حكمامة يعضاء، فذلك قوله عز وجل (فَأَنْسَلَخْ مِنْهَا) .

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وأبو روق وزيد بن أسلم :
نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت ، وكانت قصته أنه كان في ابتداء أمره
قد قرأ الكتب وعلم أن الله عز وجل يرسل رسولا في ذلك الوقت، ورجا أن
يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل الله تعالى محمدا - صلى الله عليه وسلم - حسده
وكان قد قصد بعض الملوك، فلما رجع مرة بقتل بدر، فسأل عنهم؛ فقيل : قتلهم
محمد . فقال : لو كان نبيا ما قتل أقرباه . فلما ماتت أمت أخته فارة رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - فسالها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن وفاة أخيها؛
فقال : بينا هو راقد أتاه أثنان فكشفا سقف البيت وزلا، فقعدا أحدهما عند
رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه : أوعى؟ قال :
وعى . قال : أَرَأَيْكَ قَالَ : أَيْ . [قالت^(١)] : فسأله عن ذلك؟ فقال : خير أريد
بي فصرف عني . ثم غشي عليه، فلما أفاق قال :

(١) كذا في كتاب التلخيص المتقول مع هذا الكلام ص ١٨٢ طبع المطبعة البية . والذي في كتابنا
التلخيص : « إن كان » وهو محريف .
(٢) لم ترد هذه الكلمة التي بين مبرسين في كلا الأصلين ؛ وقد أشتناها عن كتاب أبي إسحاق التلخيص
في قصص الأنبياء المتقول مع هذا الكلام .

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا • صَاثَرُ أَمْرِهِ إِلَى أَنْ يَزُولَا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ لِي • فِي قِلَالِ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولَا
إِنَّكَ يَوْمَ الْحِسَابِ يَوْمٌ عَظِيمٌ • شَابَ فِيهِ الصَّغِيرُ يَوْمًا تَحِيلَا
ثُمَّ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْشِدِينِي مِنْ شِعْرِ أَخِيكَ .
فَأَنشَدَتْهُ :

لَكَ الْحَمْدُ وَالنَّعْمَاءُ وَالْفَضْلُ رَبَّنَا • وَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْكَ جَدًّا وَإِعْجَدُ
مَلِكُ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مَهِيْمٌ • لِعَزَّتْهُ تَعَنُّو الرُّجُوهُ وَتَسْجُدُ
وَهِيَ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ ، حَتَّى أَتَتْ عَلَى آخِرِهَا .

وَأَنشَدَتْهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

يُوقِفُ النَّاسَ لِلْحِسَابِ جَمِيعًا • فَشَقِيٌّ مَعْلَبٌ وَسَعِيدُ
ثُمَّ أَنْشَدَتْهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ تُعْرَضُونَ عَلَيْهِ • يَسْلُمُ الْجَهْرُ وَالسَّرَارُ الْخَفِيَّا
يَوْمَ تَأْتِي الرَّحْمَنَ وَهُوَ رَحِيمٌ • إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيَا
يَوْمَ آتِيهِ - مِثْلَ مَا قَال - فَرْدًا • ثُمَّ لَا أُدْرِي رَاشِدًا أَمْ غَوِيَا
أَسْعِيدَا إِسْعَادَهُ أَنَا أَرْجُو • أَوْ مُهَانَا بِمَا أَكْتَسَبْتُ شَقِيَا
إِنْ أُوَاحِذُ بِمَا أَجْتَرَمْتُ فَلَا تَنِي • سَوْفَ أَلْقَى مِنَ الْعَذَابِ فَرِيَا
رَبِّ إِنْ تَمَفَّ فَلَمَعَاةَ ظَنِّي • أَوْ تَعَايَبَ فَلَمْ تَعَايَبَ بَرِيَا

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ . وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ :
(وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آمَنَتْهُ آيَاتِنَا فَأَنسَلَخَ مِنْهَا) الْآيَاتِ .

(١) يلاحظ أنه حذف الياء من قوله : «أدري» لضرورة الوزن .

ومنه من قال : إن الآيات نزلت في ألبسوس ، وكان رجلا أُعطي ثلاث دعوات مستجابة : وكانت له امرأة ، وكان له منها ولد ، فقالت : اجعل لي منها دعوة واحدة . فقال : لك فيها دعوة ، فما تريدن ؟ قالت : أدع الله أن يجعلني أبجلَ امرأة في بني إسرائيل . فدعا لها ، فصارت أبجلَ امرأة في بني إسرائيل ؛ فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه ، فغضب ودعا عليها ، فصارت كلبة نباحة ، بغاء بنوها وقالوا : ليس لنا على هذا قرار ، قد صارت أمنا كلبة نباحة والناس يسيرون بها ، فادع الله أن يرتها إلى الحال التي كانت عليها . فدعا الله تعالى ، فعادت كما كانت ، فذهبت فيها الدعوات .

وقال أبو سعيد : نزلت في أبي عامر بن نهان بن صيفي الزاهد الذي سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم : القاسق ، وكان قد تهرب في الجاهلية وليس المصح ١٠ وقدم المدينة ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما هذا الذي جئت به ؟ فقال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم . قال : فانا عليها . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لست عليها ، ولكك أدخلت فيها ما ليس منها . ثم خرج إلى كفار قریش .

وأخبره تذكّر — إن شاء الله — في سيرة سيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم ١٥ .

فهذا ما قيل في تفسير هذه الآية .

قال الكسائي : ونادى موسى في قومه بعد رفع الطاعون عنهم : « أن أحلوا » . فحلوا وأقتلوا ، فقتل الملك وبلغم ، وأنهزم الباقون ، وغنم بنو إسرائيل من النساء والولدان شيئا كثيرا . والله تعالى أعلم بالصواب .

ذكر خبر وفاة هارون عليه الصلاة والسلام

- قال الكسائي : — وذكر وفاة هارون إثر خبر البقرة وقتل عاميل — قال :
- لما كان بعد قتل عاميل نظر هارون إلى جبل في التيه بيد من السكر ، فقال :
- يا موسى . ألا نمضي إلى ذلك الجبل فننظر إلى خضرته ونضارته . ففضيا من الغد
- ومعهما أولاد هارون ، فأتوه فإذا هو جبل كثير المياه والعشب والكهوف
- وفيه كهف واسع يسطع نورا ، فدخلوه وإذا هم يسرير من ذهب عليه أنواع من
- الفرش ، فصعد هارون إليه وتام . بغاء طوله ، فهم أن يتزل ، فأنه ملك الموت
- في صورة شاب حسن ، قبض روحه . وغسلته الملائكة ، وصلى موسى عليه ، وسدوا
- باب الكهف ، وعاد موسى إلى بني إسرائيل ، فسألوه عن هارون ، فأخبرهم بوفاته
- قالوا : بل قتلته . فقال : ما ذا لقيت منكم يا سفهاء بني إسرائيل ، أقتل أخى
- وشقيقى ؟ ثم دعا ربه أن يرهم إياه على صورته . فأمر الله تعالى الملائكة أن يخرجوا
- سريره من الكهف ، فأخرجوه وحملوه في الهواء حتى نظرت إليه بنو إسرائيل . ثم
- نادت الملائكة : يا بني إسرائيل . هذا سرير هارون قد قبضه الله تعالى إليه .

- وقال أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره في وفاة هارون — عليه السلام — قال
- السدّي : أوحى الله تعالى إلى موسى — عليه السلام — أن يتوفى هارون ، فأت
- به جبل كذا وكذا . فأطلق موسى وهارون — عليهما السلام — نحو ذلك الجبل
- فإذا هما بشجرة لم يريا شجرة مثلهما ، وإذا بيت مبنئ ، وفيه سرير عليه فراش
- وإذا فيه ربح طيبة ، فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه وقال : يا موسى ، إني أحب
- أن أنام على هذا السرير . قال : ثم عليه . قال : إني أخاف أن يأتي رب هذا
- البيت فيغضب علي . قال موسى : لا ترهب ، أنا أكفيك رب هذا البيت ، ثم

قال : يا موسى، بل نعم معي، فإن جاء ربّ البيت غضب عليّ وعليك جميعاً . فلما
 تأمّا أخذ هارون الموت، فلما وجد حِسّه قال : يا موسى خذ عني . فلما قبض
 — عليه السلام — رُفِعَ ذلك البيت، وذهبت تلك الشجرة، وُرفِعَ السرير به إلى
 السماء، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وأيس معه هارون — قالوا : إن موسى قتل
 هارون وحسده لحبّ بني إسرائيل له . فلما أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين، ثم دعا
 الله تعالى، فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض؛ فصَدَّقوه .

﴿٧٧﴾

وقال الثعلبيّ أيضاً . وقال عمرو بن ميمون : مات هارون — عليه السلام —
 في الثَّيِّه، ومات قبل موسى، وكانا خرجا في الثَّيِّه إلى بعض تلك الكهوف . فمات
 هارون، فدفنه موسى . وأنصرف إلى بني إسرائيل . فقالوا : ما فعل هارون؟ قال :
 مات . قالوا : كذبت، ولكنك قتلتَه لحبنا إياه — وكان محبّاً في بني إسرائيل —
 فنضّرع موسى إلى الله تعالى وشكا ما لقي من بني إسرائيل؛ فأوحى الله إليه : أن
 أطلق بهم إلى قبره . فأتى بأعنه حتى يخبرهم أنه مات وماتاً وأنك لم تقتله . فانطلق
 بهم موسى إلى قبره، فنادى : يا هارون . فخرج من قبره ينفض رأسه ؛ فقال :
 أنا قاتلك؟ قال : لا . ولكني ميتٌ . قال : فعُدْ إلى مَضْجَعِكَ . فعاد — عليه
 السلام — وأنصرفوا .

ذكر وفاة موسى بن عمران — عليه الصلاة والسلام —

قال أبو إسحاق الثعلبيّ — رحمه الله — قال ابن إسحاق : كان موسى — عليه
 السلام — قد كره الموت وأعظمه، فأراد الله تعالى أن يحبب إليه الموت ويكرّه
 إليه الحياة؛ وكان يوشع بن نون يندو عليه ويروح، فيقول له موسى : يا نبيّ الله
 ما أحدث الله إليك . فيقول له يوشع : يا نبيّ الله، ألم أصحبك كذا وكذا سنة، فهل

كنتُ أسألك عن شيءٍ مما أحدث الله إليك حتى تكون أنتَ تبدئُ به وتذكره ؟
ولا يذكر له شيئاً .

فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحبَّ الموت .

- وعني وهب أنه قال — وذكر من كرامة موسى عليه السلام — أنه ضاق ببني إسرائيل ذرعاً لما كثروا عليه ؛ فأوحى الله تعالى إلى ألف نبيٍّ أن يكونوا أعواناً له ؛
فلما مال الناس إليهم وجد موسى في نفسه : فأماتهم الله تعالى إكرامته في يوم واحد .
- والذي صحَّ لنا من خبر وفاة موسى — عليه السلام — ما ثبت في صحيح البخاري وهو ما حدثنا به الشيخان المُسنِّدان المعمران : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب نعمة بن حسن بن علي بن ستان الشُّعْنَة الصالحى الحنَّال ، وسُت الوزراء أُم محمد ^(١) (وزيرةُ) ابنةُ الشيخ الإمام شمس الدين أبي حفص عمر ابن القاضي وجهه آلدين أسعد بن المنجا التنوخي كَلْدَشَقِيَّان - قراءة عليهما ، وأنا أسمع بالمدينة المنصورية مُحَطَّ (بين القصرين بالقاهرة المعزّية) - وذلك في يوم السبت السابع من جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعائة ، بقراءة الشيخ علاء الدين علي بن المارديني ، قالوا : حدثنا الشيخ سراج الدين أبو عبد الله الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى الزبيدي ، قال : أخبرنا الشيخ أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شبيب السَّجَزِيّ الصوفي ثم الحرّوي ، قال : أخبرنا الإمام جمال الدين أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن مظفر بن محمد بن داود الداودي ، قال : أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن حمويه التنوخي ، قال : أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفهري ، قال : حدثنا الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن

(١) كتبنا في الدرر الكامنة أم عبد الله .

إبراهيم بن الخليفة بن الأخنف الجفني مولاهم البخاري - رحمه الله - قال :
حدثنا محمود ، حدثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن
أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام
فلما جاءه صكه ، فرجع إلى ربه فقال : أرسلني إلى عبد لا يريد الموت . فردّ
الله عليه عينه وقال : ارجع فقل له يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت به
يده بكل شعرة سنة . قل : أي رب ثم ماذا؟ قال : ثم الموت . قال : فالآن . فقال
الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر . قال : قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - : فلو كنت تم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر .

قال الثعلبي : وكان عمر موسى - عليه السلام - مائة وعشرين سنة ، عشرون
منها في ملك أفريديون ، ومائة سنة في ملك منوهر ، وبعث الله تعالى بعد موسى
يوشع عليهما السلام .

كل الجزء الثالث عشر من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين
أحمد بن عبد الوهاب البكري النيمي القرشي المعروف بالنويري - رحمه الله تعالى -
وبله الجزء الرابع عشر . وأوله : الباب الثاني من القسم الثالث من الفن الخامس فيما
كان بعد موسى بن عمران عليهما السلام ، وهو أخبار يوشع بن نون وحرقل وإلياس
واليسع وغيل واشمويل وداود وطالموت وجالوت وسليمان بن داود عليهم السلام .

والحمد لله رب العالمين ما

استدراك

قد وقعت بعض أخطاء مطبعية يسيرة في هذا الجزء ، فرأينا أن نستدرك ما عثرنا عليه منها بعد الطبع ، وهي في ثلاثة مواضع :

(١) وقع في صفحة ٢٨ سطر ٥ قوله : « إبناء » . والصواب « بناء » بنير ألف في أوله .

(٢) وفي صفحة ١٧٣ سطر ٩ قوله : « ونحروج » . والصواب : « وحروب » كما في بعض النسخ .

(٣) وفي صفحة ٢٢٠ سطر ٣ ما نصه : « أجده أمة مرحومة ضعفاء يرتون الكلاب الذين اصطفينا فنهم ظالم لنفسه » الخ . وقد كتبنا في الحاشية رقم ١ من هذه الصفحة ما يفيد أن قوله : « الذين » غير واضح موقعها من الإعراب في هذه العبارة بخلاف موقعها من الآية المقتبسة منها ، وهي قوله تعالى : « ثم أورثنا الكلاب الذين اصطفينا من عبادنا » اهـ . وقد تبين لنا أن قوله : « الذين اصطفينا » زائدة في هذه العبارة التي وردت في كلام المؤلف ، فقد ورد هذا الكلام في كتاب الثعلبي المقول عنه هذا الكلام — مع اختلاف في بعض ألفاظه ، فليلاحظ — ونصه : « أجده أمة مرحومة أصفياء يرتون الكلاب فنهم ظالم لنفسه » الخ .



صَكُلُ طبع " الجزء الثالث عشر من كتاب نهاية الأرب "
بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الثلاثاء ٢٨ شوال سنة ١٣٥٧
(٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٨) م

محمد تميم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧/٢٤ / ٢٥٠٠)
